الدكتور أحمد مطلوب

اتجاهات النقد الأدبي

في القرن الرابع للهجرة

الناشر
وكالة المطبوعات
٢٢ شارع فهد السالم - الكويت

اتجاهات النقد الأدبي

في القرن الرابع للهجرة

الطبعة الاولى
١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد تطور النقد الادبي عند العرب في القرن الرابع للهجرة وازدهر بعد ان كان ملاحظات بيانية وآراءً عامة لا تقوم على أصول واضحة ومنهج قويم يجمع حباتها وينتظم فصولها . ولا عجب فقد كان هذا القرن كما سماه آدم متز « عصر النهضة في الاسلام » وهو عصر تقدمت فيه العلوم المختلفة وتطورت الفنون الأدبية ونضجت الدراسات اللغوية والنحوية . ولا يخلو كتاب مما ألف في تأريخ النقد العربي من وقفة تطول أو تقصر عند هذا القرن ، ولعل دراسة المرحوم طه احمد ابراهيم عن « تأريخ النقد الادبي عند العرب » كانت من أسبق الدراسات وأنضجها في هذا الحقل ، فقد وقف ـ رحمه الله ـ عند علمين من أعلام النقد في القرن الرابع هما الآمدي والقاضي الجرجاني واستخلص آراءهما التي تمثل قمة النقد في القديم . وتوالت الدراسات التأريخية بعد ذلك وظهرت كتب كثيرة تحدثت فيما تحدثت عن النقد في القرن الرابع للهجرة . وكان آخرها كتاب « تاريخ النقد الادبي عند العرب ـ نقد الشعر ـ من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري » للدكتور إحسان عباس . وفي هذا الكتاب صورة مشرقة للنقد العربي ، وقد استطاع مؤلفه بعلمه الغزير وذوقه الرفيع أنْ يُجْلي أهم جوانب النقد حتى القرن العاشر للهجرة ، وأن يشير الى المعالم الواضحة وينبّه الى أصالة النقد الادبي عند العرب . ولكن هذا الجهد العظيم الذي بذله الدكتور إحسان لا يعني توقف الدراسات والاكتفاء بما ظهر ، لأنَّ الكثير من القضايا ما تزال بحاجة الى العرض الشامل والتفسير الجديد ، ولأنَّ الاهتمام بقرن واحد ينتهي من غير شك الى استجلاء وتفصيل وتفسير لا نجده في الدراسات التي تُعنى بفترات طويلة أو قرون كثيرة ، يضاف الى ذلك ان الباب لن يغلق وان الدراسات لن تتوقف ما دام الكثير من

الكتب القديمة مفقوداً أو مهملا . ومعنى ذلك انه ستظهر كتب تكون في حاجة الى دراسة عميقة وَرَصْدٍ لأصولها ووضعها في مكانها المناسب من الفترة التي ظهرت فيها لتعطي فكرة واضحة لتطور النقد ، ولتربط حلقاته التي قد تكتمل اذا وجدت من يتابعها ويرسم فصولها .

والدراسات العامة التي ظهرت لا تمنع من الوقوف على القرن الرابع للهجرة وبحث التيارات النقدية التي وجهت الحياة الادبية ، وهو قرن جدير بالعناية والاهتمام لانه يمثل أزْهى عصور النقد الادبي عند العرب ، ففيه استقرت أُصوله وظهرت الدراسات التي قام بها الادباء ، وبلغ النقاد في أحكامهم وآرائهم ذروة لم يصل إليها النقد من قبل ، بل لم تتجاوزها القرون التي أعقبته إلاّ ما كان من عبد القاهر الجرجاني وضياء الدين بن الاثير .

وأهم اتجاهات النقد في القرن الرابع للهجرة أربعة هي : النقد والبديع ، والنقد والاعجاز ، والنقد وأبو تمام ، والنقد والمتنبي . أما الاتجاه المتأثر بالثقافة اليونانية فقد كان من أضعف التيارات ظهوراً في مجال التطبيق ، ولذلك لا يجد الباحث في هذا الجانب نقداً يقرب من الاتجاهات الاخرى . وأصدق ما يقال ان كتابي « الخطابة » و « الشعر » لارسطو تُرجما في هذا القرن أو قبله بقليل ، وقام بعض المفكرين والفلاسفة بالشرح والتعليق عليهما ، ولكن هذه الشروح او التعليقات لم تفد النقاد كثيراً ، ولا نكاد نجد ناقداً يتخذها أساساً في نقده التطبيقي وانما هي آراء تعرض وأقوال تذكر في كتب الفلاسفة والأدباء المتأثرين بالثقافات الاجنبية . ولأجلِ ذلك لم يكن التأثير الاجنبي تياراً مستقلاً في هذه الدراسة وإنْ وَجَّهَ التيارات الأخرى أحيانا وأفادت منه في بعض القضايا كما فعل قدامة في « نقد الشعر » وابن وهب في « البرهان في وجوه البيان » وغيرهما ممن عزفوا عن التمسك بالثقافة اليونانية والفلسفة والمنطق ولكنهم وقعوا في التأثر وذكروا في كتبهم ما يمكن ارجاعه الى تلك الثقافة . ولا يمكن للباحث أن يهمل وهو يدرس القرن الرابع كتب المختارات مثل كتاب « الأشباه والنظائر » للخالديين ، ولكن النقد فيه لا يرسم صورة واضحة ، لأنَّ الهدف لم يكن وضع

أسس نقدية وإما اختيار ما وقع اليهما من اشعار المتقدمين والمخضرمين ، والكلام على المعاني المخترعة والمبتدعة ، ولذلك وقف المؤلفان طويلاً عند السرقات وإيراد الاشباه والنظائر .

إنَّ أهم الاتجاهات النقدية في هذا القرن أربعة ، ولكن دراستها من غير العودة الى القرون السابقة لا تكون واضحة بينة لأنَّها لم تكن إلاَّ مرحلة من مراحل تطور النقد الذي بدأ ملاحظات بيانية وآراء عامة ، ثم مَرَّ بعدة مراحل حتى وصل الى صورته المشرقة في القرن الرابع . ولم يكن بُدٌّ لاظهار ذلك من الاهتمام بهذا الجانب الذي كان « المدخل » ميدانه ، وفيه كان العرض العام للنقد في الجاهلية وصدر الاسلام والعصر الاموي ، وهو ما يمكن ان يطلق عليه اسم « النشأة » التي ساهم فيها اللغويون والنحاة والشعراء والكتاب . وما ان أطل القرن الثاني حتى بدأ التطور يسري في النقد وكان هذا القرن وما بعده عصر التدوين والاعداد للانطلاقة الكبرى . وقد بذل الكثيرون جهوداً عظيمة في هذا الحقل ، فكان ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة وابن المعتز أعلاماً للنقد في القرن الثالث ، وفي ضوء كتبهم وآرائهم وأحكامهم سار اللاحقون فكان النقد العلمي الاصيل المعتمد على الذوق السليم . وتجلى ذلك في طبقة علماء البديع الذين ربطوا النقد بالبلاغة ربطاً وثيقاً وحاولوا محاولات جادة في أنْ يضعوا الاسس الراسخة للنقد مستعينين بفنون البلاغة في نقدهم واصدار الاحكام . وكتب هذا اللون من النقد قسمان : دراسات عامة قام بها ابن أبي عون والمرزباني والغانمي ، ولم تكن واضحة المعالم بيّنةَ القسمات ، لأَنَّ مؤلفيها لم يرسموا منهجاً لها ، فابن أبي عون وقف عند تشبيهات القدماء والمحدثين من غير ان يدرسها ويصنفها ويضع لها القواعد والاصول ، والمرزباني ذكر مآخذ العلماء على الشعراء متخذاً من العصور أساساً له ومن اقوال السابقين احكاما من غير ان يصنف هذه الاقوال ويضع لها الابواب والفصول لتكون صورة واضحة لحياة النقد ، وبذلك كان كتابه « الموشح » مجموعة لأقوال شتى لا يوحّد بينها منهج او ينسق الاشباه والنظائر فصل أو باب . والغانميّ أَلَّفَ في البلاغة والنقد ولكن كتبه ما تزال بعيدة عن الدارسين وليس

أمامهم الا النصوص القليلة والآراء العابرة التي لا ترسم منهجا او تحقق هدفا .

والقسم الثاني دراسات منهجية قام بها ابن طباطبا العلوي وقدامة بن جعفر وابن وهب وأبو هلال العسكري ، وهي دراسات بلغت الذروة ووصلت الى أسمى ما تصل اليه الدراسات النقدية المعتمدة على البلاغة وفنونها ، فقد جمع هؤلاء ما تناثر في الكتب السابقة ووضعوا الأسس والاصول وربطوا النقد بالبلاغة ربطاً وثيقاً لا نجده عند غيرهم من نقاد هذا القرن . ولعل قدامة وابن وهب ومن تأثر بالثقافات الاجنبية من الادباء كانوا أحق بالدراسة المستقلة لولا ان هذا التأثير لم يكن واضحاً في مجال التطبيق ، ولولا ان الاولين أقاما كتابيهما على فنون البديع فكانا ممثلين حقيقيين للاتجاه البلاغي في النقد ولا يكاد يفوقهما إلاّ أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين .

لقد كانت الوقفة طويلة عند هؤلاء لأنّهم يمثلون قمة النقد البلاغي ، فابن طباطبا تحدث في كتابه « عيار الشعر » عن الشعر وأدواته وصناعته وعلة حسنه ومذاهب الشعراء وبناء القصيدة الى جانب كلامه على بعض الفنون البلاغية ، ولعله كان أقل الاربعة اهتماما بفنون البديع ولكنه مع ذلك ينهل من معينه ويرجع اليه في نقده . وكان قدامة من طليعة نقاد هذا القرن الذي أولع بالتقسيم والتوزيع في ألوان البديع وأضاف إلى ما ذكر ابن المعتز وغيره الشيء الكثير مما دفع أبا هلال العسكري إلى الاكثار منه والاهتمام به .

وكان لمسألة اعجاز القرآن الكريم دور كبير في نشأة النقد وتطوره ، وكان كتاب الله العزيز الدافع الاول الى دراسة البلاغة . وقد عرف القرن الرابع كثيراً من الدراسات القرآنية أهمها رسائل الواسطي والرماني والخطابي وكتابا القاضي عبد الجبار والباقلاني . وكان الأخير من اكثرهم وقوفاً عند إعجاز القرآن ودراسة اسلوبه الذي فاق نظمه كل نظم ، وكتابه « إعجاز القرآن » قمة هذه الدراسات وفيه كلام طويل على الشعر ونقد الكلام وتحليل النصوص والموازنة بين الاساليب مما جعل غرنباوم يعده من أبرز النقاد العرب الذين نظروا الى النصوص نظرة اتخذت من الكل أساساً لها حينما حلل معلقة امرىء القيس وقصيدة البحتري

وبعض سور القرآن الكريم .

وشهد القرن الرابع أعنف صراع بين القدماء والمحدثين ، وكان أبو تمام واسلوبه في الشعر سبب ذلك ، فقد تعصب قوم له واتخذوه إماما ، وتعصب آخرون للبحتري واتخذوه زعيما . واختلفت الآراء واشتد النزاع وكان ثمرة ذلك دراسات عميقة في السرقات ألّفها ادباء لهم منزلة عظيمة في الادب كابن أبي طاهر وأبي الضياء والقطربلي ، وكتب وضعها بعضهم في أخبار الشعراء ومذاهبهم ككتابي « أخبار أبي تمام » و« أخبار البحتري » للصولي الذي دافع عن شاعره المفضل أبي تمام دفاعاً عظيما . وظلَّ هذا الصراع عنيفا حتى ظهر الآمدي ووضع كتابه « الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري » ليحسم النزاع ويعين منزلة كل من الشاعرين . وقد وفق في ذلك مع ما قيل عنه انه تعصب على أبي تمام وجرّده من خصائصه التي تميز بها وفضّل عليه البحتري شاعر العمود العربي . وكتاب « الموازنة » من كتب النقد المهمة ، وقد سار فيه سيرة تختلف عن مناهج الكتب الاخرى ، فهو لم يتخذ البديع وفنونه منطلقا له بل كانت وسائل يستعين بها في نقده .

وشَغَل المتنبي الدنيا وأقام النقاد وأقعدهم ، وكان الصراع بينهم عنيفا ، فقد وقف بعضهم منه موقف المعيب كالصاحب بن عباد والحاتمي وابن وكيع والعميدي ، ووقف الآخرون يذودون عنه وينصفونه كالمغربي وابن جني والثعالبي . ولما رأى القاضي الجرجاني ما أحاط بالشاعر العظيم ألّف كتابه « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ليوقف ذلك الصراع ويظهر حقيقة الخصومات . وقد طاف في النقد ووسائله وأرسى الاصول لينطلق الى ما سعى اليه ويضع الشاعر حيث ينبغي أنْ يوضع بين الشعراء الخالدين . وكان كتابه وكتاب الآمدي من أروع ما أُلِّفَ في القرن الرابع وفيهما ظهرت النزعة العلمية والروح الأدبية .

تلك خلاصة لما طافت فيه الاتجاهات الاربعة التي وقفت عليها هذه الدراسة ، وقد اتضح أنَّ النقد الادبي في القرن الرابع للهجرة خطا خطوات واسعة ووجّه

الشعر توجيهاً كبيراً ، ولم يستطع النقاد فيما بعد ان يبدعوا كما أبدع الآمدي والقاضي الجرجاني إلاّ ما كان من عبد القاهر الذي أقام بلاغته ونقده على فكرة النظم وابن الاثير الذي اتخذ الذوق له سبيلا .

لقد اتخذت هذه الدراسة الشاملة أعلام النقد أساسا لعرض الآراء لأن لكل واحد منحى له سماته وخصائصه ، ولن تتضح جهودهم الا اذا عرضت آراؤهم مستقلة لتكون أقرب الى الواقع ولتصور حياة النقد عند كل مؤلف خير تصوير . وقد كان الحرص كبيراً على أن تكون الدراسة تبويباً دقيقاً لآراء النقاد وعرضاً مفصلا لجهودهم ، وان لا يكون لغير كلامهم سبيل الا ما اقتضى توضيحاً أو موازنة وتفسيراً ، وبذلك احتفظ كل ناقد بشخصيته واسلوبه وكأنه يطل من وراء الغيب يعرض وينقد ، وفي ذلك إحياء لتراث العرب النقدي وعودة الى المقاييس التي تنسجم والشعر القديم .

ولكي تلتقي هذه الاتجاهات كانت الخاتمة عرضاً لأهم القضايا النقدية في القرن الرابع وهي : اللفظ والمعنى ، والشعر ، والقصيدة ، والبديع ، وعمود الشعر ، والسرقات ، وهي قضايا شغلت النقاد قديما وما يزال النقد الحديث يقف عندها ليقول كلمته بعد ان اختلفت وجهات النظر وتعددت الآراء وغرق الدارسون في خضمّ من الاقوال . وقد اتضح من خلال متابعة الاتجاهات وعرض الأعلام ان العرب كانوا أصحاب نظرية نقدية تمثلت في فهمهم للشعر وبنائه وفي نظرتهم الى فنون القول الاخرى . ولعل في دراسة « اتجاهات النقد الادبي في القرن الرابع للهجرة » ما يلقي الضوء على هذه القضايا ويكشف عما جهله قوم أو تجاهله آخرون ، ومن الله العون والتوفيق .

الدكتور أحمد مطلوب
استاذ البلاغة والنقد
في جامعتي بغداد والكويت

الكويت ١٩٧٣/٢/٤ م
أول محرم ١٣٩٣ هـ

النقد قبل القرن الرابع

المدخل

النشأة

ان الباحث حينما يتلمس البذور الاولى للنقد عند العرب يجد أنهم عرفوا كثيراً من ألاحكام النقدية التي أعانتهم على تفهم الشعر وتذوقه ، والأمة التي أنجبت الشعراء الفحول والخطباء المصاقع لا بد أن تعرف المعالم التي يختطها الشعراء ويترسمها الخطباء . واذا كانت كثير من الاحكام النقدية في العصر الجاهلي لم تصل الينا مع ما وصل من شعر وخطب ، فان بعض تلك الاحكام تناقلتها الالسن وتداولتها الكتب . وقد وصف القرآن الكريم العرب في الجاهلية بأنهم أصحاب بيان فقال سبحانه وتعالى : « الرحمن . عَلَّم القرآنَ . خَلَق الانسانَ . علَّمه البيانَ » (١) وقال عن حسن كلامهم وشدة أسره وتأثيره في النفوس : « ومن الناس من يعجبك قوله في االحياة الدنيا » (٢) . ووصف الوليد بن المغيرة القرآن وقال : والله لقد سمعتُ من محمد كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق » .

ويمكن أن يستدل الباحث على أن العرب عرفوا كثيراً من الاحكام النقدية في العصر الجاهلي بأمرين :

الاول : عقلي لا يمكن انكاره ، وهو أنه لا يصدق ان الشعر وصل الى ما وصل اليه في تلك الفترة ، وان الخطابة بلغت ما بلغته من غير أن يكون هناك عقل مدبر لكل ذلك ومن غير أن تكون هناك أصول عامة تعارف عليها الشعراء والخطباء وساروا عليها فيما نظموا وقالوا . ومهما تحدث الباحثون عن السليقة

---

(١) سورة الرحمن ، الايات ١ ــ٤

(٢) سورة البقرة ، الاية ٢٠٤ .

العربية الصافية والذوق السليم ومهما وصفوهم بالفطنة والذكاء فان العقل لينكر أن يكون ما كان من غير ثقافة ودربة وقواعد تضيء لهم الطريق وتفتح أمامهم سبيل القول .

الثاني : نقلي وهو ما أثر عنهم ، ومن ذلك ما جاء عن خطبائهم ووصف خطبهم . وقد كان الخطباء يعتزون ببيانهم ويفخرون بأنفسهم.ولما دخل ضمرة إبن ضمرة على النعمان بن المنذر زرى عليه للذي رأى من دمامته وقصره وقلته فقال النعمان : « تسمع بالمعيدي لا أن تراه » فقال : « أبيت اللعن إنَّ الرجال لا تكال بالقفزان ولا توزن بالميزان وليست بمسوك يستقى وانما المرء باصغريه : بقلبه ولسانه إنْ صال صال بجنان وإنْ قال قال ببيان » (١) . وكان ضمرة خطيبا فارساً شاعراً شريفا سيدا ، وكان يحكم وينفر بالأسجاع .

واستدل الجاحظ من ألفاظ العيي والبكي والمفحم والخطل والمسهب على أن العرب في الجاهلية عرفوا كثيراً من عيوب البلاغة والخطابة . ووصفوا كلامهم في أشعارهم فجعلوها كبرود العصب والحلل والمعاطف والديباج والوَشي وأشباه ذلك ، ووصفوا شعراءهم وأضفوا عليهم ألقابا كالمهلهل والمرقش والمثقب والمنخل والمتنخل والأفوه والنابغة وكان بعض الشعراء يعنون بأشعارهم وينقحونها قبل أن يذيعوها بين الناس وقد اشتهر زهير بن أبي سلمى بالحوليات وتبعه في ذلك الحطيئة وغيره ممن اهتموا بتنقيح الشعر وتجويده ، وكان الحطيئة يقول : « خير الشعر الحولي المحكَّك » ، وقال الاصمعي : « زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين » (٢) وقال الجاحظ : « وكذلك كل من جود في جميع شعره ووقف عند كل بيت قالـه وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة » . (٣) وقال واصفا هؤلاء الشعراء : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٧١ ، ٢٣٧

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٧٨ .

(٣) البيان ج ٢ ص ١٣ .

عنده حولاً كريتا ـ تاما ـ وزمنا طويلا ويردد فيها نظره ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه ، فيجعل عقله زماما على رأيه ورأيه عياراً على شعره واشفاقا على أدبه واحرازا لما خوله الله تعالى من نعمته . وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ليصير قائلها فحلا خنذيذاً وشاعرا مفلقا » (١) .

ان وقوف الشعراء عند قصائدهم ينقحونها ويعيدون النظر فيها يدل على الروح النقدية التي كان الشاعر نفسه يمارسها قبل أن ينقده السامعون.ومما يؤيد النزعة النقدية في تلك الحقبة من تاريخ العرب ما أشار اليه المعاصرون من مدارس شعرية كمدرسة زهير التي كانت تجمع الى الشعر روايته ، وتبدأ بأوس بن حجر التميمي الذي تلقى عنه الشعر زهير ولقنه بدوره لابنه كعب وللحطيئة ، ولقنه الحطيئة هدبة بن الخشرم ، ولقنه هدبة جميل بن معمر وعنه تلقنه كثير عزة . وهذه المدرسة لم تكن تمضي في نظم الشعر عفو الخاطر بل كانت تتأنى فيما تنظم منه وتنظر فيه وتعيد النظر مهذبة منقحة . ووصف الدكتور شوقي ضيف ما كان عليه زهير في تعليم الشعر فقال : « فنحن بازاء شاعر اتصل الشعر في بيته اتصالاً لم يعرف لشاعر جاهلي ممن عاصروه ، وليس هذا فحسب فانه عاش للشعر يعلمه ابنيه بجيراً وكعباً من جهة وأناسا آخرين من غير بيته أشهرهم الحطيئة فهو تلميذه وخريجه . وفي أخباره مع ابنه كعب ما يدل على الطريقة التي كان يخرج بها الشعراء ، فقد كان يلقنهم شعره ويروونه عنه ، وما يزالون يتلقونه حتى تنطبع في أنفسهم طريقة نظم الشعر وصوغه . وهو في أثناء ذلك يمتحن قدرتهم بما يُلقي عليهم من أبيات يطلب اليهم أنْ يجيزوها بنظم بيت على غرار البيت الذي ينشده في الوزن والقافية » (٢) .

وكانت لشعراء هذه المدرسة سمات لخصها الدكتور طه حسين بقوله : « انهم

---

(١) البيان ج ٢ ص ٩ .

(٢) تأريخ الادب العربي ـ العصر الجاهلي ص ٣٠٣ ، وينظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٤ والبلاغة تطور وتأريخ ص ١٢ .

جميعا قد ذهبوا مذهَب أستاذهم في الاعتماد على هذا النحو من التشبيه والتصوير المادي الدقيق على أنهم لم يكتفوا بتقليده واقتفاء أثره بل استعاروا منه طائفة من المعاني والالفاظ استعارة ظاهرة لا تحتمل شكاً حتى لكأن هذه المعاني والالفاظ كانت قد أصبحت حظا شائعا للمدرسة كلها » (١) .

ومما يتصل بالنقد في العصر الجاهلي ما كان شائعا من أحكام يتناقلها الشعراء ، وما كان يدور في أسواق العرب . وفي كتب الادب والنقد كثير منها يتصل بالمعاني واللغة والقافية (٢) . وقد شك بعض الباحثين في هذه الروايات ، فقال الدكتور جميل سعيد : « ونحن نستبعد أن يكون عند العرب هذا النوع من النقد الذي يرويه الرواة ، لأنّا لا نعرف لهم شبيها به في ذلك العصر. وقد رأينا نقدهم للقرآن الكريم فما رأينا فيه مثيلا له ، ونرجح ان يكون هذا من إضافات النقاد في القرن الثالث الهجري أو نحوه يوم نما النقد ونمت بذور البلاغة » (٣) ولكننا مع هذا الشك نقرر أن هذه الروايات تعكس جانبا من فهم العرب للنقد في مرحلة التدوين الاولى ، وليس بعيداً أنْ تصدر مثل هذه الاحكام في الجاهلية بعدما رأينا كثيراً من الدلائل التي تؤيد ذلك ، يضاف الى ذلك ان هذه الروايات ليس فيها التعليل القائم على النظرة العلمية لكي ننكرها وانما هي أحكام عابرة أطلقها الشعراء والمحكمون معتمدين على الذوق الفطري الذي عرف به العرب . وكان الشعراء اليونان بعد أن انتهى عصر الملاحم وازدهر الشعر الغنائي في القرن السادس قبل الميلاد يصدرون بعض الاحكام النقدية التي تعبر عن رأي ذاتي أبعد ما يكون عن القاعدة العلمية (٤) . ومعنى ذلك أن الشعراء شاركوا في حركة النقد منذ القديم ، فلم لا ينطبق ذلك على العرب في الجاهلية وهم أهل ذوق رفيع وأصحاب شعر بديع ؟ .

(١) في الادب الجاهلي ص ٣١٢ .

(٢) ينظر الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٧٠ ، ٣٤٤ ، وجمهرة أشعار العرب ص ٦٣ وما بعدها ، والموشح ص ٤٥ ، ٨٠ ، ١١١ ، ١٣٣ ، والمصون في الادب ص ٣ .

(٣) دروس في البلاغة وتطورها ص ١٠ .

(٤) ينظر النقد الادبي عند اليونان للدكتور صقر خفاجة ص ١٧ .

ومهما قيل في صحة هذه الروايات فان الراجح ما ذهبنا اليه ، وهو فهم العرب للشعر ومقدرتهم على التمييز بين جيده ورديئه وحسنه وأحسنه ، قال الدكتور زكي مبارك : « وفي أمثال هذه الكلمات دليل على أن الرواة نقلوا عن الجاهليين أحكاماً في صناعة الكلام وفي ذلك ما يصلح للاستئناس به في هذا الموضوع . وليشك من شاء في صحة هذه النصوص فهي على كل حال صورة لفهم نقاد العرب لبعض ما كان عليه أهل الجاهلية » (١) . وفي هذا ما يشجع الباحث على تلمس البذور الأولى للنقد في العصر الجاهلي وما تلاه من عصور ، وهو تلمس يكشف عما كان يدور في الجاهلية من أحكام ويوضح فهم العرب للشعر وفنونه في تلك الحقبة التي تطور فيها الشعر العربي وأصبحت له معالم وأصول .

واذا ما انتقلنا الى العصر الاسلامي رأينا القرآن الكريم يقول : « فأَعْرِضْ عنهم وعظهم وقُلْ لهم قولاً بليغا » (٢) وكان ايمان العربي بكتاب الله واعتناقه الاسلام حكما نقديا أدركه بذوقه السليم وفطرته الصافية . ورأينا الرسول الكريم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى عناية عظيمة بأحاديثه وقد أثر عنه أنه كان يقول : « لا يقولَنَّ أحدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل : لقست نفسي » كراهية أن يضيف المسلم الخبث الى نفسه (٣) ، وكان يستمع الى الشعر ويقول : « إنَّ من البيان لسحرا » .

وأُثِرَ عن الخلفاء الراشدين والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أنهم كانوا يستمعون الى الشعر ويبدون رأيهم فيه ، وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول عن زهير بن أبي سلمى أنه لا يتبع حوشي الكلام ولا يعاظل بين الكلام (٤) ، وكان الرواة يضربون المثل ببلاغه عمر وفصاحته .

واذا ما انتقلنا الى العصر الاموي رأينا الحياة الادبية تزدهر ، وكان الخلفاء

(١) النثر الفني ج ١ ص ٤٨ هامش (١)

(٢) سورة النساء ، الاية ٦٣ .

(٣) الحيوان ج ١ ص ٣٣٥ .

(٤) طبقات فحول الشعراء ص ٥٢ ، وجمهرة أشعار العرب ص ٥٧ ، ونقد الشعر ص ١٩٦ ، ٢٠١ .

يعقدون المجالس ويستمعون الى الشعراء ويعلقون على بعض ما يسمعونه . وكان الوجوه والكبراء يعقدون المجالس ايضا ويتداولون في الشعر وأخبار الشعراء .

وعرف العصر الاموي الى جانب مجالس الخلفاء والوجوه والكبراء أسواقاً تشبه أسواق العرب في الجاهلية ، ومن تلك الاسواق سوق المربد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة . وقد أثَّرا في الشعراء الذين كانوا يفدون اليهما ، واستطاع جرير والفرزدق ان يتطورا في سوق المربد بفن الهجاء .

وفي كتب الادب والنقد كثير من الاخبار التي تروى عن هذه المجالس والاسواق ، وهي روايات تشهد على فهم العرب للشعر بعد نزول القرآن الكريم وتأثرهم به ، وتوضح التطور السريع الذي دخل الحياة الادبية في العصر الاموي ، والتجديد الذي شمل الشعر وأغراضه .

وشهد القرن الثاني للهجرة حركة أدبية واسعة وكانت الحواضر تتمخض عن نهضة علمية كبيرة ، كما رأى هذا القرن بعض الآثار البلاغية ككتاب المعاني لمؤرج السدوسي (ـ ١٩٥ هـ) وكتاب الفصاحة لابي حاتم السجستاني (ـ ٢٠٠ هـ) وظهر اللغويون والنحاة وكانت لهم يد طولى في تطور البلاغة والنقد ، واستطاعوا أن يسيطروا على مناهج الدرس ويرفعوا لواء المحافظة . وأخبار الخصومة بين الشعراء واللغويين والنحاة مستفيضة من ذلك أن ابن أبي اسحاق اعترض على الفرزدق لرفع « مجلف » في قوله :

وعضُّ زمانٌ يا ابن مروان لم يَدَعْ ... من المـالِ إلاَّ مسحتاً أو مجلفُ

فقال : علاَمَ رفعت « مجلف » ؟ فرد الفرزدق : على ما يسوؤك وينوؤك علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا . وأنه قال للفرزدق أيضاً : إنك أسأت في قولك :

مستقبلينَ شمالَ الشام تضربهـم ... بحاصبٍ كنديفِ القطنِ منثورِ

على عمائمنا تُلْقَى وأرحلنـا ... على زواحف تزجى مُخُّها رير

وانما هو « ريرُ » وكذلك قياس النحو في هذا الموضع . وكان يكثر الرد عليه حتى قال فيه :

فلو كان عبدُالله مـولًى هجـوتُه ولكنَّ عبدَالله مَـولى مواليـا

فردَّ عليه قائلاً : إنَّها مولى موالٍ (١) .

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي يقول لابن مناذر : « انما أنتم معشر الشعراء تبع لي وأنا سكان السفينة ، إنْ قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلاَّ كسدتم فقال ابن مناذر :«والله لاقولَنَّ في الخليفة قصيدة امتدحه بها ولا احتاج اليك فيها عنده ولا الى غيرك » (٢) . وكانوا يستهينون أحيانا بالنحاة ولا يقبلون أحكامهم ، قال أبو أحمد العسكري : « اخبرنا أبو بكر محمد بن يحيى قال : حدثني علي بن العباس قال : رآني البحتري ومعي دفتر فقال : ما هذا ؟ فقلت : شعر الشَّنفرى . قال : والى أين تمضي ؟ قلت : أقرأه على أبي العباس أحمد بن يحيى . قال : رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام فلم أرَ له علما بالشعر مرضياً ولا نقداً له ورأيته ينشد أبياتا صالحة ويعيدها إلاَّ أنها لا تستوجب الترديدو الاعجاب بها » . (٣) وقد أفاد هذا الصراعُ بين اللغويين والنحاة والشعراء الأدب ودفع الجميع الى البحث والتأليف .

وشارك الشعراء في تطور النقد في هذا القرن وما بعده ، ويروى أن بشاراً كان ينقد الشعر ويشير الى جيده ورديئه ، وأنشد قول الشاعر :

وقد جعل الاعداءُ ينتقصوننـا وتطمعُ فينا أَلْسُنٌ وعيـونُ

أَلا إنَّمـا ليلى عصـا خيزرانـةٍ إذا غمزوها بالاكفِّ تليـنُ

فقال : واللهِ لو زعم أنَّها عصا مخ أو عصا زبد لقد كان جعلها جافية خشنة بعد أن جعلها عصا ، ألا قال كما قُلْتُ :

ودعجاء المحاجِرِ من مَعَـدٍّ كأَنَّ حديثَها ثَمَرُ الجنـانِ

إذا قامت لمشيتهـا تَثَنَّتْ كأَنَّ عظامَها من خيـزرانِ

وقال : لم أزل منذ سمعت قول امرىء القيس في تشبيهه شيئين بشيئين في بيت

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ١٦ والموشح ص ١٥٦

(٢) الاغاني ج ١٨ ص ١٨٤ .

(٣) المصون في الادب ص ٤

واحد حيث يقول :

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رطبـــاً ويابساً لدى وكرها العنّابُ والحَشَفُ البالي

أعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حتى قلت :

كأن مُثارَ النقعِ فوق رؤوسنــــا وأسيافَنا ليلٌ تَهاوى كواكبُه (١)

وفي كتب الادب كثير من هذه الاحكام التي تدل على مكانة الشعراء في العصر العباسي وتوجيههم النقد والبيان ، قال ابن المعتز : « البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو » (٢) وقال ابن رشيق القيرواني : « أهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر وما أشبه ذلك ، ولوكانوا دونهم بدرجات وكيف وإنْ قاربوهم أوكانوا منهم بسبب . وقد كان أبو عمر وبن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف الاحمر حلبة هذه الصناعة ، أعني النقد ولا يشقون له غباراً لنفاذه فيها وحذقه بها وإجادته لها » (٣)

وكان الشعراء ينقدون شعرهم ويتفقدونه قبل أن يعرضوه على الناس وكان أبو نواس ينظم القصيدة ثم يتركها أياماً ثم يعرضها على نفسه فيسقط منها ويترك صافيها ولا يسره كل ما يقذف خاطره . قال ابن رشيق : « ولا يكون الشاعر حاذقا مجوّداً حتى يتفقد شعره ويعيد فيه نظره فيسقط رديئه ويثبت جيده ، ويكون سمحاً بالركيك منه مطرحاً له راغباً عنه ، فان بيتاً جيداً يقاوم ألفي رديء . . . ويقال ان أبا نواس كان يفعل هذا الفعل فينفي الدني ويبقّي الجيد (٤) » وقال عن مسلم بن الوليد انه « أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ، ولم يكن في الاشعار المحدثة قبل مسلم صريع الغواني إلاّ النبذ اليسيرة ، وهوزهير المولدين كان يبطىء في صنعته ويجيدها » (٥) .

(١) الاغاني ج ٣ ص ١٥٤ ، ١٩٦ ، وينظر الموشح ص ٢٤٧ .

(٢) البديع ص ٥٨ .

(٣) العمدة ج ١ ص ١١٧ .

(٤) العمدة ج ١ ص ٢٠٠ ، وينظر أخبار أبي نواس لابن منظور ص ٥١ .

(٥) العمدة ج ١ ص ١٣١ .

وكان للكتاب أثر واضح في البلاغة والنقد فقد صبغوا كثيرا من بحوثها بصبغة أدبية لما امتازوا به من أدب رفيع وذوق سليم ، وهم الذين قال الجاحظ عنهم : « أما أنا فلم أرَ قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً » (١) وقال كما لخصه ابن رشيق عنه : « طلبت الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يحسن إلاّ غريبه فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يتقن إلاّ اعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا يتقن إلاّ ما اتصل بالاخبار وتعلق بالايام والانساب ، فلم أظفر بما أردت إلاّ عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات » (٢) .

تلك حالة النقد في القرن الثاني وما بعده ، النحاة واللغويون يتعقبون سقطات الشعراء ويعلقون على أشعارهم ، والشعراء والكتاب ينقدون الشعر ويضعون الكتب ، وكانت ثمرة ذلك أنْ ظهرت كتب نقدية تمثل الاتجاهات اللغوية والنحوية والادبية ، وكانت هذه الكتب أول ما ظهر في عصر التدوين وهي التي اهتمت بجمع الملاحظات البيانية والنظرات النقدية وفتحت السبيل للنقاد في العصور اللاحقة ، ثم ظهرت الكتب التي تعنى بالقواعد والتقسيمات وهي كتب البلاغة ، ثم كانت الدراسات القرآنية والموازنات بين الشعراء .

---

(١) البيان ج ١ ص ١٣٧

(٢) العمدة ج٢ ص ١٠٥ ، وينظر البيان ج ٤ ص ٢٣ .

التطور

ما كـاد القرن الثاني يودع أعوامه الأخيرة حتى بدأت الآراء تتبلـور وأخذت الدراسات تظهر . وقد شارك في حركة التطور المتكلمون واللغويون والنحاة والكتاب والشعراء ، وكان لكل فريق من هؤلاء منهجهم وأسلوبهم وان كانوا يلتقون في هدف واحد هو خدمة التراث والحفاظ عليه .

ومن أقدم المتكلمين الذين رويت عنهم آراء نقدية بشر بن المعتمر (ـ ٢١٠ هـ) صاحب الصحيفة المشهورة (١) . وقد أوضح فيها الاستعداد للانتاج الادبي والاهتمام بتخير اللفظ والمعنى وتحديد المنازل التي يمر بها الاديب ، **وأولها** منزلة البليغ التام الذي يكسو عباراته جمالا يرجع الى رشاقة الالفاظ وعذوبتهـا وجزالتها وسهولتها ووضوح المعاني وانسجامها ، **وثانيها** منزلة من لم تسعفه طبيعته بالالفاظ الملائمة والقوافي الجيدة والمعاني الرائعة ، وعليه أن يتأنى ويؤجل الكتابة الى وقت نشاطه وفراغ باله ، فان كان له في الادب طبيعة حقاً واتاه الكلام وانثالت عليه الالفاظ والمعاني ، **وثالثها** منزلة من شَحّ طبعه ونضبت ينابيع القول عنده ، وهذا لا يأتي بجيد الكلام مهما حاول أو تكلف وحريّ به أن يترك صناعة الادب ويتحول الى غيرها . وفي الصحيفة حديث عن اللفظ والمعنى ومطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ومن اللغويين والنحاة الذين ساهموا في تطور البلاغة والنقد : أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (ـ ٢٠٧ هـ) صاحب « معاني القرآن » وهو كتاب يعنى

---

(١) تنظر الصحيفة في البيان ج ١ ص ١٣٥

بالتراكيب اللغوية والاعراب والاساليب ، وفيه إشارات كثيرة الى بعض الفنون البلاغية كالتشبيه والمثل والاستعارة والمجاز والكناية والاستفهام وخروجه عن معناه الحقيقي والانتقال من مخاطبة الشاهد الى الغائب والتقديم والتأخير وغيرها .
وابو عبيدة معمر بن المثنى (ــ ٢٠٨ ﻫ) الذي ألف كتاب « مجاز القرآن » ليفسر كتاب الله ويوضح ما فيه من غريب اللغة ووجوه نظمه التي لها نظائر في كلام العرب .

وأبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ــ ٢١٦ ﻫ) الذي كانت له آراء نقدية تمثل ذوقه والفترة التي عاش فيها . ومن كتبه النقدية « فحولة الشعراء » وهو كتاب جمع آراءه في بعض الشعراء الفحول ، وهذه الآراء تتصل بالذوق أكثر من اتصالها بالقاعدة .

وأبو العباس محمد بن يزيد المبرّد (ــ ٢٨٥ ﻫ) صاحب « الكامل » الذي عرض لكثير من القضايا البلاغية والنقدية المعروفة في عهده .

وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ــ ٢٩١ ﻫ) مؤلف « قواعد الشعر » الذي تحدث فيه عن الشعر وأركانه وفنونه وأقسامه ، وهي عنده أربعة : أمر ونهي وخبر واستخبار ، وهذه الأصول تتفرع الى مدح وهجاء ومراثٍ واعتذار وتشبيب وتشبيه واقتصاص أخبار . ومن مقاييسه في استجادة الشعر استقلال البيت بمعناه بل استقلال كل شطر من شطريه بمعناه ليصبح مثلا سائرا . وليس في الكتاب تحليل وتعليل وايضاح لما في الكلام من صور أدبية جميلة وايحاءات بديعة . وقد أشار القدماء الى أن ثعلبا ليس بالناقد الذي يستطيع أن يحكم على تلك الفترة ، ولذلك وقف عند ثقافته وتخصصه في الرواية واللغة ولم يَدَّعِ التقدم في علم شعر المحدثين قال تلميذه الصولي عنه وعن المبرد : « ولا ادَّعيا التقدم في علم شعر المحدثين وأوائلهم من لحق اول دولة بني العباس ولا انهما اذا تعاطيا مثل شعرهم أطاقاه وقدرا على أن يقولا مثله . ولا تضمنا العلم بلفظة لفظة منه وتمييز نادره ووسطه وما كان دُوناً منه إلاَّ بردّ لَحْنٍ أو خطأ في لغة ، ولا ادَّعيا

التقدم على غيرهما في علم العروض والقوافي والنسب والرسائل والمكاتبات والبلاغة ومعرفة استراقات الشعراء وأخذ بعضهم من بعض والمحسن منهم في ذلك والمسيء » (١) . وكان تأتير الكتاب والشعراء أعمق ، لانهم ألصق بالبلاغة والنقد . ومن أشهرهم :

عبدالله محمد بن سلام الجمحي (ـ ٢٣٢ هـ) صاحب كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، وقد قسّمه الى طبقات الشعراء الجاهليين وطبقات الشعراء الاسلاميين وكل واحدة منها عَشْر طبقات في كل طبقة أربعة شعراء . وأفرد لمن لم يدخل فيها مكاناً فصيَّر أصحاب المراثي طبقة ثم شعراء القرى العربية وهي : المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين ، ثم تحدث عن شعراء يهود وهم في المدينة وأكنافها . وأسسه التي سار عليها في هذا التقسيم :

١ ـ الزمن : قسمهم الى جاهليين واسلاميين .
٢ ـ المكان : قسمهم الى شعراء المدينة ومكة والطائف والبحرين أما اليمامة فقد قال عنها : « ولا أعرف باليمامة شاعراً مذكورا » (٢) .
٣ ـ الجودة : قدم الشعراء الكبار كامرىء القيس والنابغة الذبياني وزهير والاعشى وأوس بن حجر وبشر بن أبي خازم وكعب بن زهير في الجاهليين ، وجرير والفرزدق والاخطل والراعي والبعيث المجاشعي والقطامي وكثيّر عزّة وذي الرُمَّة في الاسلاميين .
٤ ـ الكثرة : وإنْ ذكر بعض الشعراء الذين لم يُرْوَ عنهم إلاّ القليل كعبيد بن الابرص الذي وضعه في الطبقة الرابعة من الجاهليين وقال عنه : « وعبيد ابن الابرص قديم الذكر عظيم الشهرة وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلاّ قوله :

أَقْفَرَ من أهلـه مَلْحُـوبُ　　　فالقطبيّـاتُ فـالـذنـوبُ

(١) أخبار أبي تمام ص ٩ .
(٢) طبقات فحول الشعراء ص ٢٣٤ .

ولا أدري ما بعد ذلك » (١) .

٥ ـ الفنون : ولم يتخذها أساسا في طبقاته كلها لانه لم يذكر إلاّ طبقة أصحاب المراثي وطبقة الرجّاز الاسلاميين .

٦ ـ الجنس : كطبقة شعراء يهود .

ومن الموضوعات التي بحثها في كتابه قضية الانتحال وذكر أن في الشعر المسموع ما هو مفتعل موضوع لا خير ولا حجة في عربيته ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجب ولا نسيب مستظرف . وكان سبب الوضع العصبية والرواة ، اما إبطال الموضوع فسهل يسير ذلك أن القرآن الكريم ذكر أنّه أهلك عاداً الاولى وثمود فما أبقى ، فمن أين جاء الشعر الذي ينسب اليهم ، وان اللغة العربية لم تكن موجودة في عهد عاد ، وان عاداً في اليمن ولليمانيين لسان آخر ، ثم ان الشعر العربي قريب عهد من الاسلام (٢) .

وتحدث عن الدربة والممارسة ، وقال : « إنَّ كثرة المدارسة لتعدي على العلم به فكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به » ، وقال : « قال قائل لخلف : إذا سمعْتُ أنا بالشعر أستحسنه فما أبالي ما قُلْتَ فيه أنت وأصحابك . قال له : إذا أخذتَ أنت درهماً فاستحسنته فقال لك الصراف : إنّه رديء ، هل ينفعك استحسانك له ؟ » (٣) وتحدث عن صناعة الشعر فقال : وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات منها ما تثقفه العين ومنها ما تثقفه الاذن ومنها ما تثقفه اليد ومنها ما يثقفه اللسان » (٤) ، ولا يعرف التمييز بين الاشياء الا الخبير العالم وكذلك الشعر لا يقف على جماله وحسنه ولا يعرف رديئه من جيده إلاّ الناقد البصير ، وان كثرة المدارسة ضرورية بل انها لتعدي على العلم .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ١١٦ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ص ٦ وما بعدها .

(٣) طبقات فحول الشعراء ص ٨ .

(٤) طبقات فحول الشعراء ص ٦ .

وتحدث عن نشاة الشعر وتنقّله وطبائع الشعراء وأرّخ لنشأة النحو والعروص، وذكر كثيراً من آراء السابقين .

ومن الكتّاب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ـ ٢٥٥ هـ) ، صاحب المؤلفات الكثيرة ، ولكن كتابيه « البيان والتبيين » و« الحيوان » يتصلان بالبلاغة والنقد اتصالاً وثيقا . وطريقته في معالجة الموضوعات لا تختلف كثيرا عن طريقة معاصريه فهو لم يفرد فصلا لكل موضوع وانما نثر المسائل نثراً ، وأول ما يلقانا في « البيان والتبيين » تعريفات البلاغة عند العرب والأمم الاخرى ولكنه لا يعطي تعريفاً واضحاً فيه حصر دقيق ، وكل ما قاله بعد أن ذكر الاقوال الكثيرة : « وقال بعضهم ـ وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوّناه ـ لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظَه ولفظُه معناه ، فلا يكون لفظُه الى سمعك أسبقَ من معناه الى قلبك » (١) . والبيان عنده هو « الاسم الجامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع الى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل ، لأن مدارَ الامر والغاية التي اليها يجري القائل والسامع انما هو الفَهْمُ والافهام فبأي شيء بلغت الافهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموقع » (٢)

وذكر البديع ، وهو عنده وصف للمعاني والصور الغريبة الظريفة كالاستعارة والتشبيه والجناس والطباق ، وقصره على العرب وقال : « والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان » . وأطلقه على الاستعارة في قول الاشهب بن رميلة :

هُمْ ساعِدُ الدهرِ الذي يُتّقى بـــه ... وما خَيْرُ كَفٍّ لا تنوءُ بساعِدِ

قال : « قوله : هم ساعد الدهر ، انما هو مثل ، وهذا الذي تسميه الرواة البديع » (٣) . ولم يذكر مصطلح « علم المعاني » لانه لم يكن معروفا في عهده

(١) البيان ج ١ ص ١١٥ .
(٢) البيان ح ١ ص ٧٦ .
(٣) البيان ج ٤ ص ٥٥ .

وإنْ أشار الى بعض الفنون التي أدخلها المتأخرون فيه كالايجاز والاطناب .

واهتم بالفصاحة اهتماماً كبيراً لانه يرى ان العناية بالالفاظ جديرة بالرعاية ، وتكلم على تنافر الحروف وملاءمة الالفاظ وتماثلها ورأى أن اللفظ كما لا ينبغي أن يكون عامياً وساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابياً ، فانّ الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي. واهتم بالمعنى اهتماما كبيراً وربط بينه وبين اللفظ واعتبر ميزة الكلام في صورته ، وقال : « فانما الشعر صناعة وضَرْبٌ من النسج وجنس من التصوير » (١) .

ومن التفاتاته الجيدة موقفه من الشعر المحدث فهو لا يفضل قديماً على محدث قال : « وقد رأيت ناساً منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون مَنْ رواها ، ولم أرَ ذلك قط إلاّ في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمن كان » (٢) . ورأيه في الغريزة والبيئة والعرق ، فقد ذكر أن الشعر في الجماعات يعتمد على هذه العناصر الثلاثة . (٣) وبحثه في السرقات ولكنه لم يطل الكلام عليها واكتفى بأن قال : ان كل تشبيه مصيب تام ومعنى غريب عجيب شريف أو بديع مخترع ، يستعين بها الشعراء ولا يكون أحدهم أحق بذلك المعنى من صاحبه (٤) . وله أحكام ذوقية في الشعر والشعراء والخطب والخطباء نثرها في كتابيه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وغيرهما .

ومنهم أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ـ ٢٧٦ هـ) ، الذي عرض في كتابه « تأويل مشكل القرآن » ما خفي على العامة الذين لا يعرفون إلاّ اللفظ وظاهر دلالته على معناه . وأولى البلاغة عناية كبيرة ، وتحدث عن فنونها المختلفة .

(١) الحيوان ج ٣ ص ١٣٢ .
(٢) الحيوان ج ٣ ص ١٣٠ .
(٣) الحيوان ج ٤ ص ٣٨١ .
(٤) الحيوان ج ٣ ص ٣١١ .

أما كتابه « الشعر والشعراء » فهو من الكتب التي تمثل اتجاها جديداً في القرن الثالث وذلك لعنايته بالشعراء القدامى والمحدثين ، وفيه كثير من الأسس التي تمثل اتجاه النقد في ذلك القرن . وقد أوضح ابن قتيبة هدفه في المقدمة وقال : « هذا كتاب ألّفته في الشعراء أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في اشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم ، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم وما سبق اليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون. وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها » (1) .

وتحدث عن منهجه في المفاضلة بين الشعراء والاستحسان والاختيار وقال إنه لم يسلك فيما ذكر من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلّد أو استحسن باستحسان غيره ولا نظر الى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظر بعين العدل الى الفريقين وأعطى كلاً حظه ووفّر عليه حقه ثم قال : « فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى صاحبه . ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثا في عصره وكل شرف خارجيَّة في أوله ، فقد كان جرير والفرزدق والاخطل وأمثالهم يعدون محدثين وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخُريمي والعتابي والحسن بن هانىء واشباههم ، فكل مَنْ أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حداثة سنه ، كما أن الرديء إذا أورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » (2) وهذه نظرة ليست كنظرة اللغويين الذين تمسكوا بالقديم لقدمه وأنكروا الجديد لحداثته .

---

(1) الشعر والشعراء ج ١ ص ٥٩ .

(2) الشعر والشعراء ج ١ ص ٦٢ .

والشعر عنده أربعة أضرب : ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ، وضرب منه حسن لفظه وحلا فاذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ، وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ، وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه .

ومن القضايا التي تحدث عنها الشعر المتكلف والمطبوع ، ووضع للشاعر المطبوع سمات يستدل عليه منها ويعرف بها ، فهو من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر بيت عجزه وفي فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة واذا امتحن لم يتلعثم . ومن علامات التكلف في الشعر أن ترى البيت فيه مقرونا بغير جاره ومضموماً الى غير لفقه ، والمتكلف من الشعر وان كان جيداً محكما فليس به خفاء على ذوي العلم لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكير وشدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف ما بالمعاني حاجة اليه وزيادة ما بالمعاني غنى عنه .

وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ، ولكنه قد يختار ويحفظ على أسباب منها : الاصابة في التشبيه أو على خفة الروي أو لأنَّ قائله لم يقل غيره ، أو لأنَّ شعره قليل عزيز ، أو لأنّه غريب في معناه ، أو لنبل قائله .

وتنبَّه ابن قتيبة الى الحالة النفسية للشاعر وذكر العوامل التي تعوق الشاعر المطبوع عن القول والتدفق ، قال : « وللشعر تارات يبعد فيها قريبه ويستصعب فيها ريضه ، وكذلك المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات فقد يتعذر على الكاتب الاديب وعلى البليغ الخطيب . ولا يعرف لذلك سبب إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم . وكان الفرزدق يقول : « أنا أشعر تميم وربما أتت عليَّ ساعة ونزع ضرس أسهل عليَّ من قول البيت » [1] وأشار الى أن للشعر أوقاتاً يسرع فيه أتيُّه ويسمح فيه أبيُّه منها أول الليل قبل تغشي الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء ومنها يوم شرب الدواء ومنها الخلوة في الحبس والمسير . ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ورسائل الكتاب .

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٨٠

وتكلم على مراعاة الحالة النفسية في السامعين ، ومن هذه الناحية علل بناء القصيدة العربية من استهلالها بالبكاء على الاطلال ثم الانتقال الى وصف الرحلة والنسيب ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه وليستدعي إصغاء الاسماع . وليس فيما ذكره دعوة الى التمسك بنظام القصيدة كما ادّعى بعض الدارسين ، بل هو يحرم التقليد الشكلي المضحك واحلال مواد الحضارة محل مواد البداوة في الشعر كما فعل أبو نواس الذي لم يغيّر في الطريقة الفنية وانما غيّر في الموضوع (١) .

ومن الشعراء الخليفة العباسي عبدالله بن المعتز (ـ ٢٩٦ هـ) الذي أحاط بجهود الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وثعلب وألّف كتاب « البديع » رداً على من يلتمسون قواعد البلاغة في غير الادب العربي ودفاعا عن التراث وتفنيداً لدعوى الشعوبيين ومن أراد النيل من العرب ممن يزعمون ان البديع فن طرأ بعد القرن الاول للهجرة . قال : « وقدْ قدَّمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله ـ صلى الله عليه ـ وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سمّاه المحدثون البديع ليُعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سُمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه » وقال : « غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من أبواب البديع » (٢) .

وقد سعى في كتابه الى هدفين :

الاول : نقدي يوازن بين ما قاله الشعراء ويستحسن ما يرى ويرفض ما لا يرى ويرجعهم عن صلفهم بانّ ما اخترعوه من اللطيف أو البديع انما كان من لطيف حسن الاقدمين وبديع تصورهم .

---

(١) ينظر تأريخ النقد الادبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ١١٢ .

(٢) البديع ص ١ ، ٣ .

الثاني : تقنيني قاعدي ، فقد جمع صنوف البديع المعروفة وزاد عليها ووضع لها تسميتها وأغرى من أتى بعده ليحذو حذوه ويسلك سبيله .

ويقوم منهجه على تقسيم الكتاب الى البديع وهو : الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها والمذهب الكلامي ، والى محاسن الكلام وهي ثلاثة عشر : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدح ، وتجاهل العارف ، والهزل الذي يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والافراط في الصفة ، وحسن التشبيه ،ولزوم ما لا يلزم ، وحسن الابتداء .

وطريقته في معالجة هذه الموضوعات تتلخص في تعريف الفن البلاغي وذكر الامثلة الجيدة المختارة والامثلة الرديئة ، ليظهر الفرق بين اللونين ، وبذلك ابتعد عن السابقين الذين سيطرت النزعة اللغوية والنحوية على كتبهم وسار في طريق الشعر لانه كان شاعراً يهزه الكلام البليغ . ولكنه حينما كان يذكر الامثلة الجيدة أوالرديئة لا يعلل أويوضح الفرق بين النوعين وانما يكتفي بعرضها .

وله رسالة في « محاسن شعر أبي تمام ومساويه » ، وله في كتابه « طبقات الشعراء » آراء نقدية والتفاتات بيانية ، وذكرت له كتب الأدب بعض الآراء . وكتبه تكشف عن تفهمه لقضايا الأدب وحرصه على أن تكون له قواعد وأصول . وكان لنظراته ومصطلحاته أثر في البلاغة والنقد ، واتخذ كتابه « البديع » اساساً في كل ما كتب في هذا الموضوع خلال القرون التي تلته وظلّ عمدة في هذا الفن .

هذا ما كان من أمر النقد منذ نشأته حتى نهاية القرن الثالث وقد اتضح أنه بدأ بملاحظات بيانية تعتمد على الذوق قبل اعتمادها على القاعدة والتعليل ثم تطوّر حتى أصبح الذوق ركنا من أركانه ، أما الركن الآخر فهو القواعد التي بدأت تظهر في كتب الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وثعلب وابن المعتز . ويمكن ان نعتبر القرن الثالث عصر وضع القواعد والخوض في فنون البيان المختلفة بعد أن كان الحديث قبل ذلك محصوراً في الشعر . وكان الجاحظ من أوائل الذين عنوا

بالخطابة والنثر الى جانب عنايته بالشعر ، وسار البلاغيون والنقاد على خطاه فكان للنثر نصيب في الدراسة والاستشهاد به . ويتصح ذلك عند ابن قتيبة في « تأويل مشكل القرآن » وابن المعتز في « البديع ». ويلاحظ كذلك أن التخصص في هذه الفترة لم يكن واضحا إذ نجد البلاغة والنقد تبحثان معا و نجد الآراء اللغوية والنحوية تأخذ نصيبا وافرا من الدراسات ونرى العناية بالقديم والتعصب له جليا . ولكنّ هذه الاتجاهات المختلفة والمتداخلة في كثير من الاحيان شهدت نوعا من التخصص في القرن الرابع وما بعده حيث استقرت الآراء وثبتت النظريات وأصبح النقاد والبلاغيون يمثلون اتجاهات واضحة ، وظهرت الدراسات القرآنية المعتمدة على الذوق وفنون البيان . ووضعت كتب الموازنة والوساطة بين الشعراء .

وحينما أطلّ القرن الرابع بدأ النقد اللغوي والبياني يفقد مكانته وأخذ النقد القائم على الاحكام المعللة يظهر وبدأت حركة جديدة من التأليف تقوم على التخصص ولا سيما في نقد الشعر ، وبدأ الادباء يأخذون المبادرة بعد أن كان الرواة واللغويون أصحاب الميدان . ونال النقد في هذا القرن تطوراً عظيماً وظهرت ألوان كثيرة تتسم بالوضوح والاسس الراسخة ، ومن ألوان هذا التطور ظهور دراسات اعجاز القرآن ونقد الشعر والموازنة بين الشعراء . وكان لاصحاب هذه التيارات مناهج واضحة وآراء ناضجة قائمة على التعليل والذوق السليم . واذا كان بعض هؤلاء امتداداً للقرن الثالث لانهم عاشوا في أواخره غير أن كتبهم تنم على اتجاهات جديدة خدمت النقد خدمة عظيمة .

وكتب النقد في هذه المرحلة كانت ما تزال مرتبطة بالفنون البيانية أو البديع ثم أخذت تتحرر منها حتى أصبحت تلك الفنون جانباً من النقد ، وصارت الكتب النقدية لا تحفل بها كثيراً .

ويمكن أن نلاحظ في القرن الرابع للهجرة عدة اتجاهات للنقد وأوضحها :

١ ــ النقد والبديع
٢ ــ النقد والاعجاز

٣ ـ النقد وأبو تمام
٤ ـ النقد والمتنبي

وهذه الاتجاهات تلتقي في كثير من المسائل ولكنها مع ذلك تبقى منفردة ذات سمات واضحة ؛ لان كل اتجاه يخدم قضية معينة ويسعى الى هدف معين . ومن هنا كان الوقوف على هذه الاتجاهات يعني تصوير حياة النقد في القرن الرابع للهجرة بل تصوير النقد العربي في أخصب مراحله .

النقد والبديع

الاتجاه الأول

دراسات عامة

ظلت فنون البلاغة مرتبطة بالنقد ارتباطاً وثيقاً خلال القرن الثالث للهجرة ، واستمرت كذلك حتى ظهر أبو هلال العسكري الذي فصل بين الفنين وأولى البلاغة عناية كبيرة في كتاب الصناعتين . ولم تكن جميع الدراسات النقدية المرتبطة بالبديع ذات منهج واضح وانما كان بعضها دراسات عامة ومن أصحاب هذه الدراسات :

ابن أبي عون :

ألّف ابن أبي عون الكاتب (ـ ٣٢٢ هـ) كتاب « التشبيهات » عرض فيه لجملة من تشبيهات العرب في أشعارهم في موضوعات مختلفة .

ولا يتضح له منهج في هذا الكتاب ولذلك قال غرنباوم : « وآراء ابن أبي عون النظرية والادبية التي يمكن استخلاصها من الاحكام والاقوال القليلة المبعثرة في كتابه تحملنا على وضعه في الفترة التي سبقت النظر المنهجي ، تلك الفترة التي انتهت بظهور كتاب البديع لابن المعتز » . [١]

بدأ كتابه بقوله : « زادك الله في الادب رغبة وللعلوم محبة ووفقك للحجة ودلّك على المحجّة وأعانك على طلبك بالرشد وأظفرك بالغرض عند الفحص . سألتني ـ أعزّك الله ـ أنْ اثبت لك أبياتا من تشبيهات الشعراء الواقعة وبدائعهم فيها الظريفة وقد تقدم الناس ـ أعزك الله ـ في اختيار الشعر وتمييزه غير انهم لم يصنفوه أبوابا وذلك ان الشعر مقسوم على ثلاثة أنحاء ، منه المثل

---

(١) دراسات في الادب العربي ص ١٢١ .

السائر كقول الاخطل :

فأقسم المجدُ حقاً لا يحالفهـــم — حتى يحالفَ بَطْنَ الراحةِ الشَّعَرُ

وكقول الفرزدق :

أمّا العدوُّ فـإنـا لا نلينُ لـــه — حتى يلين لضرس الماضغ الحجَرُ

ومنه الاستعارة الغريبة كقول الطرمّاح :

فقلت لها يـا أمَّ بيضـــاء إنَّــه — هريق شبابي واستشن أديمـــي

وكقول الحطيئة :

قد ناضلوك فأبدوا من كنائنهـم — مجداً تليداً ونبلاً غير أنكـاسِ

ومنه التشبيه الواقع النادركقول امرىء القيس في العقاب :

كأنَّ قلوب الطيرِ رطباً ويـابسـاً — لدى وكرها العنّابُ والحَشَفُ البالي

وكقول عدي بن الرقاع في وصف الثور البري :

تزجي أَغَنَّ كأن إبـرةَ رَوْقــه — قلم أَصابَ من الدواة مدادها

وما خرج من هذه الاقسام الثلاثة كلام وسط أو دون لا طائل فيه ولا فائدة معه . ورأيت أَجَلَّ هذه الانحاء وأصعبها على صانعها التشبيه وذلك انه لا يقع الا لمن تأمله ولطف حسه وميز بين الاشياء بلطيف فكره .

وأنا أثبت لك في هذا الكتاب أبياتا من التشبيه مختارة وانخلل المعاني المختلفة والتشبيهات المتداولة الى الابيات الطريفة النادرة واقتصر على جملة يكون لك فيها حظ ومتعة وتأدب ورياضة واتجنب الاطالة التي يتلقاها الملالة واتبعَ ذلك بكتاب في الامثال وكتاب في الاستعارة ، وبالله الحول والقوة » . (١)

---

(١) التشبيهات ص ١ ـ ٤ .

ولا يسير ابن ابي عون على تقسيمات التشبيه التي عرفت في عصره أو قبله وانما يحاول ان يذكر ما لا نجده في كتب تلك الفترة ، وهو حينما يقتبس التشبيهات من القرآن يقدم القسم الاول من أقسامها الاربعة التي تركها متداخلة .

والتشبيهات القرآنية التي اعتنى بها نوعان : ما شبه به الاشخاص المماثلة كقوله تعالى : « والقَمَرَ قدَّرناه منازلَ حتى عاد كالعُرجونِ القديم » وقوله : « طَلْعُها كأنَّهُ رؤوسُ الشياطين » وقوله : « كأنَّهن الياقوتُ والمرجان » وقوله : « كأنَّهن بَيْضٌ مكنون » . وتشبيه الافعال كقوله عز وجل . « والذين كفروا أَعمالُهم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يَجِدْهُ شيئا » وقوله : « مَثَلُ الذين كفروا كرمادٍ اشتدت به الريحُ في يومٍ عاصف » .

وذكر أنَّ العرب تشبه بـ « كأنَّ » كقول امرىء القيس :

كأنَّ عيونَ الوحش حول خبائِنـا ... وأرحلنا الجَزْعُ الذي لم يثقَّبِ

وبـ « كَمَنْ » كقول أوس بن حجر :

فإنكما يا ابني جنات وجدتمـــا ... كَمَنْ دَبَّ يستخفي وفي الحلق جُلجل

وبالكاف كقوله :

ونارٍ كسحرِ العود يرفع ضَوءَها ... مع الليل هبّات الرياحِ الصوارد

وبـ « مثل » كقول السلامي :

مثْل التي يحسبها أَهلُهـــــا ... عذراءَ بكراً وهي في التـــاسِعِ

وبـ « كما » كقول كعب بن زهير :

ولا تَمَسَّكُ بالعهد الذي عهدت ... إلاَّ كما يمسك الماءَ الغرابيـلُ

وبـ « كمثل » و« كأمثال » و« تخال » و« تظن » و« تكاد » وما أشبهها . وباضمار

أحد هذه الحروف اذا لم يتسع للشاعر إقامة الوزن باظهاره كقوله :

سموتُ اليها بعدما نامَ أَهْلُهـــا ... سُمُو حبابِ الماءِ حالاً على حالِ

أراد : مثل سمو حباب الماء .

وذكر من التشبيهات الحسان كقول امرىء القيس في الثريا :

اذا ما الثريا في السماء تَعَرَّضَـتْ ... تعرُّضَ أثْناء الوشاحِ المفصَّـلِ

وقد شبهها جماعة من الشعراء فأصابوا وقاربوا ، فمن ذلك قول ابن الطثرية :

اذا ما الثريا في السماء كأَنَّهـــا ... جمان هَوى من سلكه فتبـددا

وذكر التشبيه المقلوب كقول ذي الرُمّة :

ورملٍ كأَوراكِ العذارىَ قطعتُـه ... وقد جلَّلته المظلمـاتُ الحنـادسُ

والتشبيه باستثناء شيء أو نقصان شيء كقول الاخطل يصف زقاقا :

أناخوا فجرّوا شاصياتٍ كأَنَّهـــا ... رجالٌ من السودان لم يتسربلوا

وقول أَبي الهندي :

أتلفَ المالَ ومـــا جمعتـــــه ... طَلَبُ اللذات من ماءِ العِنَـب

واستباءُ الزِّق من حـانوتـــــه ... شائل الرجلين معصوب الرُكَب

وقولُ أَبي تمام :

جود كجود السيلِ إلاَّ انَّـــــه ... كَدِرٌ وانَّ نـداك غيرُ مكـــدَّرِ

وهذه التقسيمات ليس فيها تحديد واضح أو فصل كامل بين لون وآخر لأن المؤلف لم يُعْنَ بالتحديد والتقسيم ، وبعبارة اخرى ان عصره لم يكن عصر تحديد وتقنين ، ولذلك جاء كتابه محاولة أولى في دراسة فن التشبيه وهي لا تقف الى جانب

دراسة ابن ناقيا البغدادي لتشبيهات القرآن ، ولا الى جانب أي كتاب بلاغي من كتب القرن الرابع وما بعده .

ومن تعليقات ابن ابي عون على ابن المعتز :

وخيلٍ طواها القوْدُ حتى كأنّها   أنابيبُ سمر من قنا الخط ذُبّلُ
صببنا عليها ظالمينَ سياطَنـــا   فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ

قوله : « وتشبيهه اياها بالانابيب تشبيه قديم متعاور » .(١) ومنها على قولــه ايضاً :

كما يخلُق الثوبَ الجديدَ ابتذالُه   كذا تخلق المرءَ العيونُ اللوامعُ

قوله : « وهذا من جيد التشبيه ، ومن أجود الامثال في ذلك قول الطائي :

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحي مُخْلِقٌ   لديباجتيه فاغـتربْ تَتَجــدَّدِ
فإنّي رأيتُ الشَمسَ زيدَتْ محبةً   الى الناس أنْ ليست عليهم بسرمد (٢)

ومما يحمد له موقفه من القدماء والمحدثين ، فهو لم يتعصب لجانب أو يقف موقفا عدائيا من جانب آخر ، وان كان ميله نحو المحدثين واضحا ، قال : « وقد تكرر في كتابنا تشبيهات للمحدثين مثل أبي نواس وبشار ومسلم والطائي والبحتري وابن الرومي وابن المعتز واضرابهم لأنّا اعتمدنا على اثبات عيون التشبيهات المختارة والمعاني الغريبة البعيدة دون المتداولة المخلقة . والمتقدمون وإنْ كانوا افتتحوا القول وفتحوا للمحدثين الباب ونهجوا لهم الطريق فكان لهم فضل السبق واستئناف المعاني وصعوبة الابتداء فان هؤلاء قد أحسنوا التأمل وأصابوا التشبيه وولّدوا المعاني وزادوا على ما نقلوا وأغربوا فيما ابدعوا » (٣) وهذا صحيح ، لان المحدثين أضافوا الى الشعر العربي كثيراً من المعاني والصور وطوّروه فأصبح

(١) التشبيهات : ص ٣٢ .
(٢) التشبيهات : ص ٣٤٨ .
(٣) التشبيهات ص ٧٤ .

تعبيراً صادقا عن الحياة الجديدة التي عاشها الشعراء في العصر العباسي .

المرزباني :

ولأبي عبيدالله محمد بن عمران المرزباني (ـ ٣٨٤ هـ أو ٣٨٨ هـ) كتاب « الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء » وهو جمع للآراء السابقة التي عنيت بالنقد ككتاب « طبقات فحول الشعراء » لابن سلام و« البديع » لابن المعتز و« عيار الشعر » لابن طباطبا العلوي و« نقد الشعر » لقدامة بن جعفر. قال في مقدمته : « وأودعت هذا الكتاب ما سهل وجوده وأمكن جمعه وقرب متناوله من ذكر عيوب الشعراء التي نبّه عليها أهل العلم وأوضحوا الغلط فيها من اللحن والسناد والإيطاء والاقواء والاكفاء والتضمين والكسر والاحالة والتناقض واختلاف اللفظ وهلهلة النسج وغير ذلك من سائر ما عيب على الشعراء قديمهم ومحدثيهم في أشعارهم خاصة » (١) وبدأه بباب أبان فيه حال السناد والإيطاء والاقواء والاكفاء ، وتحدث بعد ذلك عن الشعراء الجاهليين والاسلاميين والمحدثين ، وختمه بما روى من ذم الشعر وسفسافه والمضطرب منه .

وكتاب « الموشح » في المآخذ بصفة عامة وقد بناه على أساس ما اعترض به العلماء على الشعراء القدماء والمحدثين ، وله فيه كثير من الوقفات النقدية عند الروايات والنصوص من ذلك رأيه في أبيات لامرىء القيس من معلقته ، قال : « وأبيات امرىء القيس في وصف الليل أبيات اشتمل الاحسان عليها ولاح الحذق فيها وبان الطبع بها . فما فيها معاب الا من جهة واحدة عند أمراء الكلام والحذّاق بنقد الشعر وتمييزه ولولا خوفي من ظن بعضهم أني اغفلت ذلك ما ذكرته . والعيب قوله بعد البيت الذي ذكرته :

فقلْتُ له لما تَمَطَّى بصلبـــــه ... وأَردف أَعجازاً وناءَ بكلكَلِ
أَلا أَيُّها الليلُ الطويلُ أَلا انْجـلي ... بصبحٍ وما الاصباح منك بأَمْثَلِ

فلم يشرح قوله : « فقُلْتُ له » ما أراد إلاّ في البيت الثاني فصار مضافاً اليه متعلقا

(١) الموشح ص ١ .

به ، وهذا عيب عندهم ، لأن خير الشعر ما لم يحتج بيت منه إلى بيت آخر ، وخير الابيات ما استغنى بعض اجزائه ببعض الى وصوله الى القافية » (١)

وأشار كثيراً الى الشعر الموضوع نقلا عن غيره ، وردّ على بعضهم كالاصمعي الذي قال : « تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة وكان يكابر ، واما جرير فما علمته سرق إلاّ نصف بيت ، » ، قال المرزباني : « وهذا تحامل شديد من الاصمعي وتقوّل على الفرزدق لهجائه باهلة ، ولسنا نشك ان الفرزدق قد أغار على بعض الشعراء في أبيات معروفة ، فأما ان نطلق ان تسعة أعشار شعره سرقة فهذا محال ، وعلى أنَّ جريراً قد سرق كثيراً من معاني الفرزدق » (٢)

ومن ذلك تعليقه على قصيدة البحتري في هجاء المستعين التي يقول فيها :

أعاذلتي على أسماء ظلمـــــا واجراء الدموعِ لها الغـــزارِ
متى عـاودتني فيها بلـــومٍ فبت ضجيعَـه للمستعـــارِ

قال : « وهذه الابيات من أقبح الهجاء وأضعفه لفظا واسمجه معنى ولا سيما بيت (البواري) وهي ايضا خارجة عن طريقة هجاء الخلفاء والملوك المألوفة وهي بهجاء سفلة الناس ورعاعهم أشبه مع ما جمعت من سخافة اللفظ وهلهلة النسج والبعد عن الصواب » (٣) ثم ذكر هجاءه للمنتصر والمستعين والوزراء ورؤساء القواد بعد ان مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأشار الى مدائحه التي كان يغيّر الاسماء فيها ليقولها في آخرين مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع ، ثم قال ينفي التحامل عن نفسه : « ولم اذكر حاله في ذلك على طريق التحامل مع اعتقادي فضله وتقديمه ، ولكنني أحببت أن ابيّن أمره لمن لعله انسترعنه » (٤)

ومنها اشاراته الى سرقات الشعراء ووقوفه على الابيات المسروقة كما فعل

(١) الموشح ص ٣٥ .
(٢) الموشح ص ١٦٨ .
(٣) الموشح ص ٥١٤ .
(٤) الموشح ص ٥١٥ .

احمد بن أبي فنن أخذ قول قيس بن الخطيم : « كأنها عود بانة قصف » فقال :

أيّها الظبيُ المليحُ القَدِّ مجدول مهفهف
أنا من ميلك في مشيك مرعوبٌ مخوّف
لا تميلَني فاني خائِفٌ أَنْ تتقصَّف

وقال عن محمود الوراق : « اشترك محمود وعلي بن الجهم في معنى قول علي وأحسن فيه :

كم من عليلٍ قد تخطاه الردى | فنجا ومات طبيبُه والعُوّدُ

وقول محمود :

وكم من مريضٍ نعاه الطبيبُ | الى نفسه وتولّى كئيبا
فمات الطبيبُ وعاش المريضُ | فأضحى الى الناس ينعى الطبيبا

فأساء فيه لانه ان كان أخذه من عليّ وجاء به في بيتين ومضغه وصيره قصصا بقوله : « أضحى ينعاه الى الناس » فقد اخطأ ، وان كان علي أخذه منه فقد جاء في بيت واحد وأحسن فصار أحق بالمعنى منه .وأخذاه جميعا من قول عدي ابن زيد :

وصحيح أضحى يعود مريضاً | وهوأدنى للموت ممن يعودُ (١)

وكتاب « الموشح » بعد ذلك سجلٌّ حافل بالآراء ومصدرمهم في دراسة النقد .

الغانمي :

ولابي العلاء محمد بن غانم الغانمي كتاب « من صنعة الشعر » ولم يصل هذا الكتاب او يتحدث عنه القدماء حديثا يعطي صورة واضحة تبين منهجه وطريقته . غير أنَّ ضياء الدين بن الاثير ذكر بعض آراء الغانمي منها ما ذكره في

(١) الموشح ص ٥٣١ ـ ٥٣٢ .

قوله : « ورأيت الغانمي قد ذكر في كتابه باباً وسماه رد الأعجاز على الصدور خارجا عن باب التجنيس وهو ضرب منه ، وقسم من جملة أقسامه كالذي نحن بصدد ذكره ههنا . فمما أورده الغانمي من الامثلة في ذلك قول بعضهم :

ونشري بجميـلِ الصنـع ذكراً طَيّبَ الـنَّشْرِ
ونفري بسيوفِ الهند مَنْ أسْرَف في النَّفْـــرِ
وَنجْري في شرى الحمــد على شاكلة البَحْرِ [1]

وقال : « واعلم انه قد اختلف جماعة من أرباب هذه الصناعة في تسمية أنواع علم البيان حتى ان أحدهم يضع لنوع واحد منه اسمين اعتقاداً منه ان ذلك النوع نوعان مختلفان وليس الامر كذلك بل هما نوع واحد . فمن غلط في ذلك الغانمي فانه ذكر باباً من أبواب علم البيان وسماه التبليغ وقال : هو ان يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاما من غير ان يكون للقافية فيما ذكره صنع ثم يأتي بها لحاجة الشعر اليها حتى يتم وزنه فيبلغ بذلك الغاية القصوى في الجودة كقول امرىء القيس :

كأَنَّ عيونَ الوحش حول خبائنـا وأَرْحُلِنا الجَزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ

فانه أتى بالتشبيه تاماً قبل القافية ثم لما جاء بها بلغ الأمد الاقصى في المبالغة. ثم انَّ الغانمي ذكر بعد هذا الباب بابا آخر وسماه الاشباع فقال : هو ان يأتي الشاعر بالبيت معلق القافية على آخر أجزائه ولا يكاد يفعل ذلك إلاّ حُذّاق الشعراء وذلك ان الشاعر اذا كان بارعا جلب بقدرته وذكائه وفطنته الى البيت وقد تمت معانيه واستغنى عن الزيادة فيه قافية متممة لأعــاريضه ووزنه فجعلها نعتا للمذكور كقول ذي الرُمّة :

قِفِ العيسَ في أطلالِ مَيَّةَ فاسألِ رسوماً كأخلاق الرداء المُسَلْسَلِ

هذا كلام الغانمي بعينه ، والبابان المذكوران سواء لا فرق بينهما بحال » [2] وقال :

---

(١) المثل السائر ج ١ ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

(٢) المثل السائر ج ٢ ص ٣٥٠ ، والجامع الكبير ص ٢٤٠ – ٢٤٢ .

« وقال أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي : إنَّ كتاب الله خال من التخلص . وهذا القول فاسد . . . » (١)

وقال عنه : « وليس الاخذ على العانمي في ذلك مناقشة على الاسماء وانما المناقشة له على ان ينتصب لإيراد علم البيان وتفصيل ابوابه ويكون احد الابواب التي ذكرها داخلا في الآخر فيذهب عليه ويخفى عنه وهو أشهر من فلق الصبح » (٢)

وهذه الآراء القليلة التي ذكرها ابن الاثير لا ترسم منهج الغانمي ولا توضح هدفه ، وقد استنتج الدكتور محمد زغلول سلام منها انه الف الكتاب على طريقة البلاغيين واصحاب البديع أو على غرار البديع لابن المعتز وعيار الشعر لابن طباطبا ونقد الشعر لقدامة وكتاب الصناعتين لأبي هلال . (٣)

والنصوص التي ذكرها ابن الاثير من كتاب الغانمي لا تتصل بالنقد اتصالا مباشراً وإنّما هي آراء بلاغية وأحكام عامة ، ولعل فيما لم ينقله بعض الآراء النقدية التي تمثل وجهة نظره واتجاهه في النقد .

هذه أهم الدراسات العامة في القرن الرابع ، ويمكن ان يضاف اليها ما في كتب الادب من آراء نقدية ككتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني وكتب أبي حيان التوحيدي وابن العميد وغيرهم . اما الدراسات المنهجية التي تتخذ من البديع اساساً في معالجة قضايا النقد فأهمها كتاب « عيار الشعر » لابن طباطبا و« نقد الشعر » لقدامة بن جعفر و« البرهان في وجوه البيان » لابن وهب الكاتب و« كتاب الصناعتين » لابي هلال العسكري .

---

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) الجامع الكبير ص ٢٤٢ .

(٣) تاريخ النقد العربي الى القرن الرابع الهجري ص ٢٤٢ .

دراسات منهجية

شهد القرن الرابع بعض النقاد الذين عاشوا في أواخر القرن التالث كابن طباطبا العلوي وقدامة بن جعفر وابن وهب الكاتب ، وكان لهؤلاء الثلاثة دور كبير في إرساء قواعد الشعر واصوله . وشهد كذلك تحول النقد الى بلاغة على يد أبي هلال العسكري . ويجمع هؤلاء الاربعة ان نقدهم كان معتمداً على فنون البديع وأسس البلاغة التي وضعت في القرن الثالث ، واليهم يرجع الفضل الاكبر في تطور القيم النقدية ووضع القواعد والاصول .

ابن طباطبا

أَلَّفَ أبو الحسن محمد بن احمد بن طباطبا (ـ ٣٢٢ ﻫ) كتاب « عيار الشعر » الذي كان دراسة نقدية تختلف عما سبقه من دراسات ؛ لأنَّه لا يقوم على اتخاذ البلاغة وحدها أساسا في صنعة الشعر وقياس جيده أو رديئه بل كان يسعى الى دراسة فنية تقوم على ما اتخذه مؤلفه من دراسات السابقين دليلاً كالبيان والتبيين والشعر والشعراء ، وعلى خبرته وذوقه الرفيع .

وكتاب « عيار الشعر » قسمان : المقدمة والمتن ، وفي المقدمة تكلم على الشعر وأدواته وصناعته والالفاظ والمعاني وطريقة العرب في التشبيه ، وتحدث في المتن عن عيار الشعر وما يتصل به . ولابن طباطبا وقفات موفقة في هذه المسائل سنعرض لها وهي :

الشعر :

الشعر عنده « كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم

مما خص به من النظم الذي إنْ عدل عن جهته مجَّته الاسماع وفسد على الذوق . ونظمه معلوم محدود فمن صَحَّ طبعه وذوقه لم يحتج الى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه . ومن اضطرب عليه الذوق لم يستَغْنِ من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه » (١) .

وللشعر أدوات يجب اعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه منها :

١ ــ التوسع في علم اللغة .
٢ ــ البراعة في فهم الإعراب .
٣ ــ الرواية لفنون الآداب .
٤ ــ المعرفة بايام الناس وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم .
٥ ــ الوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه في كل فن قالته العرب فيه وسلوك مناهجها في صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها والسنن المستدلة منها وتعريضها وتصريحها وإطنابها وتقصيرها وإطالتها وإيجازها ولطفها وخلابتها وعذوبة ألفاظها وجزالة معانيها وحسن مباديها وحلاوة مقاطعها وإيفاء كل معنى حظه من العبارة وإلباسه ما يشاكله من الالفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة . واجتناب ما يشينه من سفساف الكلام وسخيف اللفظ والمعاني المستبردة والتشبيهات الكاذبة والاشارات المجهولة ، والاوصاف البعيدة والعبارات الغثة حتى لا يكون متفاوتاً مرفوعاً بل يكون كالسبيكة والوشي المنمنم والعقد المنظم واللباس الرائق فتسابق معانيه ألفاظه فيلتذ الفهم بحسن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه وتكون قواعد للبناء يتركب عليها ويعلو فوقها فيكون ما قبلها مسوقاً اليها ولا تكون مسوقة اليه فتقلق في مواضعها ولا توافق ما يتصل بها ، وتكون الالفاظ منقادة لما تراد له غير مستكرهة ولا متعبة لطيفة الموالج سهلة المخارج .

(١) عيار الشعر ص ٣

وجماع هذه الادوات : « كمال العقل الذي به تتميز الاضداد ولزوم العدل وايثار الحسن واجتناب القبيح ووضع الاشياء مواضعها . »

والشعر صناعة ، فاذا اراد الشاعر بناء قصيدة فكر فيها وأدار المعاني في ذهنه واختار الالفاظ والقوافي المناسبة . ونظم القصيدة يمر في مراحل :

١ ـ مرحلة التفكير في نظم القصيدة وذلك بان يتدبر المعاني التي يريد نظمها فيخطرها بباله نثراً ثم يعد لها الالفاظ المناسبة والوزن والقافية المناسبتين لتلك المعاني .

٢ ـ مرحلة الانتاج وفيها يخطر على بال الشاعر بيت من الشعر يشاكل المعنى الذي يرومه فيثبته ويتخذه أساسا يبني عليه قصيدته كلها فيشغل نفسه بنظم معانيه ثم يكتب الابيات كما تتوارد .

٣ ـ مرحلة الترتيب والتنسيق وذلك بعد ان يكمل له نظم المعاني التي يريدها فيرتب الأبيات متوخياً تسلسل معانيها وارتباط بعضها ببعض .

٤ ـ مرحلة التثقيف والتهذيب وفيها يقف عند كل كلمة وقافية وكل بيت وأمام القصيدة برمتها يتأمل ما قد أداه اليه طبعه ونتجته فكرته فيستقصي انتقاده ويرمّ ما وَهَى منه ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية وإن اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني واتفق له معنى آخر مضاد للأول وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول نقلها إلى المعنى المختار الذي هوأحسن وأبطل ذلك البيت أونقض بعضه وطلب لمعناه قافية تشاكله ، ويكون كالنساج الحاذق الذي يفوف وشيه باحسن التفويف ويسده وينيره ولا يهلهل منه فيشينه وكالنقاش الرقيق الذي يصنع الأصباغ في احسن تقاسيم نقشه ويشبع كل صبغ منها حتى يتضاعف حسنه في العيان وكناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق ولا يشين عقوده بان يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها . (١)

(١) عيار الشعر ص ٥ .

وعيار الشعر أو علة حسنه ثلاثة امور :

١ ـ قبول الفهم له فاذا قبله واصطفاه فهو واف واذا مجّه ونفاه فهو ناقص . والعلة في قبول الفهم الناقد للشعر الحسن الذي يرد عليه ونفيه للقبيح منه واهتزازه لما يقبله وتكرهه لما ينفيه ان كل حاسة من حواس البدن انما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت له إذا كان وروده عليها وروداً لطيفاً باعتدال لا جور فيه وبموافقة لا معتادة معها . فالعين تألف المنظر الحسن وتقذى بالمرأى القبيح الكريه والانف يقبل المشم الطيب ويتأذى بالمنتن الخبيث ، والفم يلتذ بالمذاق الحلو ويمج البشع المر والاذن تتشوق للصوت الخفيض الساكن وتتأذى بالجهير الهائل ، واليد تنعم بالملمس اللين الناعم وتتأذى بالخشن المؤذي ، والفهم يأنس من الكلام بالعدل وبالصواب الحق والجائز المعروف ويتشوف اليه ويتجلى له ويستوحش من الكلام الجائر والخطأ الباطل والمحال المجهول المنكر وينفر منه ويصدأ له . فاذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوماً مصفًّى من كدر العي مقوماً من أود الخطأ واللحن سالما من جور التأليف موزونا بميزان الصواب لفظا ومعنى وتركيبا اتسعت طرقه ولطفت موالجه فقبله الفهم وارتاح له وأنس به ، واذا ورد عليه على ضد هذه الصفة وكان باطلا محالا مجهولا انسدت طرقه ونفاه واستوحش عند حسه به وصدىء له وتأذى به كتأذي سائر الحواس بما يخالفها . وعلة كل حسن مقبول الاعتدال كما ان علة كل قبيح منفي الاضطراب ، والنفس تسكن الى كل ما وافق هواها وتقلق مما يخالفه . وللشعر الموزون ايقاع يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال اجزائه فاذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة المعنى وعذوبة اللفظ فصفا مسموعه ومعقوله من الكدر تَمَّ قبوله له واشتماله عليه وان نقص جزء من أجزائه التي يعمل بها وهي : اعتدال الوزن ، وصواب المعنى ، وحسن الالفاظ ، كان انكار الفهم اياه على قدر نقصان اجزائه .

٢ ـ موافقته للحال التي يعد معناه لها كالمدح في حال المفاخرة وحضور من

يكبت بانشاده من الاعداء ومن يسر به من الاولياء ، وكالهجاء في حال مباراة المهاجي والحط منه حيث يحكي فيه استماعه له وكالمراثي في حال جزع المصاب وتذكر مناقب المفقود عند تأبينه والتعزية عنه . وكالاعتذار والتحريض على القتال والغزل والحنين .

٣ ـ صدق العبارة : وذلك حينما توافق المعاني الحالات المختلفة . فيحسن موقعها عند مستمعها .

والشعر على تحصيل جنسه ومعرفة اسمه متشابه الجملة متفاوت التفصيل مختلف كاختلاف الناس في صورهم واصواتهم وعقولهم وحظوظهم وشمائلهم وأخلاقهم فهم متفاضلون في هذه المعاني وكذلك الاشعار هي متفاضلة في الحسن على تساويها في الجنس ومواقعها من اختيار الناس اياها كمواقع الصور الحسنة عندهم واختيارهم لما يستحسنونه منها ولكل اختيار يؤثره وهوى يتبعه وبغية لا يستبدل بها ولا يؤثر سواها . ومن الاشعار أشعار محكمة متقنة أنيقة الالفاظ حكيمة المعاني عجيبة التأليف اذا نقضت وجعلت نثراً لم تبطل جودة معانيها ولم تفقد جزالة ألفاظها ، ومنها اشعار مموهة مزخرفة عذبة تروق الاسماع والافهام اذا مرت صفحا فاذا حصلت وانتقدت بهرجت معانيها وزيفت الفاظها ومجت حلاوتها ولم يصلح نقضها لبناء يستأنف منه ، فبعضها كالقصور المشيدة والابنية الوثيقة الباقية على مر الدهور وبعضها كالخيام الموتدة التي تزعزعها الرياح وتوهيها الامطار ويسرع اليها البلى ويخشى عليها التقوّض . وقد عقد ابن طباطبا باباً في الاشعار المحكمة واضدادها وقال : « ونذكر الآن امثلة للاشعار المحكمة الرصف المستوفاة المعاني السلسة الالفاظ الحسنة الديباجية وامثلة لاضدادها وننبّه على الخلل الواقع فيها ونذكر التي قد زادت قريحة قائليها فيها على عقولهم والابيات التي أغرق قائلوها فيما ضمنوها من المعاني والابيات التي قصروا فيها عن الغايات التي جروا اليها في الفنون التي وصفوها والقوافي القلقة في مواضعها والقوافي المتمكنة في مواقعها والالفاظ المستكرهة النافرة الشائنة للمعاني التي اشتملت عليها والمعاني المسترذلة الشائنة للالفاظ المشغولة بها والأبيات الرائقة

سماعا الواهية تحصيلا والابيات القبيحة نسجا وعبارة العجيبة معنى وكلمة واصابة » (١) وتكلم على هذه الاقسام وذكر لها امثلة وعلّق عليها ، وتحدث عما يضمنه الشاعر من قصص في شعره وقال إنَّ الشاعر اذا اضطر الى اقتصاص خبر في شعره دبَّره تدبيراً يسلس له معه القول ويطرد فيه المعنى فبنى شعره على وزن يحتمل ان يحشى بما يحتاج الى اقتصاصه بزيادة من الكلام يخلط به أو نقص يحذف منه وتكون الزيادة والنقصان يسيرين غير مخدجين لما يستعان فيه بهما وتكون الالفاظ المزيدة غير خارجة من جنس ما يقتضيه بل تكون مؤيدة له وزائدة في رونقه وحسنه كقول الاعشى فيما اقتصه من خبر السموأل :

كُنْ كالسموألِ إذْ طاف الهمامُ به ... في جَحْفَلٍ كزهاء الليلِ جرَّارِ
بالابْلَقِ الفَرْدِ من تيماءَ منزلُه ... حصْنٌ حصينٌ وجارٌ غيرُ غَدَّارِ
إذْ سامهُ خطتي خَسْفٍ فقال له ... أَعْرِضْ عليَّ كذا اسمعهما حارِ
فقال : غَدْرٌ وثُكْلٌ أنت بينهما ... فاخترْ وما فيهما حظٌّ لمختارِ
فشَكَّ غيرَ قليلٍ ثم قال له ... أقتل أسيرَك إنيّ مانعٌ جاري
إنَّ له خلفاً إنْ كنت قاتِلَه ... وإنْ قتلت كريماً غيرَ غوّارِ
مالاً كثيراً وعِرْضاً غيرَ ذي دَنَسٍ ... وإخوةً مثله ليسوا بأسرارِ
جَروا على أدبٍ مني فلا نَزَقٌ ... ولا إذا شمّرت حربٌ بأغمارِ
وسوف يَخْلُفه إنْ كنت قاتِلَه ... رَبٌّ كريمٌ وبيضٌ ذات أطهارِ
لا سرُّهنَّ لدينا ضائعٌ مَذِقٌ ... وكاتماتٌ إذا استودعن أسراري
فقال تقدمةً إذْ قام يقتلُه ... أشْرِفْ سموألُ فانظر للدَّمِ الجاري
أأقتلُ ابنك صبراً أو تجيء بها ... طوعاً فأنكر هذا أيَّ إنكارِ
فَشَكَّ أوداجَه والصدر في مَضضٍ ... عليه منطوياً كاللَّذعِ بالنارِ
واختار أدْرعه أنْ لا يسبَّ بها ... ولم يَكُنْ عهدُهُ فيها بختَّارِ
وقال : لا أشتري عاراً بمكرمةٍ ... فاختار مكرمةَ الدنيا على العارِ
والصَّبر منه قديماً شيمةٌ خُلُقٌ ... وزَنْدُه في الوفاء الثاقب الواري

---

(١) عيار الشعر ص ٣٢ .

قال ابن طباطبا : « فانظر الى استواء هذا الكلام وسهولة مخرجه وتمام معانيه وصدق الحكاية فيه ووقوع كل كلمة موقعها الذي أريدت له من غير حشد مجتلب ولا خلل شائن . وتأمل لطف الاعشى فيما حكاه واختصره في قوله : « أأقتل ابنك صبراً أو تجيء بها » فاضمر ضمير الهاء في قوله : « واختار أدرعه ان لا يسب بها » فتــلافى ذلك الخلل بهذا الشرح فاستغنى سامع هذه الابيات عن استماع القصة فيها لاشتمالها على الخبر كله بأوجز كلام وابلغ حكاية وأحسن تأليف وألطف ايماءة » (١) .

وتعرض لمذاهب الشعراء ، وقال إنَّ في أشعار المولدين عجائب استفادوها ممن تقدمهم ولطفوا في تناول اصولها منهم ولبسوها على من بعدهم وتكثروا بابداعها فسلمت لهم عند ادعائها للطيف سحرهم فيها وزخرفتهم لمعانيها والمحنة على هؤلاء الشعراء أشد منها على من كان قبلهم لانهم قد سُبقوا الى كل معنى بديع ولفظ فصيح وحيلة لطيفة وخلابة ساحرة فان اتوا بما يقصر عن معاني اولئك ولا يربي عليها لم يتلَقَّ بالقبول وكان كالمطَّرح المملول . وأوضح الفرق بين القدماء والمحدثين في طريقة الشعر فقال عن القدماء : « فان من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء وفي صدر الاسلام من الشعراء كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحا وهجاءً وافتخاراً ووصفا وترغيباً وترهيباً الا ما قد احتمل الكذب فيه في حكم الشعر من الاغراق في الوصف والافراط في التشبيه وكان مجرى ما يوردونه منه مجرى القصص الحق والمخاطبات بالصدق فيحابون بما يثابون أو يثابون بما يحابون » . وقال عن مذهب المحدثين : « والشعراء في عصرنا انما يحابون على ما يستحسن من لطيف ما يوردونه من اشعارهم وبديع ما يغربونه من معانيهم وبليغ ما ينظمونه من الفاظهم ومضحك ما يوردونه من نوادرهم وأنيق ما ينسجونه من وشي قولهم دون حقائق ما يشتمل عليه من المدح والهجاء وسائر الفنون التي يصرفون القول فيها . فاذا كان المديح ناقصا عن الصفة التي ذكرناها كان سببا لحرمان قائله

(١) عيار الشعر ص ٤٥ .

والمتوسل به واذا كان الهجاء كذلك ايضا كان سببا لاستهانة المهجو به وأمنه من سيره ورواية الناس له واذاعتهم اياه وتفكههم بنوادره لا سيا واشعارهم متكلفة غير صادرة عن طبع صحيح كأشعار العرب التي سبيلهم في منظومها سبيلهم في منثور كلامهم الذي لا مشقة عليهم فيه » [1] .

بناء القصيدة :

تحدث ابن طباطبا عن ملاءمة معاني الشعر لمبانيه وقال إنَّ على صانع الشعر ان يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة حسنة مجتلبة لمحبة السامع له والناظر بعقله اليه مستدعية لعشق المتأمل في محاسنه والمتفرس في بدائعه فيحسه جسما ويحققه روحا ، أي يتقنه لفظاً ويبدعه معنى ويجتذب اخراجه على ضد هذه الصفة فيكسوه قبحا ويبرزه مسخا بل يسوّي أعضاءه وزنا ويعدل أجزاءه تأليفا ويحسن صورته اصابة ويكثر رونقه اختصارا ويكرم عنصره صدقا ويفيده القبول رقة ويحصنه جزالة ويدنيه سلاسة وينأى به اعجازاً ويعلم انه نتيجة عقله وثمر لبه وصورة علمه والحاكم عليه أو له .

وينبغي للشاعر ان يحترز في اشعاره ومفتتح أقواله مما يتطير به أو يستجفى من الكلام والمخاطبات كذكر البكاء ووصف اقفار الديار وتشتت الألاف ونعي الشباب وذم الزمان لا سيا في القصائد التي تضمن المدائح او التهاني ، وتستعمل هذه المعاني في المراثي ووصف الخطوب الحادثة فان الكلام اذا كان مؤسسا على هذا المثال تطير منه سامعه . وعلى الشاعر أنْ يتجنّب في مطالع القصائد ما ليس له صلة بالموضوع ، وان يحسن التخلص من غرض الى آخر وان يربط الابيات ربطا محكما ، وان يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة فيتخلص من الغزل الى المديح ومن المديح الى الشكوى وغيرها بألطف تخلص واحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله بل يكون متصلاً به وممتزجا معه . وان يسلك منهاج اصحاب الرسائل في بلاغاتهم وتصرفهم في مكاتباتهم فان للشعر

(١) عيار الشعر . ص ٩ .

فصولاً كفصول الرسائل . (١)

ووقف عندما يقع بين أبيات القصيدة من تلاؤم وقال : « ينبغي للشاعر ان يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ويتصل كلامه فيها ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه أو بين تمامه فصلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه فينسى السامع المعنى الذي يسوق القول اليه ،كما انه يحترز من ذلك في كل بيت فلا يباعد كلمة عن اختها ولا يحجز بينها وبين تمامها بحشو يشينها ويتفقد كل مصراع هل يشاكل ما قبله ، فربما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر فلا ينتبه على ذلك الا من دق نظره ولطف فهمه. وربما وقع الخلل في الشعر من جهة الرواة والناقلين له فيسمّون الشعر على جهة ويؤدونه على غيرها سهوا ولا يتذكرون حقيقة ما سمعوه منه » (٢) . كقول امرىء القيس :

كأني لم أرْكَبْ جواداً للـــــذَّةٍ	ولم أتبطن كاعباً ذاتَ خلخالِ
ولم أسبأ الزِقَّ الرويَّ ولم أقُـــلْ	لخيلي كُرّي كرةً بعد إجفالِ

هكذا الرواية وهما بيتان حسنان ، ولو وضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر كان أشكل وأدخل في استواء النسج فكان يروى :

كأنيّ لم أركبْ جواداً ولم أقُـــلْ	لخيلي كرّي كرةً بعد إجفالِ
ولم اسبأ الزِقَّ الرويَّ للـــــذةٍ	ولم أتبطن كاعباً ذاتَ خلخالِ

وكقول ابن هَرْمة :

. وإني وتركي نـدى الاكرمـــينَ	وقدحي بكفي زناداً شحاحا
كتاركـةٍ بيضَها في العـــــراءِ	وملبسةٍ بيضَ أخرى جنـاحا

وقول الفرزدق :

---
(١) عيار الشعر ص ٦ .

(٢) عيار الشعر ص ١٢٤ .

وإنّك إذْ تهجو تميا وترتـــشي سرابيلَ قيس أو سحوقَ العمائم
كمهريق ماءٍ بالفلاة وغـــرّه سرابٌ أذاعته ريـــاحُ السمائم

كان يجب ان يكون بيت لابن هرمة مع بيت للفرزدق وبيت للفرزدق مع بيت لابن هَرْمة فيقال :

وإنيّ وتركي ندى الاكرمـــينَ وقَدْحي بكفي زنـاداً شحاحا
كمهريقِ ماءٍ بالفـلاةِ وغَـــرَّهُ سرابٌ أذاعتـه رياحُ السمائم

ويقال :

وإنَّكَ إذْ تهجو تميماً وترتــــشي سرابيلَ قيسٍ أو سحوقَ العمائم
كتاركَـــةٍ بيضَهـــا بالعـــراء وملبسةٍ بيضَ أخرى جناحـا

حتى يصح التشبيه للشاعرين جميعاً وإلاّ كان تشبيها بعيداً غير واقع موقعه الذي أريد له .

وفي الشعر القديم أبيات مختلفة المصاريع . من ذلك قول طرفة :

ولست بحلاّلِ التلاعِ مخافــةً ولكنْ متى يسترفِدِ القومُ أرْفِدِ

فالمصراع الثاني غير مشاكل للاول . وكقول الاعشى :

أَغَرَّ أبيض يُسْتَسقى الغمامُ بـــه لوقارَع الناس عن أحسابهم قَرعا

فالمصراع الثاني غير مشاكل للاول وإنْ كان كل واحد منهما قائما بنفسه . وانتهى ابن طباطبا الى :

١ ـ أَنَّ احسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله فان قُدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب اذا نقض تأليفها ، فان الشعر اذا اسس تأسيس فصول الرسائل القائمة

بانفاسها وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها والامثال السائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه بل يجب ان تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة الفاظ ودقة معان وصواب تأليف ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا لا تناقض في معانيها ولا وَهْي في مبانيها ولا تكلف في نسجها تقتضي كل كلمة ما بعدها ويكون ما بعدها متعلقاً بها مفتقراً اليها . فاذا كان الشعر على هذا المثيل سبق السامع إلى قوافيه قبل أن ينتهي إليها راويه . وربما سبق إلى إتمام مصراع منه إصراراً يوجبه تأسيس الشعر كقول البحتري :

سلبوا البيضَ قبرها فأقامـــوا — لظباها التأويل والتنزيـــلا
فاذا حاربوا أذلوا عـزيـــزا — . . . .

فيقتضي هذا المصراع أنْ يكون تمامه : واذا سالموا أعزوا ذليـــــلا

وكقوله :

أحلَّتْ دمي من غيرِ جُرْمٍ وحرَّمَتْ — بلا سبب يومَ اللقاء كلامي
فداؤك ما أبقيت مني فانـــــه — حشاشةُ صب في نحول عظامي
صِلي مُغْرماً قد واتر الشوق دمعه — سجاماً على الخدين بعد سجامِ
فليس الذي حَلَّلْتِه بمحلـــلِ — . . . .
يقتضي ان يكـون تمـامـه : — وليس الذي حَرَّمْتِهِ بحـــرامِ

٢ ـ أنَّ احسن الشعر ما توضع فيه كل كلمة موضعها حتى تطابق المعنى الذي اريدت له ويكون شاهدها معها لا تحتاج الى تفسير من غير ذاتها كقول جنوب أخت عمرو ذي كلب :

فأقسمتُ يا عمرو لونبهـــاك — إذَنْ نبَّها منك داءً عضـــالا
إذَنْ نبَّها ليـــث عـرّيـــسة — مقيتا مفيداً نفوساً ومـــالا

وخرقٍ تجاوزت مجهولـــةٍ بوجناء حرفٍ تشكّى الكلالا
فكنت النهـار بـه شمـــسه وكنْت دجى الليل فيه الهلالا

قال : « فتأمل تنسيق هذا الكلام وحسنه وقولها : « مقيتا مفيدا » ثم فسرت ذلك فقالت : « نفوسا ومالا » ووصفته نهارا بالشمس وليلا بالهلال فعلى هذا المثال يجب ان ينسق الكلام صدقا لا كذب فيه وحقيقة لا مجاز معها » (١) .

٣ ـ أنَّ للمعاني ألفاظا تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي ابرز فيه وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح أُلبسه وكم من صارم عضب قد انتضاه من وددت لوأنه انتضاه فهزّه ثم لم يضرب به وكم من جوهرة نفيسة قد شينت بقرينة لها بعيدة منها فافردت عن اخواتها المشاكلات لها ، وكم من زائف وبهرج قد نفقا على نقادهما ومن جيد نافق قد بهرج عند البصير بنقده فنفاه سهوا . ولذلك ينبغي الموافقة بين اللفظ والمعنى ليكون الشعر جيدا حسنا .

المعاني المشتركة :

تحدث ابن طباطبا عن المعاني الشعرية وقال إنَّ السابقين غلبوا عليها فضاقت السبيل أمام المحدثين ولم يكن من التقليد والاخذ بُدٌّ ، ورأى انه ينبغي ان لا يغير الشاعر على معاني الشعر فيودعها شعره ويخرجها في أوازن مخالفة لاوزان الشعراء التي يتناول فيها ما يتناول ويتوهم ان تغييره للالفاظ والاوزان مما يستر سرقته اويوجب له فضيلة بل يديم النظر في الاشعار لتلصق معانيها بفهمه وترسخ اصولها في قلبه وتصير مواد لطبعه ويذوب لسانه بالفاظها فاذا جاش فكره بالشعر أدَّى اليه نتائج ما استفاده مما نظر فيه من تلك الاشعار فكانت تلك النتيجة كسبيكة

---

(١) عيار الشعر ص ١٢٧ .

مفرغة من جميع الاصناف التي تخرجها . (١)

واذا تناول المعاني التي سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب بل وجب له فضل لطفه واحسانه فيه كقول أبي نواس :

وإنْ جَرَتِ الالفاظ منا بمدحــةٍ لغيرِك انساناً فأنت الذي نعني

أخذه من الاحوص حيث يقول :

مَتى ما أَقُلْ في آخرالدَّهْرِمِدْحــةً فما هي إلاّ لابنِ ليلى المكــرّمِ

وكقول دعبل :

أُحِبُّ الشَّيْبَ لما قيل ضَيْـــفٌ كحبي للضيـوفِ النـازلينـا

أخذه من قول الاحوص أيضا حيث يقول :

فبانَ مني شبابي بعـد لَذَّتِـــــه كأنما كان ضيفاً نازلا رحلا

ويحتاج من سلك هذه السبيل الى إلطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه ، فاذا وجد لطيفا في تشبيب أو غزل استعمله في المديح وإنْ وجده في المديح استعمله في الهجاء ، وان وجده في وصف ناقة أو فرس استعمله في وصف الانسان ، وان وجده في وصف انسان استعمله في وصف بهيمة ، فان عكس المعاني على اختلاف وجوهها غير متعذر على من أحسن عكسها واستعمالها في الابواب التي يحتاج إليها . وان وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام أو في الخطب والرسائل فتناوله وجعله شعراً كان أخفى وأحسن . ويكون ذلك كالصائغ الذي يذيب الذهب والفضة المصوغين فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه ،

(١) عيار الشعر ص ١٠٠ .

وكالصباغ الذي يصبغ الثوب على ما راى من الاصباغ الحسنة . فاذا أبرز الصائغ ما صاغه في غير الهيئة التي عهد عليها واظهر الصباغ ما صبغه على غير اللون الذي عهد قبل ، التبس الأمر في المصوغ وفي المصبوغ على رأيها ، فكذلك المعاني وأخذها واستعمالها في الاشعار على اختلاف فنون القول فيها .

وربما أحسن الشاعر في معنى يبدعه فيكرره في شعره على عبارات مختلفة ، واذا انقلبت الحالة التي بصف فيها ما يصف قلب ذلك المعنى ولم يخرج عن حد الاصابة فيه ، كما قال عبد الصمد بن المعذل في مدح سعيد بن سلم الباهلي :

أَلا قُلْ لساري الليلِ لا تَخْشَ ضَلَّةً ... سعيد بن سَلْمٍ ضوءُ كل بلادِ

فلما مات رثاه فقال :

يا سارياً حَيَّـره ضَلالُـه ... ضَوءُ البلاد قد خَبا ذبالُـه

وكما قال علي بن الجهم :

قالوا حُبِسْتَ فقلْتُ ليس بضائري ... حَبْسٌ وأي مهند لا يغمـدُ
أَوَما رأيت الليث يألف غيلَـه ... كبْراً وأوباشُ السباعِ تـردد

فلما نصب للناس وعُرّيَ قال :

نَصبوا بحمدالله ملءَ عيونهـم ... حسناً وملءَ صدورهم تبجيلا
ما عابـه أَنْ بَزَ عنـه ثيـابـه ... فالسيف اهول ما يُرى مسلولا

فتشبه في حال حبسه بالسيف مغمداً وفي حال تعريته بالسيف مسلولا وبالليث إلفاً لغيله تارةً ومفارقاً لغيله تارة (١) .

فنون البلاغة :

تحدث ابن طباطبا عن بعض فنون البلاغة ، كالتعريض الذي يبوب عن

---

(١) عيار الشعر ص ٧٦ وما بعدها .

التصريح كقول عمرو بن معدي كرب :

فلوأَنَّ قومي أنطقتني رماحُهم　　نَطَقْتُ ولكنَّ الرماحَ أَجَرَّتِ

أي لو أن قومي اعتنوا في القتال وطعنوا أعداءهم فأنطقتني بمدحهم وذكر حسن بلائهم نطقت ولكن الرماح شقت لساني كما يشق لسان الفصيل ، يريد أسكتتني .

والاختصار الذي ينوب عن الاطالة كقول لبيد :

وبنو الريَّان أعداءٌ لكم　　وعلى أَلْسُنِهم ذَلَّتْ نَعَمْ
زيَّنت أحسابُهم أنسابَهم　　وكذاك الحِلْمُ زَيْنٌ للكَرَمْ

والاغراق في المعنى كقول النابغة الجعدي :

بلغنا السماءَ نجدةً وتكرما　　وإنَّا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وقد سلك جماعةٌ من الشعراء المحدثين سبيل الاوائل في المعاني التي اغرقوا فيها كقول أبي نواس :

وأخفتَ أهلَ الشِرك حتى أنَّه　　لتخافُك النُّطَفُ التي لَمْ تُخْلَقِ

وينبغي أَنْ يستعمل الشاعر من المجازات ما يقارب الحقيقة ولا يبعد عنها ، ومن الاستعارات ما يليق بالمعاني التي يأتي بها . وان يتجنب الاشارات البعيدة والحكايات القلقة والايماء المشكل ويعتمد ما خالف ذلك . فمن الحكايات القلقة والاشارات البعيدة قول المثقّب في وصف ناقته :

تقولُ وقد دَرأْتُ لها وَضيني　　أَهذا دينُه أبداً وديني
أَكُلَّ الدهر حِلٌّ وارتحالٌ　　أَما يُبْقِي عليَّ ولا يَقيني

فهذه الحكاية كلها عن ناقته من المجاز المباعد للحقيقة ، وانما أراد الشاعر أَنَّ الناقة لو تكلمت لأعربت عن شكواها بمثل هذا القول .

ومن الايماء المشكل الذي لا يفهم وقد افرط قائله في حكايته قول الآخر :

أَومت بكفيها من الهــــوْدَجِ لولاك هذا العامَ لم أَحْجُــجِ
أنْتَ الى مكةَ أخــرجتـــــني حباً ولولا أنت لم أخْـــرُجِ

فهذا الكلام كله ليس مما يدل عليه إيماء ولا تعبر عنه إشارة (١).

وكلامه على هذه الفنون كان موجزاً ولكنه فَصَّلَ القول في التشبيه وتحدث عن طريقة العرب فيه وذكر ضروبه . وليس فيما ذكره جديد ، وقد اعتذر له الدكتور محمد زغلول سلام بقوله : « ولا نستطيع أنْ نلوم ابن طباطبا في هذا التقصير فالدراسات الاسلوبية لا تزال في مراحلها الاولى ولم يسبقه من حدَّد جوانب التشبيه وأركانه وضروبه ومن فضله فيه بل كانت كل دراسات سابقيه التي تتعرض للتشبيه تتناول جوانب منه اخرى وربما كان أكثرهم تحديدا وتعديدا » . (٢) ويمكن القول بانّ الذي دفعه الى هذا المنهج هو ان البلاغة عنده وسيلة وليست هدفا ولذلك لم يبحثها كما فعل البلاغيون الذين كانوا يعنون بالتعريف والتقسيم .

ان ابن طباطبا قد وضع في كتابه « عيار الشعر » موازين للشعر ، وذكر ما ينبغي أن يأخذ الشاعر به وما يجب ان يتجنبه ، وضرب لذلك امثلة كثيرة لتكون دليلا لمعرفة الجيد من الرديء وليتمرن بها الشاعر ومن أجل ذلك وضع كتاب « تهذيب الطبع » في الاختيارات الشعرية . ويمكن أنْ نقول بعد الذي عرضناه إنّه ناقد يعتمد على الذوق اكثر من اعتماده على القواعد والتعليل ولذلك لا نجد في كتابه عناية بها وباقسامها وانما يعرضها عرضا سريعا ليخلص الى الامثلة الكثيرة التي تهذب الذوق وتصقله ، وهو بالتالي ممن ربط الشعر بالصدق حينما تحدث عن ألوانه المختلفة وصوره المتعددة وكان رأيه يتلاءم مع أساس نظريته في التناسب الذي هو سر الجمال .

---

(١) عيار الشعر ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ١١٩ - ١٢٠ .
(٢) تأريخ النقد العربي الى القرن الرابع الهجري ص ١٤١

قدامة بن جعفر

ألَّف قدامة بن جعفر (ـ ٣٣٧ هـ) كتاب « نقد الشعر » الذي كان من أوائل كتب نقد الشعر العربي التي تقوم على منهج محدد المعالم واضح السمات . وقد ألَّفه لمّا رأى الناس يخبطون في النقد منذ أنْ تفقهوا في العلم ، وقسَّم العلم بـالشعر الى أقسام : قسم ينسب الى علم عروضه ووزنه ، وقسم ينسب الى علم قوافيه ومقاطعه ، وقسم ينسب الى علم غريبه ولغته ، وقسم ينسب الى علم معـانيـه والمقصد منه ، وقسم ينسب الى علم جيده ورديئه . وقد عني الناس بوضع الكتب في الاقسام الاربعة الاولى عناية تامة فاستقصوا أمر العروض والوزن والقوافي والمقاطع والغريب والنحو وتكلموا في المعاني الدال عليها الشعر ومـا الـــذي يريد الشاعر . ولم يجد أحداً وضع في نقد الشعر وتلخيص جيده من رديئه كتاباً فجرد كتابه لذلك ليسدَّ ما أهمله الناس وقصّروا فيه . ومعنى ذلك انه لم يطلع على كتـاب « نقد الشعر » لابي العباس عبد الله بـن محمد الناشيء الاكبر (ـ ٢٩٣ هـ) وكتاب « عيار الشعر » لابن طباطبا اوأنه اطلع عليهما ولم يعجب بهما فسعى الى وضع كتاب في نقد الشعر من غير أن يشير اليهما اويناقش ما جاء فيهما من آراء .

تحدث في الفصل الأول عن الشعر وعرَّفه تعريفا منطقيا ، ولمـا كـانت عناصر الشعر التي أحاط بها تعريفه أربعة هي : اللفظ والمعنى والوزن والقـافية ، فانّ نعوت الجودة تتصل بكل منها مفردة ومركبة من غيرها مـن العنـاصر ، غير أنّه وجد اللفظ والمعنى والوزن تأتلف فيحدث من ائتلاف بعضها الى بعض معانٍ يُتكلم فيها ولم يجد للقافية مع واحد من سائر الاسباب ائتلافا ، الا انه نظر فيها فوجدها من جهة ما انها تدل على معنى لذلك المعنى الذي تدل عليه ائتلاف مـع معنى سائر البيت فإما مع غيره فلا ؛ لأنَّ القافية إنما هي لفظة مثل لفظ سائر البيت

من الشعر ولها دلالة على معنى كما لذلك اللفظ أيضا ، والوزن شيء واقع على جميع لفظ الشعر الدال على المعنى . فاذا كان ذلك كذلك فقد انتظم تأليف الثلاثة الامور الأُخر ائتلاف القافية ايضا اذ كانت لا تعدو انها لفظة كسائر لفظ الشعر المؤتلف مع غيره ، وبذلك تكون صفات الجودة ومثلها صفات الرداءة تدور مع العناصر مفردة ومع ائتلاف اللفظ والمعنى وائتلاف اللفظ والوزن وائتلاف المعنى والوزن وائتلاف القافية . وعلى هذا الاساس أقام هيكل كتابه المنطقي فتحدث في الفصل الثاني عن نعوت الجودة ووزّعها على عناصر الشعر مفردة ومركبة وبدأ باللفظ ثم القوافي . وانتقل الى نعوت المعاني الدال عليها الشعر وذكر أغراضه المهمة ثم ما يعم جميع المعاني الشعرية ، وتكلم على انواع نعوت المعاني ، ثم انتقل الى ائتلاف اللفظ مع المعنى ، ونعت ائتلاف المعنى والوزن ، ونعت ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت .

وتحدث في الفصل الثالث عن عيوب الشعر ووجوه رداءته ، وابتدأ الكلام على عيوب اللفظ ثم تحدّث عن عيوب المعاني وهي : عيوب المديح والهجاء والرثاء والتشبيه والوصف والغزل ، وأعقبها بالعيوب العامة للمعاني .

هذا منهج قدامة في « نقد الشعر » وهو منهج عقلي أوهو بناء هيكل منطقي تصوره بعقله المجرد ، ومن ذلك كلامه على فساد التفسير فقد دفعته القسمة العقلية الى أَنْ يضع موضوعا ليست له امثلة اولم يستطع ان يجد له امثلة واضطر الى ان يأتي بمثال واحد جاء به بعض شعراء زمانه وهو يطلب مثالات في هذا الباب يستفتيه فيه وهو :

فيا أيُّها الحيرانُ في ظُلم الدُّجى   ومَنْ خاف أنْ يلقاه بَغْيٌ من العِدى
تعالَ اليه تَلْقَ من نورِ وجهه   ضياءً ومن كفيه بحراً من الندى

قال : « وقد كان هذا الرجل يسمعني كثيراً أخوض في أشياء من نقد الشعر فيعي بعض ذلك ويستجيد الطريق التي أوضحها له . فلما وقع هذان البيتان في قصيدة له ولاح له ما فيهما من العيب ولم يتحققه صار إليّ فيهما وذكرانه عرضهما على جماعة من الشعراء وغيرهم ممن ظن ان عنده مفتاحا له وان بعضهم جوّزهما

وبعضهم شعر بالعيب فيهما ولم يقدر على شرحه فذكرت له الحال فيه وأثبت البيتين في هذا الباب مثالا » [(١)].

ولم ينجح قدامة في كتابه ومنهجه كل النجاح لانه أضفى عليه جفافا لا يقبله الذوق العربي السليم ووضع حدوداً ورسوماً لا تلائم الشعر العربي . وقد غالى كثير من الباحثين في تأثره بارسطو وكتابيه « الشعر » و« الخطابة » والواقع انه استفاد من الثقافة الاجنبية واقتبس منها ما فيه النفع ونظر في كتب البلاغة والادب واستخلص منها ما أفاده في تطبيق منهجه الذي اختطه والتقسيم الذي وضعه . وأوحت اليه الملاحظات البيانية كثيراً من الموضوعات ، وكان لما قاله عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ في نعت المدح والوحشي الذي مدح زهيرا بمجانبته له وتنكّبه اياه وتجنبه المعاظلة في الكلام ، [(٢)] وماقاله عبد الملك بن مروان في شعر كثّير عزة وترجيحه لهذا الرأي ، وما قاله لعبيد الله بن قيس الرقيات حين عتب عليه في مدحه إياه بقوله :

يَاتَلِقُ التـاجُ فوق مَفْـرِقِـه ... على جَبين كأنَّه الـذَّهَـبُ [(٣)]

كان لهذا وغيره تأثير في كتابه ، الى جانب ما قام به السابقون كابن قتيبة وثعلب وابن المعتز من تبويب لموضوعات البلاغة وتحديد لمصطلحاتها وتقسيم لابوابها . ولم يخرج عنهم كثيراً وإنْ خالفهم في المنهج العقلي بل كاد يتبع خطا العرب الاقدمين في كثير من آرائه ومقاييسه النقدية وأشاد بتقاليد الشعر ووجوب رعايتها .

وقد أرجع الدكتور بدوي طبانة القواعد والاصول التي تضمنها « نقد الشعر » الى ثلاثة مصادر :

١ ــ قواعد أخذها من تقاليد الشعر العربي وآراء النقاد العرب .

٢ ــ قواعد استفادها من مصادر غير عربية .

---

(١) نقد الشعر ص ٢٣٠ .

(٢) نقد الشعر ص ٦٨ ، ١٩٦ ، ٢٠١ .

(٣) نقد الشعر ص ٧٤ ، ٢١٤ .

٣ ـ قواعد استنبطها بفكره وذوقه الخاص . (١)

غير ان الجانب العربي والاستنباطي اكثر وضوحا من الاثر الاجنبي ولذلك قرر المستشرق (س . أ . بوتيباكر) محقق كتاب « نقد الشعر » عدم تأثره بارسطو .

وتحدث قدامة عن البلاغة في مقدمة كتابه « جواهر الالفاظ » وذكر الوجوه التي يزدان بها الكلام وهي : الترصيع ، والسجع ، واتساق البناء ، واعتدال الوزن ، واشتقاق لفظ من لفظ ، وعكس ما نظم من بناء ، وتلخيص العبارة بالفاظ مستعارة ، وايراد الاقسام موفورة بالتمام ، وتصحيح المقابلة بمعانٍ متعادلة ، وصحة التقسيم باتفاق المنظوم ، وتلخيص الاوصاف بنفي الخلاف ، والمبالغة في الرصف بتكرار الوصف ، وتكافؤ المعاني في المقابلة والتوازي ، وارداف اللواحق ، وتمثيل المعاني .

وتحدث عنها ايضا في المنزلة الثالثة من كتابه « الخراج وصناعة الكتابة » ولكن هذه المنزلة لم تصل مع ما وصل من هذا الكتاب وهي كما قال عنها في المنزلة الخامسة عند التكلم على ديوان الرسائل « قد ذكرنا في المنزلة الثالثة من أمر البلاغة ووجه تعلمها وتعريف الوجوه المحمودة فيها والوجوه المذمومة فيها ما اذا أوعي كان الكاتب واقفا به على ما يحتاج اليه » (٢) وقال أبو حيان التوحيدي عنه : « وما رأيت أحداً تناهى في وصف النثر : بجميع ما فيه وعليه غير قدامة بن جعفر في المنزلة الثالثة من كتابه . قال لنا علي بن عيسى الوزير : عرض عليَّ قدامة كتابه سنة عشرين وثلثمائة واختبرته فوجدته قد بالغ و أحسن وتفرد في وصف فنون البلاغة في المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى مما يدل على المختار المجتبى والمعيب المجتنب » (٣)

ولم يكن قدامة ناقلاً فحسب بل كان مبتدعا لكثير من الفنون البلاغية وواضعا

(١) قدامة بن جعفر والنقد الادبي ص ١٤٣ .
(٢) الخراج ص ١١ .
(٣) الامتاع والمؤانسة حـ ٢ ص ١٤٥ .

لها أسماء ، قال : « ومع ما قدمته فاني لما كنت آخذاً في استنباط معنى لم يسبق اليه من يضع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدل عليها احتجت ان اضع لما يظهر من ذلك اسماء اخترعتها وقد فعلت ذلك ، والاسماء لا منازعة فيها إذا كانت علامات . فان قنع بما وضعته والا فليخترع لها كل من أبى ما وضعته منها ما أحب فليس ينازع في ذلك » (١) .

وذكر بعض الباحثين (٢) انه انفرد بصحة التقسيم ، وصحة المقابلات ، وصحة التفسير ، وائتلاف اللفظ مع المعنى ، والمساواة ، والاشارة ، والإرداف ، والتمثيل ، وائتلاف اللفظ مع الوزن ، وائتلاف المعنى مع الوزن ، وائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت ، والتوشيح ، والايغال ، واعتدال الوزن ، واشتقاق لفظ من لفظ ، وتلخيص الاوصاف ، والتوازي ، والمضارعة ، وعكس اللفظ أوعكس ما نظم من بناء ، واتساق البناء ، والسجع .

ولو رجعنا الى الكتب السابقة لرأينا ان بعض هذه الفنون والمصطلحات لم تكن من وضعه ، وقد ارجعها الشيخ محمد الخضر حسين الى اصولها ومصادرها وهي : صحة التقسيم ، وصحة المقابلة ، والمساواة ، والايغال ، وائتلاف القافية ، والاشارة ، والارداف ، والتصريع ، وصحة التفسير ، والتوشيح (٣) .

ولا يسلب هذا مكانة قدامة وأهمية كتابه ، لانه الى جانب وضعه بعض المصطلحات كان له الفضل الكبير في وضع منهج علمي دقيق درس في ضوئه الشعر وما يتصل به من أغراض وفنون . وكانت له آراء كثيرة وتفسيرات جيدة سنقف على أهمها :

الشعر :

عَرَّف الشعر بانه « قول موزون مقفى يدل على معنى » (٤) وشرح هذا التعريف بالاسلوب المنطقي الذي يحدد القضايا تحديداً دقيقا .

---

(١) نقد الشعر ص ٢٢

(٢) قدامة بن جعفر ص ٣٧٠ ، والبيان العربي ص ١٤٤ والبلاغة تطور وتأريخ ص ٩٢ .

(٣) الخيال في الشعر العربي ص ١٨٨ وما بعدها .

(٤) نقد الشعر ص ١٥ .

والشعر صناعة كسائر الصناعات ولذلك فله طرفان : أحدهما غاية الجودة ، والآخر غاية الرداءة ، وحدود بينهما تسمى الوسائط . وكل قاصد لشيء من ذلك فانما يقصد الطرف الأجود ،فان كان معه من القوة في الصناعة ما يبلغه اياه سمي حاذقا تام الحذق وان قصّر عن ذلك نزل له اسم بحسب الموضع الذي يبلغه في القرب من تلك الغاية والبعد عنها ، وكذلك الشعر لأنه جارٍ على سبيل سائر الصناعات فمن استطاع ان يصل الى غاية التجويد فذلك هو الشعر الجيد ومن عجز عن ذلك كان ضعيفاً في صناعته . ولكي يستطيع ان يضع الشعر في موضعه من الجودة والرداءة تحدث عن أسباب الجودة وأحوالها وعن الرداءة وأحوالها ، فاذا حاز اوصاف الجودة في الشعر كان في نهاية الجودة واذا اجتمعت فيه اوصاف الرداءة كان في نهاية الرداءة . أما الذي بين هذين اللونين فقد قال عنه : « فما كان فيه من النعوت اكثر كان الى الجودة اميل ، وما كان فيه من العيوب اكثر كان الى الرداءة أقرب ، وما تكافأت فيه النعوت والعيوب كان وسطا بين المدح والذم » [1] .

والمعاني كلها معرضة للشاعر وله ان يتكلم منها فيما أحب وآثر من غير ان يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه اذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة كما يوجد في كل صناعة من ان لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة . وعلى الشاعر اذا شرع في أي معنى من الرفعة والضعة والرفث والنزاهة والبذخ والقناعة والمدح والهجاء وغير ذلك من المعاني الحميدة والذميمة ــ ان يتوخى البلوغ والتجويد في ذلك . وبذلك فصل قدامة بين الشعر والاخلاق ، وقال ان فحاشة المعنى في نفسه لا تزيل جودة الشعر فيه ، وذكر مثلاً قول امرىء القيس ، قال : « فاني رأيت من يعيب امرأ القيس في قوله :

فمثلُك حُبلى قد طرقْتُ ومـرضعٌ ⠀⠀⠀ فألهيتها عن ذي تَمائِمَ مُحْوِلِ

---

(١) نقد الشعر ص ٢٥ .

إذا ما بكى من خلفها انصرفَتْ له بشقٍ وتحتي شقّها لم يُحَوّلِ

ويذكر ان هذا المعنى فاحش ، وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلا رداءته في ذاته »(١).

فنون الشعر :

وفنون الشعر كثيرة ولذلك اقتصر على بعضها لتكون مثالا لغيرها وهي : المديح والهجاء والمراثي والتشبيه والوصف والنسيب ، وقد اتخذ من قول عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في وصف زهير : « انه لم يكن يمدح الرجل الا بما يكون للرجال » مُنْطلقا له ، وذكر ان فضائل الناس هي : العقل والشجاعة والعدل والعفة ، والقاصد لمدح الرجال بهذه الخصال مصيب والمادح بغيرها مخطىء ، وذلك كما قال زهير بن ابي سلمى في قصيدة :

أخي ثقةٍ لا تُهْلِكُ الخَمْرُ مالَه ولكنّه قد يُهْلِكُ المالَ نائِلهْ

فوصفه في هذا البيت بالعفة لقلة إمعانه في اللذات وانه لا ينفد ماله فيها وبالسخاء لإهلاكه ماله في النوال وانحرافه الى غير ذلك من اللذات وذلك هو العدل ، ثم قال :

تراه إذا ما جئْتَه متهلـلاً كأنّك مُعْطيه الذي أنت سائِلُه

فزادَ في وصف السخاء منه بان جعله يهش له ولا يلحقه مضض ولا تكرُّه لفعله ، ثم قال :

فمن مِثْل حِصن في الحروب ومثْله لانكار ضيمٍ أو لخصم يجادِلُه

وأتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل فاستوعب زهير في ابياته هذه المدح بالاربع الخصال التي هي فضائل الانسان على الحقيقة وزاد في ذلك الوفاء وان كان داخلا فيها .

---

(١) نقد الشعر ص ١٨ .

وقد يتفنن الشعراء في المديح بان يصفوا حسن خلق الانسان ويعددوا أنواع الفضائل الاربع واقسامها وأصناف تركيب بعضها مع بعض . ومدائح الرجال اقسام بحسب الممدوحين من اصناف الناس في الارتفاع والاتضاع وضروب الصناعات والتبدي والتحضر ، ومن ذلك مدح الملوك ومدح ذوي الصناعات ومدح القائد ومدح السوقة من البادية والحاضرة ولكل قسم من هذه الاقسام اسلوب ومعانٍ في المديح .

إنَّ المديح عند قدامة ينبغي ان يكون بالفضائل النفسية التي هي : العقل والعفة والعدل والشجاعة وما جانس ذلك ، وان كل واحدة من هذه الفضائل وسط بين طرفين مذمومين ، وقد وصف شعراء مصيبون متقدمون قوماً بالافراط في هذه الفضائل حتى زال الوصف الى الطرف المذموم ، ومن ذلك ان كثيراً أنشد عبد الملك بن مروان قوله فيه :

على ابن أبي العاصي دلاصٌ حصينة   أجاد المسدّي سردَها وأذالها
يؤود ضعيفَ القوم حملُ قتيرها   ويستطلع القرمُ الأشمُ احتمالَها

فقال له عبد الملك : قول الاعشى لقيس بن معدي كرب احسن من قولك حيث يقول له :

وإذا تجيءُ كتيبةٌ مذمـــومـــةٌ   شهباءُ يخشى الذائـدونَ نهالها
كنتَ المقَدَّمَ غيرَ لابس جُنَّـــةٍ   بالسيف تضرب مُعْلماً أَبطالَها

فقال : يا أمير المؤمنين وصفتك بالحزم والعزم ووصف الاعشى صاحبه بالطيش والخرق . قال قدامة : « والذي عندي في ذلك ان عبد الملك أصح نظرا من كثيّر إلاّ أنْ يكون كثيّر غالط واعتذر بما يعتقد خلافه .... الاعشى بالغ في وصف الشجاعة حتى جعل الشجاع شديد الاقدام بغير جُنَّة على انه وان كان لُبس الجنة أَوْلى بالحزم وأحق بالصواب في وصف الاعشى دليل قوي على شدة شجاعة صاحبه لا ان الصواب له ولا لغيره الا لبس الجنة ، وقول كثيّر يقصر عن الوصف »[1] .

---

(١) نقد الشعر ص ٧٣ .

ومن أمثلة الخروج على الفضائل النفسية في المديح ما قاله عبد الملك بن مروان لعبيد الله بن قيس الرقيات حين عتب عليه في مدحه اياه : انك قلت في مصعب بن الزبير :

إنّما مُصْعَبٌ شِهابٌ من اللّهِ تَجَلَّتْ عن وَجْهه الظَّلماءُ

وقلتَ فيَّ :

يأتَلِقُ التـاجُ فَوق مَفْـرِقـه   على جَبينٍ كأنَّـه الـذَّهَـبُ

فوجه عتب عبد الملك انما هو من أجل ان هذا المادح عدل به عن الفضائل النفسية التي هي العقل والعفة والعدل والشجاعة ، وما جانس ذلك وأدخل في جملته الى ما يليق باوصاف الجسم في البهاء والزينة وهذا غلط وعيب . (١)

والهجاء هو ما كثرت فيه أضداد المديح ، ومنه ما تجمل فيه المعاني كما في المديح فيكون ذلك حسنا اذا اصيب به الغرض المقصود مع الايجاز في اللفظ .

وليس بين المرثية والمدح فصل الا ان يذكر في اللفظ ما يدل على انه لهالك مثل « كان » و« تولّى » و« قضى نحبه » وما اشبه ذلك ، لان تأبين الميت انما هو بمثل ما كان يمدح في حياته ، ومن الشعراء من يرثي بذكر بكاء الاشياء التي كان الميت يزاولها . والرثاء القوي هو الذي يثني على الميت بالفضائل النفسية .

وأدخل التشبيه في أغراض الشعر وهو ما لا نراه عند غيره من النقاد والبلاغيين . والوصف هو ذكر الشيء بما فيه من الاحوال والهيئات . ولما كان اكثر وصف الشعراء انما يقع على الاشياء المركبة من ضروب المعاني كان احسنهم وصفا من أتى في شعره باكثر المعاني التي يركب منها الموصوف ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره ويمثله للحس بنعته .

والنسيب ذكر الشاعر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى معهن .

(١) نقد الشعر ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

والفرق بين الغزل والنسيب « ان الغزل هو المعنى الذي اذا اعتقده الانسان في الصبوة الى النساء نسب بهن من اجله ، فكأن النسيب ذكر الغزل والغزل المعنى نفسه ، والغزل انما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء ويقال في الانسان انه غزِل اذا كان متشكلاً بالصورة التي تليق بالنساء وتجانس موافقاتهن بحاجته الى الوجه الذي يجذبهن الى ان يملن اليه. والذي يميلهن اليه هو الشمائل الحلوة والمعاطف الظريفة والحركات اللطيفة والكلام المستعذب والمزاج المستغرب . ويقال لمن يتعاطى هذا المذهب من الرجال والنساء متشاجٍ وانما هو متفاعل من الشجا أي متشبه بمن قد شجاه الحب » [1].

ولذلك يكون النسيب الذي يتم به الغرض ما كثرت فيه الادلة على التهالك في الصبابة وتظاهرت فيه الشواهد على افراط الوجد واللوعة وما كان فيه من التصابي والرقة اكثر مما يكون فيه من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة اكثر مما يكون فيه من الإباء والعز . وقد يدخل فيه التشوق والتذكر لمعاهد الاحبة بالرياح الهابة والبروق اللامعة والحمائم الهاتفة والخيالات الطائفة وآثار الديار العافية واشخاص الاطلال الدائرة ، وجميع ذلك اذا ذكر احتيج ان تكون فيه ادلة على عظم الحسرة ومرمض الاسف والمنازعة . والمحسن من الشعراء في النسيب هو الذي يصف من احوال ما يجده ما يعلم به كل ذي وجد حاضر أو دائر انه يجد او قد وجد مثله حتى يكون للشاعر فضيلة الشعر . من ذلك قول أبي صخر الهذلي يصف ما يجد مثله كل متعلق بمودة :

أمَا والذي أبكى وأضحك والذي ... أماتَ وأحيا والذي أمْرُهُ الأمْرُ
لقد كُنْتُ آتيها وفي النفسِ هَجْرُها ... بتاتاً لأخرى الدهرِ ما طلع الفَجْرُ
فما هو إلاَّ أنْ أراهـــا فُجـــاءةً ... فأبهتَ لا عِرْفٌ لديَّ ولا نُكْرُ
وأنْسَى الذي قدْ كُنْتُ فيه هجرْتُها ... كما قد تُنْسّي لُبَّ شارِبها الخَمْرُ

وفي هذه القصيدة موضع آخر دال على إفراط المحبة مبين عن سجية في أهل

(١) نقد الشعر ص ١٤٠ .

الهوى عامة وهو قوله :

ويمنعني من بعض إنكار ظُلْمِهـــا إذا ظَلَمَتْ يوماً وإنْ كان لي عُذْرُ
مخافَةَ أني قد عَلِمْتُ لئن بـــدا لي الهَجْرُ منها ما على هَجْرِها صَبْرُ
وإني لا أدري إذا النفس أشْرَفَتْ على هَجْرِها ما يبلغَنَّ بي الهَجْرُ

المعاني الشعرية :

أما ما يعم جميع المعاني الشعرية فهي : صحة التقسيم وصحة المقابلات وصحة التفسير . واما نعوت المعاني فهي : التتميم والمبالغة والتكافؤ والالتفات والمساواة والاشارة والارداف والتمثيل والمطابق والمجانس . وقد تكلم عليها كما فعل البلاغيون من غير ان يقف عندها طويلا مثل وقوفه عند أغراض الشعر .

الغلو والمبالغة :

ومن القضايا التي عالجها الغلو والمبالغة . وهي من مذاهب الشعر التي اختلفوا فيها ، فمنهم من يميل الى الغلو في المعنى ومنهم من يرى الاقتصار على الحد الأوسط فيما يقال منه . وقد خلطوا في تحديد كل لون وأكثر الفريقين لا يعرف من أصله ما يرجع اليه ويتمسك به . وقد شهد قدامة ممن هذه سبيله قوما يقولون ان قول مهلهل بن ربيعة :

فلولا الريحُ اسمع أهْلَ حِجرٍ صليل البيض تُقْرعُ بالذكورِ

خطأ من أجل انه كان بين موضع الوقعة التي ذكرها وبين حجر مسافة بعيدة ، وكذلك يقولون في قول النمر بن تولب :

أبقى الحوادثُ والايامُ من نمـــر أسبادَ سيف قديمٍ اثره بادِ
تظل تحفر عنه إنْ ضَرَبْتَ بـــه بعد الذراعين والساقين والهادي

وكذلك قول أبي نواس :

وأخفتَ أهل الشرك حتى أنَّه لتخافُك النُّطَفُ التي لم تُخْلَق

ثم رأى هؤلاء باعيانهم في وقت آخر يستحسنون ما يروون من طعن النابغة على حسان في قوله :

لنا الجَفناتُ الغُرُّ يلمعْنَ بالضحى وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَما

وذلك انهم يرون موضع الطعن على حسان انما هو في قوله : « الغر » وكان ممكنا ان يقول « البيض » لان الغرة بياض قليل في لون آخر غيره كثير. وقالوا فلو قال : « البيض » لكان اكثر من « الغر » وفي قوله « يلمعن بالضحى » ولو قال « بالدجى » لكان أحسن ، وفي قوله « وأسيافنا يقطرن من نجدة دما » قالوا : ولو قال : « يجرين » لكان احسن اذ كان الجري اكثر من القطر . قال قدامة : « فلو انهم يحصلون مذاهبهم لعلموا ان هذا المذهب في الطعن على شعر حسان غير المذهب الذي كانوا معتقدين له من الانكار على مهلهل والنمر وأبي نواس ، لأن المذهب الاول انما هو لمن انكر الغلو والثاني لمن استجاده ، فان النابغة على ما حكي عنه لم يرد من حسان الا الافراط والغلو بتصييره مكان كل معنى وضعه ما هو فوقه وزائد عليه وعلى ان من أنعم النظر علم ان هذا الرد على حسان من النابغة كان أو من غيره خطأ بين ، وان حسان مصيب اذ كانت مطابقة المعنى بالحق في يده وكان الراد عليه عادلا عن الصواب الى غيره ، فمن ذلك ان حسان لم يرد بقوله « الغر » ان يجعل الجفان بيضاً فاذا قصر عن تصيير جميعها ابيض نقص ما اراده وانما اراد بقوله « الغر » المشهورات كما يقال : « يوم أغر » و« يد غراء » وليس يراد البياض في شيء من ذلك بل تراد الشهرة والنباهة ، واما فول النابغة في « يلمعن بالضحى» انه لو قال « بالدجى » لكان احسن من قوله « بالضحى » اذ كل شيء يلمع بالضحى فهو خلاف الحق وعكس الواجب لانه ليس يكاد يلمع بالنهار من الاشياء الا الساطع النور الشديد الضياء فاما الليل فأكثر الاشياء مما له ادنى نور وأيسر بصيص يلمع فيه ، فمن ذلك الكواكب وهي بارزة لنا مقابلة لأبصارنا دائما تلمع بالليل ويقل لمعانها بالنهار حتى تخفى، وكذلك السرج والمصابيح ينقص نورها كلما اضحى النهار والليل تلمع فيه عيون السباع لشدة بصيصها وكذلك اليراع حتى تخال نارا .

وأما قول النابغة أو من قال : إن قوله في السيوف « يجرين » خير من قوله « يقطرن » لان الجري أكثر من القطر ، فلم يرد حسان الكثرة وإنما ذهب إلى ما يلفظ به الناس ويعتادونه من وصف الشجاع الباسل والبطل الفاتك بأن يقولوا : سيفه يقطر دما ، ولم يسمع : سيفه يجري دما ، ولعله لو قال :« يجرين دما » لعدل عن المألوف المعروف من وصف الشجاع النجد الى ما لم تجر عادة العرب به » (١).

والغلو عنده أجود المذهبين وهو ما ذهب اليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما ، قال : « وقد بلغني عن بعضهم انه قال : أحسن الشعر أكذبه ، وكذا يرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم . ومن انكر على مهلهل والنمر وابي نواس قولهم المقدم ذكره فهو مخطىء لانهم وغيرهم ممن ذهب الى الغلو انما ارادوا به المبالغة وكل فريق اذا اتى من المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم فانما يريد به المثل وبلوغ النهاية في النعت ، وهذا أحسن من المذهب الآخر» . (٢) وعدَّ من نعوت المعاني المبالغة وهي « ان يذكر الشاعر حالا من الاحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه في الغرض الذي قصده فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد له » (٣) وذلك مثل قول عمير بن الايهم التغلبي :

ونكرم جارَنا ما دام فينـــــــا ... ونُتبعه الكـرَامـةَ حيث مالا

فإكرامهم للجار ما دام فيهم من الاخلاق الجميلة الموصوفة وإتباعهم اياه بالكرامة حيث كان من المبالغة في الجميل .

التناقض :

والتناقض غير منكر عنده ومناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين بان يصف شيئا وصفاً حسنا ثم يذمه بعد ذلك ذما حسنا ايضا غير منكر عليه ولا معيب

(١) نقد الشعر ص ٦٤ .
(٢) نقد الشعر ص ٦٥ .
(٣) نقد الشعر ص ١٦٠ .

من فعله اذا أحسن المدح والذم ، بل ذلك يدل على قوة الشاعر في صناعته وافتداره عليها [(١)]. ومثال ذلك قول امرىء القيس :

فلوأَنَّ ما أسعى لأدنى معيشــةٍ   كفاني ولم اطلُبْ قليلٌ من المالِ
ولكنَّما أسعى لمجدٍ مـؤثَّـــلٍ   وقد يُدْرِكُ المَجْدَ المؤثَّــلَ أمثالي

وقوله في موضع آخر :

فتملأُ بيتنــا أَقِطاً وسمنـــــا   وحسبك من غِنًى شبعٌ وريُّ

وقد عيب لما بين القولين من تناقض ، وردّ قدامة على ذلك العائب بقوله : « انه لو تصفح أولا قول امرىء القيس حقَّ تصفحه لم يوجد ناقض معنى بآخر بل المعنيان في الشعرين متفقان الا انه زاد في احدهما زيادة لا تنقض في الآخر، وليس احد ممنوعا من الاتساع في المعاني التي لا تتناقض وذلك انه قال في احد المعنيين : فلو انني اسعى لادنى معيشة كفاني القليل من المال ، وهذا موافق لقوله « وحسبك من غنى شبع وري » ، لكن في المعنى الاول زيادة ليست بناقضة لشيء وهو قوله « لكنني لست اسعى لما يكفيني ولكن لمجد اؤثله » . فالمعنيان اللذان ينبئان عن اكتفاء الانسان باليسير في الشعرين متوافقان والزيادة في الشعر الاول التي دل بها على بعد همته ليست تنقض واحدا منهما ولا تنسخه . ثم قال : وأرى ان هذا العائب ظن ان امرأ القيس قال في احد الشعرين : « ان القليل يكفيه » وفي الآخر : « انه لا لا يكفيه » . وقد ظهر بما قلناه ان هذا الشاعر لم يقل شيئا من ذلك ولا ذهب اليه ، ومع ذلك فلو قاله وذهب اليه لم يكن عندي مخطئا من أجل انه لم يكن في شرط شرطه يحتاج الى ان لا ينقض بعضه بعضا ولا في معنى سلكه في كلمة واحدة ولو كان فيه لم يجر مجرى العيب ، لان الشاعر ليس يوصف بان يكون صادقا بل انما يراد منه اذا اخذ في معنى من المعاني كائنا ما كان ان يجيده في وقته الحاضر لا ان يطالب بان لا ينسخ ما قاله في وقت آخر» [(٢)] .

(١) نقد الشعر ص ١٨ .
(٢) نقد الشعر ص ٢١ .

وتحدث عن ايقاع الممتنع وهومن عيوب المعنى ، والفرق بينه وبين المتناقض ان الاخير لا يكون ولا يمكن تصوره في الوهم ،والممتنع لا يكون ويجوز ان يتصور في الوهم [1] ومما جاء في الشعر قد وضع الممتنع فيه فيما يجوز وقوعه قول أبي نواس :

يـا أمينَ اللهِ عِشْ أبَـــداً   دُمْ عـلى الأيامِ والزَّمَنِ

فليس يخلو هذا الشاعر من ان يكون تفاءل لهذا الممدوح بقوله : عش ابدا ، أو دعا له ، وكلا الامرين مما لا يجوز مستقبح .

هذه اهم القضايا النقدية التي تحدث عنها قدامة ، وله بعض الآراء الاخرى منها : نعت اللفظ وذلك بان يكون سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة. وعيوبه أن يكون ملحونا وجارياً على غير سبيل الاعراب واللغة ، وان يركب الشاعر منه ما ليس بمستعمل الا في الفرط ولا يُتكلم به الا شاذاً وذلك هو الوحشي الذي مدح عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ زهيرا بمجانبته وتنكّبه اياه فقال : « كان لا يتبع حوشي الكلام » . وهذا جائز للقدماء ليس من أجل انه حسن ، لكن لان من شعرائهم من كان اعرابيا غلبت عليه العجرفية وللحاجة ايضا الى الاستشهاد باشعارهم في الغريب ولأن من كان يأتي منهم بالوحشي لم يكن يأتي به على جهة التطلب له والتكلف لما يستعمله منه لكن لعادته وعلى سجية لفظه ، فاما اصحاب التكلف لذلك فهم يأتون منه بما ينافر الطبع وينبو عنه السمع [2].

ومنها كلامه على نعت الوزن وذلك ان يكون سهل العروض من اشعار يوجد فيها ذلك وان خلت من اكثر نعوت الشعر ، وعيوب الوزن هي الخروج عن العروض كأن يكون فيه تخليع أو زحاف او غير ذلك من العيوب المعروفة . [3]

(١) نقد الشعر ص ٢٤٢ .

(٢) نقد الشعر ص ١٦ ، ١٩٦

(٣) نقد الشعر ص ٣٨ ، ٢٠٦ ــ ٢٠٨ .

ومنها حديثه عن القوافي ، وذلك بان تكون عذبة الحرف سلسة المخرج وان يقصد لتصيير مقطع المصراع الاول من البيت الاول من القصيدة مثل قافيتها . ومن عيوبها التجميع والاقواء والإيطاء والسناد [1].

وليس في « نقد الشعر » ما يشير الى ان مؤلفه يفضل اللفظ أوالمعنى وان كان يبدو من حديثه عن نعوت الشعر انه يجمع بينهما مع ما جاء من قوله ان بعض الاشعار تستجاد بما فيها من حسن اللفظ ورونق الفصاحة وان خلت من سائر النعوت [2] .

ابن وهب

وكان يعاصر قدامة أبوالحسين إسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب صاحب « البرهان في وجوه البيان » [3] ، وهذا الكتاب خطوة جديدة في دراسة الادب وفنونه ودراسة علمية منظمة . وكان الجاحظ قد أثار حركة واسعة ، وكان لما كتب في « البيان والتبيين » صدى عميق في الدراسات البيانية . وقد تحدث عن أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ وهي خمسة اشياء : اللفظ ، والاشارة ، والعقد ، والخط ، والحال التي تسمى نصبة . ولكل واحدة من هذه الخمسة صورة بائنة عن صورة صاحبتها وحلية مخالفة لحلية اختها وهي التي تكشف عن أعيان المعاني في الجملة ثم عن حقائقها في التفسير وعن اجناسها واقدارها وعن خاصها وعامها وعن طبقاتها في السار والضار وعما يكون لغواً بهرجا وساقطا مطرحا . وحركت هذه الدراسة ابن وهب فألف كتابه لينظمها ويجمع شملها في كتاب يأتي به على اصولها ومعانيها والفاظها ، وقسم كتابه الى اربعة اركان هي :

البيان الاول : بيان الاعتبار ، وبعضه ظاهر يدرك بالحس ولا يفتقر الى برهان

---

(١) نقد الشعر ص ٥١ ، ٦٠ ، ٢٠٩ .

(٢) نقد الشعر ص ٢٦ .

(٣) هو اصل كتاب نقد النثر الذي نسب الى قدامة .

واستدلال وبعضه باطن لا يدرك الا بالعقل ، والعقل انما يدركه بالقياس أوالخبر ، ولذلك عقد فصلا تحدث فيه عن القياس وحلله كتحليل أهل المنطق وكأنه بذلك يرى ان أهل الادب بحاجة الى دراسة المنطق وعلم الكلام . ثم انتقل الى بحث الخبر وقسمه الى يقين وتصديق ، وجعل اليقين ثلاثة اقسام :

الاول : خبر التواتر المستفيض بين الناس .
الثاني : خبر المرسل .
الثالث : ما تواترت به اخبار الخاصة .

اما التصديق فهو الخبر الذي يأتي به الواحد او الآحاد وقد يستنبط علم باطن الاشياء بالظن الذي يحتاط فيه حتى يقع موقع اليقين .

البيان الثاني : بيان الاعتقاد المبني على البيان الاول ، وهو ثلاثة أضرب :

الاول : حق لا شبهة فيه .
الثاني : علم مشتبه يحتاج الى تقويته بالاحتجاج فيه .
الثالث : باطل لا شك فيه .

البيان الثالث : بيان العبارة أو البيان بالقول ، وقد تحدث فيه عن خواص العبارة وأطال الوقوف عند الفنون البلاغية والشعر ومكانته وتكلم على النثر كلاما مستفيضا .

البيان الرابع : بيان الكتاب ، وهو ما يتصل بالامور السلطانية من معرفة وجوه المال وحكم الارض والقضاء وادارة الشرطة والجيش وغيرها .

هذا منهج « البرهان » وهو يختلف كل الاختلاف عن منهج قدامة في « نقد الشعر » ويبدو واضحا انه حاول ان تكون للادب وفنونه دراسة علمية تخضع للعقل والادلة الى جانب عنايتها بالنصوص واظهار ما فيها من قيمة فنية . ويختلف عنه ايضا في معالجة الموضوعات من ذلك تعريفه للشعر واختلافه في الاستشهاد بأبيات امرىء القيس التي ذكرها قدامة في التناقض ، واختلافه في بعض

المصطلحات . وهذا الاختلاف في المنهج وفي معالجة القضايا البلاغية والنقدية دليل على ان كتاب « البرهان » ليس لقدامة بن جعفر وانما هو لابن وهب الكاتب .

ويتضح أثر منطق ارسطو ومنهج المتكلمين واسلوب الفقهاء في الكتاب كما تتضح شخصية المؤلف ، ففي البيان الثالث الذى اوحى الى الدكتور طه حسين بانه متأثر بارسطو كل التأثر قال : « فأما البيان بالقول فهو العبارة ، وقد قلنا انه يختلف باختلاف اللغات وان كانت الاشياء المبين عنها غير مختلفة في ذواتها » [1] ، وتحدث عن خواص العبارة واطال الوقوف عند الخبر والطلب والنسخ والمعارضة ثم قال بعد ذلك « فهذه اقسام العبارة التي يتساوى أهل اللغات في العلم بها ، فأما العرب فلهم استعمالات اخرى من الاشتقاق والتشبيه واللحن والرمز والوحي والاستعارة والامثال والالغاز والحذف والصرف والمبالغة والقطع والعطف والتقديم والتأخير والاختراع » [2] ، وهذا يدل على ان المؤلف عرف ما للعرب وما لغيرهم فمضى يتحدث عن الفنون البلاغية بروح عربية . واضاف الى ذلك كله دراسات طويلة فيما يحتاج اليه الكاتب وهو ما يدخل في الاحكام السلطانية وليست هذه الدراسات يونانية أو اجنبية وانما هي عربية تعتمد على الشريعة والنظم الاسلامية . ومعنى ذلك انه كان يسعى الى دراسة عملية ينتفع بها الكتّاب ويستعين بها أولو الامر من ولاة وعمال .

فنون البلاغة :

تحدث ابن وهب عن البلاغة وذكر ان الناس وصفوها باوصاف لم تشتمل على حدها وهي عنده : « القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام وحسن النظام وفصاحة اللسان » [3]. وهو في هذا التعريف يحدد البلاغة باربعة أركان :

١ ـ الاحاطة بالمعنى لكي لا يكون الكلام ناقصا لا يدل على معناه .

٢ ـ اختيار الكلام لان العامي قد يحيط قوله بمعناه الذي يريده الا انه بكلام

---

(١) البرهان في وجوه البيان ص ١١١ .

(٢) البرهان ص ١٢٢

(٣) البرهان ص ١٦٣ .

مرذول من كلام امثاله فلا يكون موصوفا بالبلاغة

٣ ـ فصاحة اللسان لأن الاعجمي واللحّان قد يبلغان مرادهما بقولهما فلا يكونان موصوفين بالبلاغة .

٤ ـ حسن النظام لانه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الدال على المعنى ولا يحسن ترتيب الفاظه .

والموضوعات البلاغية التي تكلم عليها هي : أسلوب الخبر والطلب وعرّف الخبر بانه « كل قول أفدت به مستمعه ما لم يكن عنده » ، وعرّف الطلب بـانه « كل ما طلبته من غيرك » (١) ومنه الاستفهام والنداء والدعاء والتمني ، وهي البحوث التي أصبحت اساسا لعلم المعاني .

ومنها التشبيه ، وهو من أشرف كلام العرب وفيه تكون الفطنـة والبراعة عندهم ، وكلما كان المشبِّهُ منهم في تشبيهه ألطف كان بالشعر أعرف وكلما كان الى المعنى أسبق كان بالحذق أليق . وهو قسمان : تشبيه الاشياء في ظواهرها وألوانها ومقدارها كما شبهوا اللون بالخمر والقد بالغصن ، وتشبيه في المعاني كتشبيههم الشجاع بالاسد والجواد بالبحر والحسن الوجه بالبدر .

واللَّحْنُ وهو التعريض بالشيء من غير تصريح أو الكناية عنه بغيره ، والعرب تفعل ذلك لوجوه كـالتعظيم والتخفيف والاستحياء والبقيـا والانصـاف والاحتراس .

والرَّمْزُ وهوما أخفي من الكلام ، ويستعمل فيما أريد طيه عن الناس ، امـا الوحي فانه الابانة عما في النفس بغير المشافهة على أي معنى وقعت من ايماء واشارة ورسالة وكتابة .

والاستعارة ، وهي عنده من ألوان المجاز ولم يتحدث عن اقسامها كما فعل البلاغيون وانما قال : « واما الاستعارة فانما احتيج اليها في كلام العرب لأنَّ

(١) البرهان ص ١١٣ .

الفاظهم اكثر من معانيهم . وليس هذا في لسان غير لسانهم فهم يعبرون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة ربما كانت مفردة له وربما كانت مشتركة بينه وبين غيره وربما استعملوا بعض ذلك في موضع بعض على التوسع والمجاز » [1] وذكر بعض الأمثلة التي لا تدل على تعمق في دراستها .

والحذف الذي يستعمل للايجاز والاختصار والاكتفاء بيسير القول اذا كان المخاطب عالماً بمرادها فيه .

والصرف وهو الالتفات عند الآخرين ، وذلك انهم يصرفون القول من المخاطب الى الغائب ومن الواحد الى الجماعة كقوله تعالى :

« حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة » .

والمبالغة ، وذلك ان من شأن العرب ان تبالغ في الوصف والذم كما من شأنها ان تختصر وتوجز وذلك لتوسعها في الكلام واقتدارها عليه . [2] وهي قسمان : أحدهما في اللفظ ، والآخر في المعنى . فأما المبالغة في المعنى فاخراج الشيء على أبلغ غايات معانيه كقوله تعالى :

« وقالت اليهود يد الله مغلولة » ولربما قالوا بانه قد اقتر فقتّر علينا ، فبالغ الله ـ عز وجل ـ في تقبيح قولهم واخراجه على غاية الذم .

والقطع والعطف ـ وهو الفصل والوصل ـ والتقديم والتأخير .

وهذه الفنون من أدوات النقد المهمة ، اما القضايا النقدية التي تحدث عنها فهي :

الشعر :

لم يعرف ابن وهب الشعر كما فعل قدامة وانما قال : « الشاعر : من شعر يشعر شعرا فهو شاعر ، والشعر المصدر . ولا يستحق الشاعر هذا الاسم حتى يأتي بما لا

(١) البرهان ص ١٤٢ .

(٢) البرهان ص ١٥٣ .

يشعر به غيره ، واذا كان انما استحق اسم الشاعر لما ذكرنا فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر وان أتى بكلام موزون مقفى » [1] وهذا الكلام يدل على فهم للشعر ومعرفة لأسسه التي لا تقوم على الوزن والقافية وحدهما وانما على تصوير الاحاسيس والمشاعر والانفعالات التي لا يقدر على تصويرها غير الشاعر المبدع .

والشعر أقسام منها القصيد وهو أحسنها واشبهها بمذاهب الشعر . والرجز وهو أخفها . والمسمط وهو ان يأتي الشاعر بخمسة أبيات على قافية ثم يأتي ببيت على خلاف تلك القافية ثم يأتي بخمسة ابيات على قافية أخرى ثم يعود فيأتي ببيت على قافية البيت الاول وكذلك الى آخر الشعر . والمزدوج وهو ما أتى على قافيتين الى آخر القصيدة واكثر ما يأتي وزنه على وزن الرجز .

ودافع ابن وهب عن الشعر وقال ان ما جاز في الكلام جاز فيه وما لم يجز في ذلك لم يجز فيه . واوضح ما ذكر فيه من أقوال قد تدل على تحريمه ، وليس الامر كذلك فقد كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسمعه ويستنشده ويثيب عليه وقال عنه : « إنَّ من الشعر لحكما » ووصف حسان بن ثابت انه جاهد معه بيده ولسانه ، والشعر الى جانب ذلك ديوان العرب ولولاه لما عرفت اكثر اخبارهم وأيامهم ومآثرهم وبطولاتهم .

وللشعراء فنون من الشعر كثيرة تجمعها في الاصل اصناف اربعة هي : المديح والهجاء والحكمة واللهو. وتتفرع عن كل صنف من ذلك فنون فيكون من المديح المراثي والافتخار والشكر واللطف في المسألة ، ويكون من الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب ،ويكون من الحكمة الامثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر والمجون .

ومما ينبغي للشاعر ان يلزمه فيما يقوله من الشعر ان لا يخرج في وصف احد ممن يرغب اليه أو يرهب منه أو يهجوه أو يمدحه أو يغازله عن المعنى الذي يليق به

(١) البرهان ص ١٦٤ .

ويشاكله ، فلا يمدح الكاتب بالشجاعة ولا الفقيه بالكتابة ولا الامير بغير حسن السياسة ولا يخاطب النساء بغير مخاطبتهن ، ولكن يمدح كل احد بصناعته وبما فيه من فضيلته ويهجوه برذيلته ومذم خليقته ويغازل النساء بما يحسن من وصفهن ومداعبتهن والشكوى اليهن فان في مفارقته هذه السبيل وسلوك غير هذه الطريق وضعا للاشياء في غير مواضعها . واذا وضعت الاشياء في غير مواضعها قصرت عن بلوغ أقصى موافعها ولذلك قال الامين لأبي نواس : اذا قُلْتَ في أبي الخصيب :

إذا لم تَزُرْ أرْضَ الخصيبِ ركابُنَا   فأيَّ فتًى بعد الخصيبِ تَزورْ

فماذا أبقيْتَ لي ، قال : قولي يا أمير المؤمنين :

إذا نحن أثنينا عليك بصالـــح   فأنت كما نُثْني وفوق الذي نُثْني
وإنْ جَرَتِ الالفاظُ يوماً بمدْحَةٍ   لغيرك انساناً فأنْتَ الذي نَعْني

قال ابن وهب : « ولقد لعمري أحسن الامين السؤال ووضعه في موضعه ، وأحسن أبو نواس الاعتذار وتلافى ما فرط منه » (١) .

ومما وضع في غير موضعه فعيب وان كان في معناه جيداً قول كُثيّر :

فقلتُ لها يا عزّ كلُّ مصيبـــــةٍ   إذا وُطّنَتْ يوما لها النفسُ ذَلَّتِ

فقالوا : لوكان هذا في الزهد كان من أشعر القول . وكذلك قول الآخر :

يَمْشينَ رَهْواً فلا الاعجاز خاذلةٌ   ولا الصدُور على الاعجاز تَتَّكِلُ

فقالوا : لو وصف بهذا النساء لكان من أحسن الوصف وأغزل الشعر .

ويحتاج الشاعر الى تعلم العروض ليكون معيارا على أقواله وميزانا على ظنه ، والنحو ليصلح به من لسانه ويقيم به إعرابه ، والنسب وأيام العرب والناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب فيذكرهما فيمن قصده بمدح أوذم ، وان يروي الشعر ليعرف مسالك الشعراء ومذاهبهم وتصرفهم فيحتذي منهاجهم ويسلك سبيلهم .

---

(١) البرهان ص ١٨٢

هذه أدوات الشاعر ومن لم يجتمع له ذلك فليس ينبغي ان يتعرض لقول الشعر فانه ما أقام على الامساك معذور فمتى تعرض لما يظهر فيه عيبه وخطؤه كان مذموما ، وقد قال الشاعر :

الشعْرُ صَعْبٌ وطويلٌ سُلَّمُــــه ... إذا ارتقى فيه الذي لا يَعْلَمُه

زلَّتْ به الى الحضيضِ قَدَمُــــه ... يُريد أنْ يُعْـرِبَه فيعجمــــه

فاذا أُكملت هذه الادوات ورأى من طبعه انقيادا لقول الشعر وسماحة به قاله وتكلفه وإلا لم يكره عليه نفسه فالقليل مما تسمح به النفس ويأتي به الطبع خير من الكثير الذي يحمل فيه عليها .

وصفات الشعر الجيد أنْ تُراعى فيه :

١ ــ صحة المقابلة .
٢ ــ حسن النظم .
٣ ــ جزالة اللفظ .
٤ ــ اعتدال الوزن .
٥ ــ اصابة التشبيه .
٦ ــ جودة التفصيل .
٧ ــ قلة التكلف .
٨ ــ المشاكلة في المطابقة .

واضداد هذه كلها معيبة تمجها الآذان وتخرج عن وصف البيـــان . فأما صحة المقابلة فمثل قول الشاعر :

أميلُ مع الذمامِ على ابن أمـــي ... وأحمل للصديقِ عـلى الشقيقِ

أفرّقُ بين معــروفي ومنّـــي ... وأجمعُ بين مــالي والحقـوقِ

فأحسن القسمة في المقابلة ومال مع ما ينبغي ان يمال معه وحمل على ما يحسُن

الحمل عليه وفرّق بين ما ينبغي ان يفرقه وجمع بين ما ينبغي ان يجمعه . وأساء الآخر المقابلة حيث قال :

أموتُ إذا ما صدَّ عني بوجهــه ويفرحُ قلبي حين يرجع للوصلِ

فجعل صد الموت فرح القلب وضد الصد بوجهه الوصل ، وهذه مقابلة قبيحة ، ولو قال :

أموت اذا ما صَدَّ عني بوجهــه وأحيا إذا مَلَّ الصدودَ وأقبلا

فجعل ضد الموت الحياة وضد الصد بالوجه الاقبال لكان مصيبا .

أما حسن النظم فكقول الشاعر :

يا أيُّها المتحلّي غَيْرَ شيمتِـــه إنَّ التخلقَ يأتي دونـه الخُلُقُ

فهذا نظم حسن جميل ، فأما قول الآخر :

أمَّ سلام أثيبي عـاشقـــاً يعلمُ اللهُ تقيـاً ربــه
إنكم في عينه من عيشــه فاعلميه يا سُليمـى حسبه

فقبيح النظم ظاهر الاضطراب مختلف غير مؤتلف .

وأما جزالة اللفظ فكقول أشجع السُّلمي :

وعلى عدوّك يا ابنَ عمِ محمــدٍ رصدانِ : ضوءُ الصبح والاظلامُ
فاذا تنبَّه رُعْتَه وإذا غفـــا سلّتْ عليه سيوفَك الأحْــلامُ

واما سخافة اللفظ وركاكته فمثل قول ابي العتاهية :

يا عتب سيدتي أما لَكِ ديـــنُ حتى متى قلبي لديك رهينُ
فأنا الصبُور لكلِ مـا حمّلْتـني وأنا الشقيُّ البـائسُ المسكينُ

واما اعتدال الوزن فكقول الشاعر :

إنما الذلفاءُ همّي فليدعني من يلومْ
أحسن الناس جميعاً حين تمشي أوْ تقومْ
أصِلُ الحبلَ لترضَى وهي للحبلِ صرومُ

فهذا الشعر ليس فيه فائق معنى ولا مثل سابق ولا تشبيه مستحسن ولا غزل مستطرف الا ان الاعتدال قد كساه جمالاً وصير له في القلوب جلالاً .

واما الاصابة في التشبيه فكقول النابغة :

فانَّك كالليلِ الذي هو مُدْركي وإن خِلْتُ أَنَّ المنتأى عنك واسعُ

ومما سلك شاعره فيه سبيل التشبيه فأساء ولم يحسن قول الآخر :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا لمسوها بالاكفّ تلين

واما جودة التفصيل فكقوله :

بيضٌ مفارقنا تَغْلي مراجلنا نأسو بأموالِنا آثارَ أيدينا

واما سهولة القول وقلة التكلف فكقول الشاعر :

خَيْرُ المذاهب في الحاجات أنْجحها وأضيقُ الأمر أدناه من الفَرَجِ

فهذا لفظ سهل قريب قد جرى صاحبه فيه على سجيته وعادته ، فاذا جئت الى قول الآخر :

وما مِثْلُه في الناس إلاّ مُملكاً أبو أمِّه حيٌّ أبوه يقارِبُه

وجدته قد تكلف تكلفاًغير خفي على سامعه فالقلوب له آبية والآذان عنه نابية .

واما المطابقة والمشاكلة فكقول الشاعر :

نعرّض للطعان إذا التقينـــــــا وجوهاً لا تُعرَّض للسبـــــابِ

وكقول الآخر في أحمد بن الخصيب :

سَمّوهُ أحمد فالاسلامُ يَحْمَـدُه والدَّهْرُ كاسمِ أبيه مُمْرِعٌ خَصِبُ

ومما ينبغي للشاعر ان يجتهد فيه ان يكون معنى كل بيت ولفظه متساويين حتى يتم المعنى بتمام اللفظ ، واذا أتى بالمعنى الذي يريده أو المعنيين في بيت واحد كان في ذلك أشعر منه اذا أتى بذلك في بيتين . وله ان يقتصد في الوصف اوالتشبيه او المدح أو الذم وله ان يبالغ وله ان يسرف حتى يناسب قوله المحال ويضاهيه ،وليس المستحسن السرف والكذب والاحالة في شيء من فنون القول الا في الشعر . ومما يزيد في حسن الشعر ويمكن له حلاوة في الصدر حسن الانشاد وحلاوة النغمة وان يكون الشاعر قد عمد الى معاني شعره فجعلها فيما يشاكلها من اللفظ فلا يكسو المعاني الجدية الفاظا هزلية فيسخفها ولا يكسو المعاني الهزلية الفاظا جدية فيستوخمها سامعها ، ولكن يعطي كل شيء من ذلك حقه ويضعه موضعه .

النثر :

واهتم ابن وهب بالنثر اهتماما كبيرا ، ولعل هذه العناية جعلت الباحثين يطلقون على كتابه اسم « نقد النثر » . والنثر عنده اربعة أقسام : الخطابة والترسل والاحتجاج والحديث ، ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه . فالخطب تستعمل في اصلاح ذات البين واطفاء نار الحرب وديات الدماء والتسديد للملك والتأكيد للعهد وفي عقد الاملاك والدعاء الى الله ، والاشادة بالمناقب ولكل ما اريد ذكره ونشره وشهرته في الناس . والترسل في نوع من هذا وفي الاحتجاج على من زاغ من أهل الاطراف وذكر الفتوح وفي الاعتذارات والمعاتبات وغير ذلك مما يجري في الرسائل والمكاتبات . والجدل والمجادلة في المذاهب والديانات وفي الحقوق والخصومات والتنصل وفي الاعتذارات . والحديث في مخاطبات الناس فيما بينهم في مجالسهم ومناقلاتهم .

والبلاغة في الجميع واحدة ، والعي فيه قريب من قريب ، إلا أنّ الخطابة

لما كانت مسموعة من قائلها ومأخوذة من لفظ مؤلفها وكان الناس جميعا يرمقونه ويتصفحون وجهه كان الخطأ فيها غير مأمون والحصر عند القيام بها مخوفاً محذورا . فاما الرسائل فالانسان في فسحة من تنقيحها واعادة النظر فيها واصلاح الخلل الواقع في شيء منها . وينطبق على الخطابة والترسل ماذكر من اوصاف الشعر الجيد .

ومن أوصاف الخطبة الجيدة ان تفتتح بالتحميد وتوشح بالقرآن وبالسائر من الامثال فان ذلك مما يزين الخطب عند مستمعيها وتعظم به الفائدة منها ، ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا يذكر الله ـ عز وجل ـ في اولها البتراء وكل خطبة لا توشح بالقرآن ولا بالامثال الشوهاء . ولا يتمثل في الخطب الطوال التي يقام بها في المحافل بشيء من الشعر فان احبَّ ان يستعمل ذلك في الخطب القصار وفي المواعظ والرسائل فليفعل الا ان تكون الرسالة الى خليفة فان محله يرتفع من التمثيل بالشعر في كتاب اليه ولا بأس بذلك في غيرها من الرسائل . وينبغي ان يكون الخطيب أو المترسل عارفا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين به .

ومن الاوصاف التي اذا كانت في الخطيب سمي سديداً ان يكون في جميع الفاظه ومعانيه جارياً على سجيته غير مستكره لطبيعته ولا متكلف ما ليس في وسعه وان لا يظن ان البلاغة انما هي في الإغراب في اللفظ والتعمق في المعنى فان اصل الفصيح من الكلام ما افصح عن المعنى والبليغ ما بلغ المراد

ومن أوصاف البلاغة السجع في موضعه وعند سماحة القول به وان يكون في بعض الكلام لا في جميعه فان السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر وان كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنًى عنه .

ومما يزيد في حسن الخطابة وجلالة موضعها جهارة الصوت فانه من أحد أوصاف الخطباء وليس ينبغي للخطيب ان يُحصر ولا يعيا ولا يغره انقياد القول في بعض الاحوال فيركب ذلك في سائر الاوقات وعلى جميع الحالات ، فان من وثق بانقياد القول له ومسامحته اياه فأتى بالبديهة ما يأتي به غيره بعد الروية فذلك

الخطيب الذي لا يعادله خطيب والاديب الذي لا يوازنه أديب . وينبغي ان لا يستعمل في الامر الكبير الكلام الفطير الذي لم يخمره التدبر والتفكير وان يكون لسانه سالما من العيوب التي تشين الالفاظ فلا يكون ألثغ ولا فأفاء ولا تمتاماً ولا ذا رتّة ولا دا حُبسة ولا ذا لفف فان ذلك مما يذهب بهاء الكلام ويهجن البلاغة وينقص حلاوة النطق .

اما الرسائل فهي مستغنية عن جهارة الصوت وسلامة اللسان من العيوب لانها بالخط تنقل فيحتاج الى ان تشاهد ويساعد حسنها حسن الخط فان ذلك يزيد في بهائها ويقربها من قلب قارئها .

وأما الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به اقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين ويستعمل في المذاهب والديانات وفي الحقوق والخصومات والتنصل في الاعتذارات ويدخل في الشعر وفي النثر . وهو قسمان : احدهما محمود ، والآخر مذموم . فاما المحمود فهو الذي يقصد به الحق ويستعمل فيه الصدق ، واما المذموم فما اريد به المماراة والغلبة وطلب الرياء والسمعة .

وحق الجدل أنْ تُبنى مقدماته بما يوافق الخصم عليه وان لم يكن في نهاية الظهور للعقل . وليس هذا سبيل البحث لان حق الباحث ان يبني مقدماته مما هو أظهر الاشياء في نفسه واثبتها في عقله لانه يطلب البرهان ويقصد لغاية التبيين والبيان وان لا يلتفت الى اقرار مخالفه . وأما أدب الجدل فان يجعل المجادل قصده الحق وبغيته الصواب، وان لا تحمله قوة ان وجدها في نفسه وصحة في تمييزه وجودة خاطره وحسن بديهته وبيان عارضته وثبات حجته ــ على ان يشرع في اثبات الشيء ونقضه ويشرع في الاحتجاج له ولضده فان ذلك مما يذهب ببهاء علمه ويطفىء نور بهجته وينسبه به أهل الدين والورع الى الالحاد وقلة الامانة . وان لا تسحره الكثرة والقلة فيما يطلبه من الحق فيقلد الاكثرين أو يريد التكبر عليهم او التكثير بهم او الترؤس عليهم بمتابعتهم . وان لا يقلد الحكم الفاضل في كل ما يأتي به اذ كان غير مأمون منه الخطأ فقد يخطىء العاقل ويصيب الجاهل . وان يخرج عن قلبه التعصب للآباء

وان يعتزل الهوى فيما يريد اصابة الحق فيه ، وان لا ينقاد لزخرفة القول وظاهر رياء الخصم . وان لا يقبل من ذي قول مصيب فيه كل ما يأتي به لموضع ذلك الصواب الواحد ولا يرد على ذي قول مخطىء فيه كل ما يأتي به لموضع ذلك الخطأ الواحد بل لا يقبل قولا الا بحجة ولا يرده الا لعلة فيكون في ذلك كالوزان الحاذق المتفقد لميزانه فان الخطأ في الرأي أعظم ضررا من الوزن . وان لا يجادل ويبحث في الاوقات التي يتغير فيها مزاجه ويخرج عن الاعتدال لأن المزاج اذا زاد على حد الاعتدال في الحرارة كان منه العجلة وقلة التوقف وعدم الصبر وسرعة الضجر ، واذا زاد في البرودة على حال الاعتدال أورث السهو والبلادة وقلة الفطنة وابطاء الفهم . وان يتجنب العجلة ويأخذ بالتثبت فان مع العجل الزلل ، وان لا يستعمل اللجاج والمحك فان العصبية تغلب على مستعملها فتبعده عن الحق وتصده عنه . وان لا يعجب برأيه وما تسول له نفسه حتى يفضي بذلك الى نصحائه ويلقيه الى اعدائه فيصدفونه عن عيوبه ويجادلونه ويقيمون الحجة عليه . وان يتجنب الكذب في قوله وخبره والضجر وقلة الصبر. وان يكون منصفا غير مكابر ، وان يجتهد في تعلم اللغة ويتمهر في العلم باقسام العبارة فيها، فانه انما يتهيأ له بلوغ ما يقتضي الجدل بلوغه من قسمة الأشياء الى ما تنقسم اليه واعطاء كل قسم منها ما يجب له والاحتراس من اشتراك الاسماء واختلاط المعاني باللغة والمعرفة بها . وان يتحرز من مغالطات المخالفين ومشبهات المموهين وان يحلم عما يسمع من الاذى والنبز ، وان لا يشغب اذا شاغبه خصمه ولا يرد عليه اذاأربى في كلامه بل يستعمل الهدوء والوقارويقصد مع ذلك لوضع الحجة في موضعها فان ذلك أغلظ على خصمه من السب وربما اراد الخصم باستعمال الشغب قطع خصمه وان يشغل خاطره عن اقامة حجته ، فاذا أعرض المجادل عن ذلك ولم يتحرك له طبعه ولم يشغل ذهنه جمع مع قهر خصمه والاستظهار بالحجة عليه ظهور حلمه ومعرفة الحضور بوقاره ووفوره ونقص خصمه وخفته . وان يتجنب الجدل في المواضع التي يكثر فيها التعصب لخصمه وان لا يستصغره ويتهاون به وان كان صغير المحل في الجدل ـ وان يصرف همته الى حفظ النكت التي تمر في كلام خصمه مما يبني منها مقدماته وينتج منها نتائجه ويصحح ذلك في نفسه ولا يشغل قلبه بتحفظ جميع كلام خصمه

فانه متى اشتغل بذلك أضاع ما هوأحوج اليه منه . وان لا يكلم خصمه وهو مقبل على غيره أويستشهد لمن حضرعلى قوله فان ذلك سوءعشرة وقلة علم بادب الجدل وظهور حاجة الى معونة من حضراليه ، وان لا يجيب قبل فراغ السائل من سؤاله ولا يبادر بالجواب قبل تدبره واستعمال الروية فيه . وان يعلم بعد هذا انه لا يعد في المجادلين الحذاق حتى يكون بحسن بديهته وجودة عارضته وحلاوة منطقه قادرا على تصوير الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق متى شرع في ذلك واقامة كل واحد منهما في مقام صاحبه .

واما الحديث فهوما يجري من الناس في مخاطباتهم ومجالسهم ومناقلاتهم وله وجوه كثيرة منها الجد والهزل والسخيف والجزل والحسن والقبيح والملحون والفصيح والخطأ والصواب والصدق والكذب والنافع والضار والحق والباطل والناقص والتام والمردود والمقبول والمهم والفضول والبليغ والعيّ . وقد تحدث ابن وهب عن هذه الوجوه ، ثم تكلم على أدب الحديث وقال ان اصله وعمدته وبهاءه وزينته اتقاء الخطأ فيه والزلل واللحن والخطل وان يكون حقاً سالماً مما يهجنه من معايب القول ، وان يقدر المحدث مقداركلامه ومقدار نشاط مستمعه فلا يحمله منه ما يضجره ويقصرشيئا ، وان لا يردد القول اذا اعجبه ، وان لا يكون نزر الكلام فينسب الى العي ولا كثير الكلام فينسب الى الهذربل يتوسط في منطقه فان خير الامور أوساطها . واذا اعجبه الكلام فليصمت واذا اعجبه الصمت فليتكلم فان البركة في مخالفة الهوى ، وان يتجنب الأيمان في حديثه فانما تحمل الرجل على اليمين احدى ثلاث خلال :

١ ــ اما مهانة يجدها في نفسه .
٢ ــ أو عي في الكلام فهو يجعل الايمان حشوا له .
٣ ــ أو تهمة ظهرت منه فهو لا يثق من الناس بتصديق الا بعد اليمين .

ولا يبتدىء كلامه الا بعد ان يروّي فيه فان الرجوع عن الصمت الى الكلام أحسن من الرجوع عن الكلام بعد الشروع فيه . وان يخزن كلامه الا عند اصابة المواضع

فانه ليس في كل حسن يحسن الصواب وانما تمام الاصابة باصابة الموقع فان اخطأه دخل على كلامه الهجنة ولم يبلغ به البغية . وان لا يحضر كلاما لم يحضره ولا يدخل بين اثنين في شيء لم يدخل فيه ولا يجيبن عن شيء لم يسأل عنه ، وان لا يجيب من خاصمه وأغضبه بجواب الغضب والشر فانه ربما ظهرت عليه عند الغضب والشر امارات تصدق عليه قول العائب له ، ولكن ليكن جوابه بالحلم والوقار فان الغلبة للحليم ، وليعلم ان جهل خصمه يبين عن فضله اذا لم يقابله . وان لا يتهاون بالكذبة تحفظ عليه في الجد والهزل فانها سريعة في ابطال ما يأتي من الحق ، واذا سئل غيره فلا يسلب الجواب منـــه واذا حُدث أنصت لمحدثه وان كان يعرف الحديث. وليدع التطاول في المجالس على أهلها بالقول فيما يعرض له من الصواب لئلا يظنوا انه يريد التكبر عليهم والوضع منهم فيعادوه . وليكن قصده بحضرة العلماء ان يعرفوا منه انه على الاستماع أحرص منه على القول ، فان نازعته نفسه الى القول بحضرتهم وهم نقاد القول وجهابذته فلا يخرجن منه اليهم الا ما كان صحيحاً جائزا وليستحي من تكذيب صاحبه في حديثه وان كذب فاراد تنبيهه على كذبه تلطف في ذلك بألطف القول فانه يجمع بذلك البقيا على مودته وقضاء حقه في التأتي لاصلاح خلقه . وليحدث الناس بما يعرفون ويُعفهم مما يكرهون تدم له بذلك موداتهم ، وليعلم ان لسانه آفة مرسلة عليه اذا اطلقه فليضبطه واذا غلب على الكلام فلا يغلب على السكوت ولا ينبغي ان يمنعه حذر المراء من حسن المجادلة ولا خوف العي من استعمال الصمت في وقته . وليعلم ان من عاب الناس وذكر مساوئهم جمع من الاثم في الغيبة التي نهى الله عنها الاستهداف لعيبهم والتعرض لسوء قولهم ، وليعلم انه ليس من علم يذكره عند غير أهله الا عادوه واستثقلوه فلا يجالس احدا بغير طريقته ولا يحدثه الا بما يستحقه فان للعلم حقين :

أحدهما : بذله لمستحقيه .
والآخر : صرفه عمن ليس من أهله .

وان لا يستعمل المزاح الا في الاحوال التي يخرج بها من حد العبوس ، ومتى زاد في المزح على انسان فاجابه بما يحرك من طبعه فلا يلومن الا نفسه ،اذ ليس من العدل

ان يغضب من شيء هو المبتدىء به وينبغي ان يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن القول .

لقد تحدث ابن وهب عن نقد الشعر والنثر وفَصَّلَ القول في الثاني وانواعه لأن النقاد لم ينصرفوا اليه ، فمعاصراه ابن طباطبا وقدامة شغلا بنقد الشعر، وكأنه أراد ان يجمع بين الفنين ليسبق غيره وليكون كتابه بداية التأليف في صناعتي الشعر والنثر . والطريف أنه لا يقتصر على وضع أسس النثر الفني فحسب وانما يضع معالم الجدل والحديث وشروط المجادل والمحدِّث ، وهو ما لا نراه بهذه الصورة الواضحة المفصلة في كتاب آخر مع ان الجاحظ تكلم على مثل هذه الموضوعات ولكن باسلوبه وطريقته ، وبذلك كان هذا الكتاب أهم مصدر قديم يحدد أصول المجادلين والمتحدثين الى جانب تحديده قواعد الشعر والخطابة والرسائل ، كما انه من الكتب الفريدة التي تحدثت عن القضايا العامة المتصلة بالولاة والقضاة والشرطة والجيش وغير ذلك مما له صلة بالاحكام السلطانية .

أبو هلال العسكري

عاش في القرن الرابع رجلان ينتسبان الى عسكر ، أولهما أبو احمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري (ـ ٣٨٢ هـ) صاحب « المصون في الادب » واستاذ أبي هلال العسكري وقيل : خاله ، وعنه نقل الكثير في كتاب الصناعتين وديوان المعاني . واذا كانت كثير من آرائه قد حفظها تلميذه فـانَّ كتابه « المصون » يلقي نوراً عليها ، فقد تحدث في مطلعه عن نقد الشعر ونقلَ عن العلماء ما في هذا الفن من صعوبة ودقة وكونه صنعة برأسها لا يقدر عليها إلاّ مَنْ صَحَّتْ طباعهم واتقدت قرائحهم وتنبهت فطنتهم وراضوا الكلام ورووا وميزوا . وليس كل شاعر بقادر على ذلك كما انه ليس كل عالم ناقد بقادر على الشعر الجيد . فالبحتري وهو شاعر حاذق مميز ناقد مهذب الالفاظ لم يكمل لنقد جميع الشعر، ولو ان نقد الشعر والمعرفة كان يدرَك بقول الشعر وبالرواية لكان من يقول الشعر من العلماء ويعرض له أُشعر الناس . وهذا الخليل بن احمد وحماد الراوية وخلف والاصمعي وسائر من يقول الشعر من العلماء ليس شعرهم بالجيد من شعر زمانهم بل في عصر كل واحد منهم

خلق كثير ليس لجماعتهم علم واحد من هؤلاء وكلهم أجود شعرا ، فقد يقول الشعر الجيد من ليس له معرفة بنقده وقد يميزه من لا يقوله . قيل لابن المقفع : « لِمَ لا تقول الشعر مع علمك به » فقال : « أنا كالمِسَنّ أشحذ ولا اقطع » . (١)
ولا بدَّ للناقد ان يحكم على بينة وان لا يطلق الاقوال جزافا فقد ذكر محمد بن القاسم بن مهرويه ان دعبلاً أشعر من أبي تمام فقيل له : بأي شيء قدمته ؟ فلم يأت بمقنع . وقرىء له من شعر أبي تمام واطلع على ما فيه من محاسن فلم يقتنع وأقام على تعصبه فقيل فيه :

يا أبا جعفرٍ أتحكُمُ في الشّعْـــــر	وما فيك آلـــةُ الحُكّـــامِ
إنَّ نقد الدينارِ إلاَّ على الصيـرفِ	صَعْبٌ فكيف نَقْدُ الكَــــلامِ
قد رأيناك ليس تَفْرقُ في الأشْعارِ	بين الأرواحِ والأجْسـامِ (٢)

فالمسألة الاولى التي عرضها أبو احمد النقد وما ينبغي له ، اما المسألة الثانيـة فالتشبيه الذي قسمه إلى أربعة أضرب : تشبيه مفرط وتشبيه معيب وتشبيه مقارب وتشبيه يحتاج الى التفسير ولا يقوم بنفسه (٣) ، وهي الاضرب التي ذكرها المبرد في الكامل . واما المسألة الثالثة فهي السرقات وأخذ المعاني .

والمؤلف في هذه المسائل وغيرها لا يعرض وجهة نظره وانما يكتفي بالنقل عن القدماء أو معاصريه ، ولذلك لا تمثل الاقوال رأيه ولكنها تمثل العصر الذي عاش فيه خير تمثيل لأنها تعرض ما كان عليه القوم في فهمهم للادب وموازينه . ويكفي ان كتاب « المصون » صان هذه الآراء التي كانت من مصادر أبي هلال وغيره من النقاد والبلاغيين .

ولأبي احمد الفضل في إيجاد بعض مصطلحات فنون البلاغة كالمماثلة ، والتذييل ، والاستطراد ، وجمع المؤتلف والمختلف ، والسلب والايجاب ، والاستثناء ، والتعطف ، وقد ذكرها الباقلاني في كتاب « إعجاز القرآن » وأبو

(١) المصون في الادب ص ٦ .
(٢) المصون ص ١٢ .
(٣) المصون ص ٥٧

هلال في « كتاب الصناعتين » ، وأرجع الدكتور شوقي ضيف هذه المصطلحات الى اصولها (١) وبذلك تكتمل الصورة ويتضح تطور النقد والبلاغة منذ ابن المعتز حتى أبي هلال . وكان المستشرق غرنباوم قد وقف امام هذه المسألة حائرا فقال : « لم نعثر على كتاب واحد بين كتاب ابن المعتز الذي ظهر في آواخر القرن الثالث وكتاب العسكري الذي ظهر في اواخر القرن الرابع ولذلك لا يمكننا ان نرصد المراحل التي مر بها هذا التطور على اننا نستطيع ان نقول انه لا بد من أن يكون هناك خط آخر للتطور لم يتح لنا اكتشافه بعد اذ اننا لا نستطيع ان نرد آراء الباقلاني الى ابن المعتز على الرغم من ان المادة التي اعتمد عليها متشابهة ، ولعلها مستقاة من ذلك المصدر الذي ما يزال مجهولا » . (٢)

وثاني العسكريين : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ـ ٣٩٥ هـ) صاحب « ديوان المعاني » الذي دلَّ على ذوقه في اختيار الشعر ، ومؤلف « كتاب الصناعتين » الذي جمع فيه ما قاله ابن المعتز في البديع الى جانب ما ذكره قدامة في نقد الشعر وأبو احمد العسكري في رسالة صناعة الشعر ، وبوَّبه تبويباً جديدا يقوم على التنظيم الدقيق والادراك العميق .

وأبو هلال من أوائل الكتاب الذين حاولوا ان يوجهوا النقد وجهة بلاغية تعتمد على التعريفات والتقسيمات مع العناية بالنصوص ، لذلك ذهب الدكتور زكي مبارك إلى أن كتاب الصناعتين كان كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد فإن مؤلفه ينتهز جميع الفرص ليعرض طرائف النثر الجيد والشعر البليغ . (٣)

وكان الدافع الى تأليفه ما رأى من تخليط الاعلام فيما راموه من اختيار الكلام وما في كتاب البيان والتبيين للجاحظ من استطراد أضاع حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة ، فاراد ان يكون كتابه مشتملا على جميع ما يحتاج اليه في صنعة الكلام دقيقا في عرض الموضوعات . وجعله عشرة ابواب مشتملة على ثلاثة وخمسين

(١) البلاغة تطور وتأريخ ص ١٤٢ وما بعدها .

(٢) دراسات في الادب العربي ص ١٠٥ .

(٣) النثر الفني ج ٢ ص ١٠٤ .

فصلا تحدث فيها عن فنون بلاغية ونقدية مختلفة . وخصص الباب التاسع للبديع وحصره في خمسة وثلاثين نوعا أولها الاستعارة والمجاز والمطابقة والتجنيس والمقابلة وصحة التقسيم وصحة التفسير والاشارة وغيرها . وختم الكتاب بالباب العاشر الذي تحدث فيه عن مقاطع الكلام ومباديه وما يحسن فيه وما لا يحسن .

حدد أبو هلال في مطلع كتابه أهداف البلاغة والدوافع التي جعلت العرب يهتمون بها ، وحصرها في :

١ ــ معرفة اعجاز القرآن ، وذلك ان الانسان اذا اغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وما شحنه به من الايجاز البديع والاختصار اللطيف ، فينبغي من هذه الجهة ان يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم .

٢ ــ معرفة جيد الكلام من رديئه ، لأن صاحب العربية اذا أخل بطلبه وفرط في التماسه عفى على جميع محاسنه وعمي سائر فضائله ، لانه اذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء ولفظ حسن وآخر قبيح وشعر نادر وآخر بارد ــ بان جهله وظهر نقصه .

٣ ــ معرفة سبل القول وطرق الكلام لان صاحب العربية اذا أراد ان ينظم قصيدة أو ينشيء رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر وخلط الجيد بالرديء واستعمل الوحشي العكر فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل .

٤ ــ معرفة اختيار الجيد من الشعر والنثر ، فاذا تخطى المؤلف هذا العلم ساء اختياره وقبحت آثاره فيه فأخذ الرديء المرذول وترك الجيد المقبول فدل على قصور فهمه وتأخر معرفته وعلمه . وقد قيل : « اختيار الرجل قطعة من عقله كما ان شعره قطعة من علمه » .

ثم بدأ كتابه في الابانة عن موضع البلاغة في اللغة وما يجري معه من تصرف لفظها والقول في الفصاحة وما يتشعب منه ، ونقل كثيرا من أقوال السابقين وقال : « البلاغة كل ما تبلّغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع

صورة مقبولة ومعرض حسن » [1] . وذكر في الفصاحة رأيين :

الاول : ان الفصاحة والبلاغة ترجعان الى معنى واحد وان اختلف اصلاهما لان كل واحد منهما هو الابانة عن المعنى والاظهار له . وعلى هذا تكون الفصاحة من قولهم : « أفصح فلان عما في نفسه » اذا اظهره .

الثاني : انهما مختلفتان . وذلك ان الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ . لان الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى . والبلاغة انما هي انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى .

وبعد ان تحدث عن البلاغة والفصاحة في ثلاثة فصول انتقل الى الموضوعات الاخرى وتكلم عليها باستفاضة ذاكراً لها امثلة كثيرة تدل على ذوقه الرفيع وفهمه للادب ، وبذلك كان كتابه زبدة الدراسات السابقة مما دفعه الى ان يقول عنه : « على ان هذا الكتاب قد جمع من فنون ما يحتاج اليه صناع الكلام ما لم أُخله من زيادة تبيين واختصار الفاظ وغير ذلك مما يزيد في قيمته ويرفع من قدره » [2] .

ومنهجه منهج المتكلمين في دراسة الادب ونقده وإن ادَّعى نفوره من مذهبهم ، قال : « وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذاهب المتكلمين وانما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب ، فلهذا لم أُطل الكلام في هذا الفصل » [3]. ولكن نزعته الادبية أضعفت الجانب الكلامي فبدا الكتاب قريبا من مذهب الكتاب والشعراء . وهذا ما ذهب اليه المرحوم أمين الخولي حينما اعتبره ممثلا لطريقة الادباء ، لانه يسوق في المقام الواحد عشرات الامثلة والشواهد من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكلام العرب ، ويعتمد في النقد على الذوق غير مكتف بالصحة العقلية والسلامة النظرية . واشار الخولي ايضا الى انه كان يجاري المتكلمين ويخدم اغراضهم ولم تخلص الطريقة الادبية من أبي هلال

---

(١) كتاب الصناعتين ص ١٠

(٢) كتاب الصناعتين ص ٤٦٣ .

(٣) كتاب الصناعتين ص ٩ .

أو لم يخلص أبو هلال للطريقة الادبية ولم ينج من تأثير المتكلمين . [1] وأخذ بهذا الرأي الدكتوران محمد مندور وبدوي طبانة ، [2] وهو رأي على جانب عظيم من الصواب .

واعتنى أبو هلال بالتنظيم وحصر الاحكام النقدية والبلاغية بعد ان كانت متفرقة في كتب السابقين . واتبع في بحثه اسلوبا تقريريا فهو يتناول التعريفات والتقسيمات ثم يشرحها ويمثل لها ويحلل بعض الأمثلة . وهذه طريقة قدامة مع فرق واضح هو اهتمام ابي هلال بالتحليل والاكثار من الشواهد الرائعة ، وبذلك استطاع ان يغطي على المنهج العقلي الذي اتخذه سبيلاً لبحثه .

ولم يقف عندما رسمه القدماء وما ذكروه من فنون بيانية ، وانما تجاوز ذلك وزاد ستة على ما أوردوه وهي : التشطير ، والمجاورة ، والتطريز ، والمضاعفة ، والاستشهاد ، والتلطف . ثم أضاف اليها المشتق قائلا : « وقد عرض لي بعد نظم هذه الانواع نوع آخر لم يذكره أحد وسميته المشتق » [3] . ويرى الدكتور ابراهيم سلامة ان هذه الانواع لم تسلم له . فالتشطير يدخل في باب الازدواج ، والاستشهاد والاحتجاج يلحق بالمذهب الكلامي اذا توسعنا في معناه بحيث يشمل الدليل الخطابي كما يشمل عبارات الفلاسفة ، والمضاعفة لا تصح ان تكون نوعا قائما بذاته . فإن تكثر المعاني يأتي من تعدد أوجه الشبه في الشيء الواحد ويأتي من التفاتات الاديب لا كثر من ناحية واحدة في وقت واحد . والتطريز يضم الى التشطير وموسيقى الجملة على العموم . والتلطف اساس الخطابة عند ارسطو ولن يكون الخطيب خطيبا حتى يستطيع ان يتكلم في الدفاع وفي الاتهام أو في الشيء وفي ضده . وانتهى الى القول بان ليس فيما زاده من هذه الصنوف البلاغية شيء يستحق ان يقال فيه

---

(1) [illegible] ص ٢٠ ـ ٢٣ ، ومناهج تجديد ص ١٦٠ ـ ١٦٢ .

(2) [illegible] ص ٣١٥ . وابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ص ١٠٦ .

(3) [illegible] ص ٤٢٩

انه جديد أو مفيد في دراسة البلاغة . [1] وأرجعها الدكتور شوقي ضيف الى المتقدمين ايضا فالتشطير مأخوذ من قول ثعلب : « أبلغ الشعر ما اعتدل شطراه وتكافأت حاشيتاه » والمجاورة قريب مما سماه قدامة المطابق وسماه ابو احمد العسكري التعطف . والاستشهاد والاحتجاج أقرب الى المذهب الكلامي بل هو أولى ان يدخل فيه . والمضاعفة تدخل في الكناية أوالاشارة والارداف والتوابع ، والتلطف ضرب من حسن التعليل وهو أقرب الى المذهب الكلامي . وانتهى الى ان التطرير هو النوع الوحيد بين هذه الانواع يمكن قبوله . [2] وحاول الدكتور بدوي طبانة ارجاعها اليه [3] . وهو مصيب في بعض ذلك . لان في الفنون التي تحدث عنها السابقون ما له صلة بما ذكره ابو هلال .

هذا ما يتصل بمنهج أبي هلال وفنون البلاغة ، أما الآراء النقدية التي ذكرها في كتاب الصناعتين فليست كلها من ابتكاره ، لأن معظمها كانِ معروفا شائعا في أوساط النقاد والأدباء ، ولكنَّ ذكره لها في كتابه والعناية بها تجعل الباحث ينسبها اليه . ومن أهم القضايا التي عرضها :

اللفظ والمعنى :

يميل أبو هلال الى اللفظ اكثر من ميله الى المعنى ، وهو متأثر في ذلك بظاهر عبارة الجاحظ التي يبدو انه لم يحسن فهمها ، ولذلك قال كما ذكر الجاحظ : « وليس الشأن في ايراد المعاني ، لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وانما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه ، وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف . وليس يطلب من المعنى الا ان يكون صوابا ، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت . ألا ترى الى قول حبيب :

---

(١) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ٢٨٨ ، ٢٩٠ .
(٢) البلاغة تطور وتأريخ ص ١٤٤ وما بعدها .
(٣) ابو هلال العسكري ص ٢١٧ وما بعدها .

مستسلمٌ لَله سائسُ أمـةٍ بذوي تجهضمها له استسلامُ (١)

فانه صواب اللفظ وليس هوبحسنٍ ولا مقبول ». (٢) ومن الدليل على ان مدار البلاغة على تحسين اللفظ ان الخطب والاشعار الرائعة ما عملت لافهام المعاني فقط لان الرديء من الالفاظ يقوم مقام الجيّدة منها في الافهام ، وإنما يدلُّ حُسْنُ الكلام ، وإحكامُ صنعتهِ ، ورونق الفاظه وجودة مطالعه وحسن مقاطعه وبديع مباديه وغريب مبانيه على فضل قائله وفهم منشئه . وأكثر هذه الأوصاف ترجع الى الالفــاظ دون المعاني ، وتوخي صـواب المعنى احسن من توخي هذه الامور في الالفاظ ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة والشاعر في القصيدة يبالغون في تجويدها ويغلون في ترتيبها ليدلوا على براعتهم وحذقهم بصناعتهم ، ولو كان الامر في المعاني لطرحوا اكثر ذلك فربحوا كداً كثيرا وأسقطوا عن أنفسهم تعباً طويلا .

ودليل آخر ان الكلام اذا كان لفظه حلواً عذبا وسلسا سهلا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد وجرى مع الرائع النادر ، كقول الشاعر :

ولمَّا قضينا من مِنًى كُلَّ حاجةٍ ومَسَّحَ بالاركانِ مَنْ هو ماسِحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المهاري رحالُنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائِحْ
أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا وسالَتْ بأعناقِ المطيّ الأباطحُ

ونعوت اللفظ التي تحدث عنها حددها عندما تحدث عن الكلام فقال : « الكلام ــ أيدك الله ــ يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخير لفظه واصابة معناه وجودة مطالعه ولين معاطفه واستواء تقاسيمه وتعادل اطرافه وتشابه اعجازه بهواديه وموافقة مآخيره لمباديه مع قلة ضروراته بل عدمها اصلاً حتى لا يكون لها في الالفاظ أثر فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه وجودة مقطعه وحسن رصفه وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه ..... فاذا الكلام قد جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة واشتمل على الرونق والطلاوة وسلم

---

(١) الجهضمة : الوثوب والغلبة .

(٢) كتاب الصناعتين ص ٥٨ .

من حيف التأليف وبعد عن سماجة التركيب وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يردّه ، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجه ، والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسي البشع وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن الى ما يوافقه وتنفر عما يضاده ويخالفه ، والعين تألف الحسن وتقذى بالقبيح ، والانف يرتاح للطيب وينفر للمنتن . والفم يلتذ بالحلو ويمج المر ، والسمع يتشوف للصواب الرائع وينزوي عن الجهير الهائل ، واليد تنعم باللين وتتأذى بالخشن والفهم يأنس من الكلام بالمعروف ويسكن إلى المألوف ويصغي إلى الصواب ويهرب من المحال وينقبض عن الوخم ويتأخر عن الجافي الغليظ ولا يقبل الكلام المضطرب الا الفهم المضطرب والروية الفاسدة »[1]. فالالفاظ ينبغي ان تكون جميلة رشيقة وان لا تكون غريبة لان الغرابة تخل بالفصاحة ، وان تكون الكلمة موضوعة مع اختها ومقرونة بلفقها فإن تنافر الالفاظ من اكبر عيوب الكلام ، وان لا يكون اللفظ وحشيا بدويا ولا مبتذلا سوقيا .

والمختار من الكلام ما كان سهلاً جزلاً ولا يشوبه شيء من كلام العامة والالفاظ الحشوية ولم يخالف فيه وجه الاستعمال . ومن الالفاظ ما يستعمل رباعيه وخماسيه دون ثلاثيه ، ومنها ما هو بخلاف ذلك فينبغي ان لا يعدل عن جهة الاستعمال فيها ، ومنها ما اذا وقع نكرة قبح موضعه ، وحسن اذا وقع معرفة .

وينبغي ان يتجنب ارتكاب الضرورات وإنْ جاءت فيها رخصة من أهل العربية فانها قبيحة تشين الكلام وتذهب بمائه ، وان يوضع كل لفظ موضعه وان ترتب الالفاظ ترتيبا صحيحا فيقدم منها ما كان يحسن تقديمه ويؤخر منها ما يحسن تأخيره ولا يقدم منها ما يكون التأخير به أحسن ولا يؤخر منها ما يكون التقديم به أليق ، وان تتجنب اعادة حروف الصلات والرباطات في موضع واحد كقول المتنبي :

ويسعدني في غَمْرة بعد غمرة   سبوحٌ لها منها عليها شواهِدُ

(١) كتاب الصناعتين ص ٥٥ ــ ٥٧

ومن عيوب الكلام تكرار الكلمة الواحدة في كلام قصير (١) . وخلاصة رأيه ان الشعر كلام منسوج ولفظ منظوم ، وأحسنه ما تلاءم نسجه ولم يسخف وحسن لفظه ولم يهجن ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفاً بغيضاً ولا السوقي من الالفاظ فيكون مهلهلاً دونا (٢) .

وتحدث عن المعاني ، ويظهر أنه لا يهمل المعنى وانما يُعْنى به كعنايته باللفظ ، ولذلك قال : « ان الكلام الفاظ تشتمل على معان تدل عليها ويعبر عنها فيحتاج صاحب البلاغة الى اصابة المعنى كحاجته الى تحسين اللفظ لان المدار بعدُ على اصابة المعنى ، ولان المعاني تحل من الكلام محل الابدان ، والالفاظ تجري معها مجرى الكسوة ومرتبة احداهما على الاخرى معروفة ... فلا يكمل لصناعة الكلام الا من يكمل لاصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال » (٣)

والمعاني على نوعين :

١ ـ ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير ان يكون له امام يقتدي به فيه أو رسوم قائمة في امثلة مماثلة يعمل عليها ، وهذا الضرب ربما يقع عليه عند الخطوب الحادثة ويتنبه له عند الامور النازلة الطارئة .

٢ ـ وضرب يحتذيه على مثال تقدم ورسم فرط .

وينبغي أن يطلب الاصابة في جميع ذلك ويتوخى فيه الصورة المقبولة والعبارة المستحسنة ولا يتكل فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره اياه ، ولايغره ابتداعه له فيساهل نفسه في تهجين صورته فيذهب حسنه ويطمس نوره ويكون فيه أقرب الى الذم منه الى الحمد .

والمعاني على وجوه :

١ ـ منها ما هو مستقيم حسن مثل : « رأيت زيدا » .

---

(١) كتاب الصناعتين ص ١٤٢ وما بعدها .

(٢) كتاب الصناعتين ص ٦٠ .

(٣) كتاب الصناعتين ص ٦٩ .

٢ ـ ومنها ما هو مستقيم قبيح مثل : « قد زيدا رأيت » وانما قبح لما فيه من فساد التقديم والتأخير .

٣ ـ ومنها ما هو مستقيم النظم وهو كذب مثل : « حملت الجبل » و « شربت ماء البحر » .

٤ ـ ومنها ما هو محال مثل : « آتيك أمس وأتيتك غدا » .

٥ ـ ومنها الغلط مثل : « ضربني زيد » والمقصود ضربت زيدا .

واذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا ـ والفاتر شر من البارد ـ كان مستهجنا ملفوظا ومذموما مردودا . ولا خير في المعاني اذا استكرهت قهرا والالفاظ اذا اجترّت قسرا ، ولا خير فيما أجيد لفظه اذا سخف معناه ، ولا في غرابة المعنى الا اذا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور المقصد .

وليس فيما يحتاج الى كد كبير فائدة لان السهل امنع جانبا وأعز مطلبا ، وهو أحسن موقعاً وأعذب مستمعاً ، ولهذا قيل : « أجود الكلام السهل الممتنع » وأجود الكلام ما يكون جزلا سهلاً لا ينغلق معناه ولا يستبهم مغزاه ولا يكون مكدودا مستكرهاً ومتوعراً متقعراً ، ويكون بريئاً من الغثاثة عارياً من الرثاثة . والكلام إدا كان لفظه غثا ومعرضه رثا كان مردوداً ولو احتوى على أجمل معنى وأنبله وأرفعه وأفضله .

وتحدث عن صور الخطأ المختلفة وذكر أمثلة لذلك كفساد التشبيه في قول امرىء القيس :

ألم تسألِ الرَّبْعَ القديمَ بعسعسا ... كأني أنادي إذ أكلمُ أخرسا

لانه لا يقال : كلمت حجرا فلم يجب ، والجيد منه قول كثيّر :

فقلت لها : يا عزّ كُلُّ مصيبة ... إذا وُطنت يوماً لها النفْسُ ذَلَّتِ

كأني أنادي صخرةً حين أعرضت ... من الصُم لو تمشي بها العُصْمُ زَلَّتِ

فشبه المرأة عند السكوت والتغافل بالصخرة .

ومن فساد المعنى قول المرقش الاصغر :

صحا قلبُه عنها على أنَّ ذِكْرَه   إذا خطرت دارت به الارضُ قائما

وكيف صحا عنها من اذا ذكرت له دارت به الارض ، والجيد في السلوقول أوس :

صحا قلبُه عن سكره وتأمَّلا   وكان بذكرى أمّ عمروٍ موكَّلا

ومن فساد المعنى قول كثير :

ألا ليتنا يا عزّ من غيرِ ريبة   بعيرانِ نرعى في خلاءٍ ونعزُبُ
كلانا به عَرٌّ فمن يرَنا يَقُلْ   على حسنها جرباء تُعدي وأجْرَبُ

فقالت له عزة : لقد أردت بي الشقاء الطويل . ومن ذلك قول جنادة :

من حبها أتمنى أنْ يُلاقيَـني   من نحو بلدتها ناعٍ فينعاها
لكي يكونَ فراقٌ لا لقاءَ له   وتضمر النفس يأساً ثمَّ تسلاها

فاذا تمنى المحب لحبيبته الموت فما عسى ان يتمنى المبغض لبغيضته .
وشتان بين هذا وبين من يقول :

ألا ليتنا عشنا جميعـاً وكان بـي   من الداء ما لا يعرف الناسُ ما بيا

فهذا أقرب الى الصواب . ولو أن جنادة كان يتمنى وصلها ولقاءها لكان قد قضى وطرا من المعنى ولم تلزمه الهجنة كما قال العباس بن الاحنف :

فان تبخلوا عني ببذلِ نوالكم   وبالوصل منكم كي أحبَّ وأحزنا
فإني بلذاتِ المُنى ونعيمهـا   أعيشُ إلى أنْ يجمعَ اللهُ بيننا

ومن المختار في ذكر المنى قول الآخر :

مُنًى إنْ تكُنْ حقاً تكُنْ أحْسَنَ المُنى   وإلاَّ فقد عِشْنا بها زَمَناً رَغْدا
أماني من ليلى حسان كأنَّما   سقتك بها ليلى على ظمأٍ بَرْدا

ومن خطأ المعنى قول الاعشى :

وما رابها من ريبةٍ غير أنَّها   رأت لمَّتي شابت وشابت لداتيا

وأي ريبة عد امرأة أعظم من الشيب . ومثله قوله :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث الا الشَّيب والصلعا

وأعجب منه قوله :

صَدَّتْ هريرةُ عنَّا ما تكلمنا   جهلاً بأم خُليد حبل من تَصِلُ

أَإِنْ رأت رجلاً أعشى أَضَرَّ به   ريْبُ الزمان ودهْرٌ خاتِلُ خَبَلُ

وأي شيء أبغض عند النساء من العشا والضريتبينه في الرجل .

والجيد في هذا الباب قول ابن المعتز :

لقد أبغضتُ نفسي في مشيبي   فكيف تحبني الخودُ الكعابُ

ومن فساد المعنى قول الشماخ :

بانت سعاد وفي العينين ملمولْ   وكان في قِصَرٍ من عهدها طولُ

كان ينبغي ان يقول : في طول من عهدها قِصر لأن العيش مع الاحبة يوصف بقصر المدة كما قال الآخر :

يطول اليومُ لا ألقاك فيـــه   وحولٌ نلتقي فيه قصيرُ (1)

وفي هذه الامثلة أبدى مقدرة عظيمة في فهم المعاني والتمييز بين المصيب والفاسد والجيد والرديء والحسن والقبيح ، وهو بذلك يعطي المعنى أهمية الى جانب اللفظ .

تأليف الكلام :

وضع ابو هلال أسساً في انشاء الكتابة ونظم الشعر هي :

١ ـ ان يخطر الاديب معانيه بباله .

---

(1) كتاب الصاعتين ص ٦٩ وما بعدها

٢ ـ ان يختار لها الالفاظ الجيده ، ويجعلها على ذكر منه ليقرب عليه تناولها ولا يتعبه تطلبها .

٣ ـ ان يبدأ بالكتابة في شباب نشاطه ، فاذا غشيه الفتور وتخوّنه الملال امسك فان الكثير مع الملال قليل والخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء فاذا أكثر عليها نضب ماؤها وقل غناؤها .

٤ ـ ان تجري مع الكلام معارضة فاذا مر الاديب بلفظ حسن أخذ برقبته أو معنى بديع تعلق بذيله .

٥ ـ ان يحذر سبق الكلام فان سبقه تعب في تتبعه ونصب في تطلبه .[١]

وهذا الكلام يذكر بصحيفة بشر بن المعتمر ، وقد أثبت أبو هلال نصها بعد ذلك ، ومعناه انه اتبع خطاه وسار على هداه .

وتحدَّث عن الرسائل والخطب وذكر أنهما متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الالفاظ والفواصل فألفاظ الخطباء تشبه الفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل . والخطابة والكتابة مختصَّتان بأمر الدين والسلطان ولا يقع الشعر في شيء من هذه الاشياء ولكن له مواضع لا ينفع فيها غيره من الخطب والرسائل وان كان اكثره قد بني على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة . ومن ميزته النظم الذي به زنة الالفاظ وتمام حسنها وهو على الافواه اكثر دورانا وأشد تأثيرا على النفوس واعظم فائدة في حفظ اللغة ومعرفة الانساب والايام ، فهو ديوان العرب وخزانة حكمتها . وهذا الكلام قريب مما ذكره ابن وهب حينما تحدث عن الخطب والرسائل والاغراض التي يهدف اليها الخطيب والمترسل .

نظم الشعر :

يحتاج نظم الشعر الى :

---

(١) كتاب الصناعتين ص ١٣٣

١ ـ احضار المعاني .

٢ ـ اختيار الوزن الذي يتأتى فيه إيرادها .

٣ ـ احتيار القافية التي يحتملها لأنّ من المعاني ما يمكن نظمه في قافية دون أخرى أو أن تكون قافية ما أقرب طريقاً وأيسر كلفة .

وقد أوضح هذه الامور الثلاثة بقوله : « واذا اردت ان تعمل شعرا فاحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك وأخطرها على قلبك واطلب لها وزنا يتأتى فيه ايرادها وقافية يحتملها ، فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية ولا تتمكن منه في أخرى أو تكون هذه أقرب طريقا وأيسر كلفة منه في تلك ، ولأن تعلو الكلام فتأخذه من فوق فيجيء سلساً سهلا ذا طلاوة ورونق خير من ان يعلوك فيجيء كزا فجا ومتعمدا جلفا » [1] . فسبيل نظم الشعر هذه الامور الثلاثة ، وضرب امثلة على اختيار القافية بما فعله النابغة حين قال :

واحْكُمْ كحكْمِ فتاةِ الحيّ إذْ نَظَرَتْ	إلى حمامٍ سراعٍ وارِدِ الثَّمَدِ
يحفه جانبا نيق وتتبعــــه	مِثْلَ الزجاجة لم تكْحل من الرَّمدِ
قالتْ : ألا ليتما هذا الحَمامُ لنــا	إلى حمامتنا أو نصفُه فَقِـدِ
فكمّلت مائةً فيها حمامتهـــا	وأسرعت حسبة في ذلك العددِ
فحسَّبوه فألفوه كما حَسِبَتْ	تِسْعاً وتسعينَ لم ينقص ولم يَزِدِ

فلما احتاج الى ان يذكر العدد والزيادة والثمد بنى كلامه على قافية الدال فسهل عليه طريقه واطرد سبيله . ومثل ذلك ما أتاه البحتري في قصيدته التي مطلعها :

هاج الخيال لنا ذكرى إذا طافا	وافى يخادعنا والصبح قد وافى

وكان قد احتاج إلى ذكر الآلاف والإسعاف والأضعاف والإسرافِ وترك الاقتصار على الإنصاف فجعل القصيدة فائية فاستوى له مراده وقرب عليه مرامه ، وهو قوله :

قضيت عني ابن بسطام صنيعته	عندي وضاعفت ما أولاه أضعافا
وكان معروفُه قصداً إليّ وما	جازيته عنه تبذيراً وإسرافــا

(١) كتاب الصناعتين ص ١٣٩

مثون عينا توليت الثوابَ بها حتى انثنت لأبي العباس آلافا
قد كان يكفيه مما قدَّمت يدُه وما يَزيدُ على الآحاد أنصافا

وتساءل الدكتور أحمد أحمد بدوي قائلاً : « وإذا كان من الصحيح ان منتج الادب يفكر في المعاني والعبارات المؤدية لها فان تفكير المنتج في الوزن والقافية مجال للشك والتساؤل . فهل الاديب حقاً يختار وزنه وقافيته ، أو الوزن والقافية يردان اليه في الوقت الذي يفكر فيه ، بمعاني قصيدته ، » (١) وهذا صحيح لان الشاعر لا يضع امامه القافية والوزن وانما تفرض الفكرة والغـرض الاوزان والقوافي المناسبة والمعبرة عن المعنى أحسن تعبير . وبعد ان ينتهي الشاعر من قصيدته يعيد النظر فيها ويهذبها وينقحها ويلقي الغث من أبياتها ويقتصر على ما حسن وفخم بابدال حرف منها بآخر اجود منه حتى تستوي أجزاؤها وتتضارع هواديها واعجازها . وكان هذا دأب جماعة من حذاق الشعر كزهير بن أبي سلمى في العصر الجاهلي وابي نواس والبحتري في العصر العباسي ، لان تخير الالفاظ وابدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام وهو من أحسن نعوته وأزين صفاتـــه . قال أبو هلال : « فان امكن مع ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج كان ذلك أحسن له وأدعى للقلوب اليه ، وان اتفق له ان يكون موقعه في الاطناب والايجاز أليق بموقعه وأحق بالمقام والحال كان جامعا للحسن بارعا في الفضل وان بلغ مع ذلك ان تكون موارده تنبيك عن مصادره وأوله يكشف قناع آخره كان قد جمع نهاية الحسن وبلغ أعلى مراتب التمام » (٢).

تلاؤم الشعر :

وتكلم على ترابط الكلمات وترابط الابيات وذكر أنَّ أبا احمد العسكري قال : كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الادب نختلف الى مدرك نتعلم منه علم الشعر فقال لنا يوما : اذا وضعتم الكلمة مع لفقها كنتم شعراء . ثم

---

(١) أسس النقد الادبي عند العرب ص ٥٨ .
(٢) كتاب الصناعتين ص ١٤١ .

قال : « أجيزوا هذا البيت :

ألا إنَّما الدنيا متاعُ غرورٍ

فأجازه كل واحد من الجماعة بشيء فلم يرضه فقلت : « وإنْ عَظُمَتْ في أنْفُسٍ وصدورٍ» ، فقال : « هذا هو الجيد المختار » (١) .

وذكر أبو هلال امثلة للشعر المنسجم وللشعر غير المشاكل ، وهي الامثلة التي ذكرها ابن طباطبا العلوي حينما تحدث عن عدم وضع الشيء مع لفقه من اشعار المتقدمين كبيت طرفة : « ولست بحلال ...... » ، وبيتي امرىء القيس : « كأني لم اركب جوادا ..... » وأبيات الفرزدق وابن هرمة التي لم يتلاءم فيها التشبيه .

فنون الشعر :

وكما تحدث قدامة عن فنون الشعر تكلم عليها أبو هلال متبعاً منهجه ورأيه فيها . والفنون التي تحدث عنها :

١ ـ المديح : ومن محاسنه ان يكون بالفضائل النفسية التي قررها قدامة وهي : العقل والعفة والعدل والشجاعة لا باوصاف الجسم من الحسن والبهاء والزينة ، ولذلك غضب عبد الملك بن مروان حينما مدحه ابن قيس الرقيات بقوله :

يأتلقُ التاجُ فوق مَفْرِقِهِ على جبينٍ كأنَّه الذَّهَبُ

بينما مدح مصعب بن الزبير بقوله :

إنّما مُصْعَبٌ شِهابٌ من اللّهِ تَجَلَّتْ عن وجهه الظَّلمـــاءُ

٢ ـ الهجاء : والمختار منه ان يكون بسلب الصفات المستحسنة التي تختصها النفس ، والاختيار ان ينسب المهجو الى اللؤم والبخل والشره ومـا أشبه ذلك ، وليس بالمختار ان ينسب الى قبح الوجه وصغر الحجم وضؤولة الجسم .

(١) كتاب الصناعتين ص ١٤٢

٣ ـ الوصف : وأجوده ما استوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصوره فيرى نصب العين .

٤ ـ التشبيب : وينبغي ان يكون دالا على شدة الصبابة وافراط الوجد والتهالك في الصبوة ويكون بريئا من دلائل الخشونة والجلادة وامارات الاباء والعز. ومن امثلة ذلك قول أبي الشيص :

وَقفَ الهوى بي حيثُ أنت فليس لي مُتَــأخّرٌ عنـه ولا مُتَقَـدَّم
أَجِدُ الملامةَ في هواك لذيـذةً حباً لذكرك فليلمني اللُّـومُ
أشبهت أعدائي فصرت أُحبهم إذْ كان حظي منك حظي مِنْهُم
وأهنتني فأهنْت نفسي صاغراً ما من يهون عليك ممن أُكْرِمُ

وينبغي ان يكون دالا على الحنين والتحسر وشدة الاسف كقول الشاعر :

وليست عشياتُ الحمى برواجعٍ اليك ولكنْ خلِّ عينيك تَدْمعا
وأذكُر أيامَ الحِمى ثم أنثـني على كبدي من خشيةٍ أنْ تَصَدَّعا

ويستجاد ايضا اذا تضمن ذكر التشوق والتذكر لمعاهد الاحبة بهبوب الرياح ولمع البروق وما يجري مجراهما من ذكر الديار والآثار ، وينبغي ان يظهر الشاعر الرغبة في الحب وان لا يظهر التبرم به كأبي صخر حيث يقول :

فيا حبَّها زِدني جَوى كُلَّ ليلةٍ ويا سلوةَ الأيامِ موْعِدُكِ الحَشْرُ

وينبغي ان يكون في النسيب دليل التدله والتحير .

هذه هي أغراض الشعر عند أبي هلال وسبب اقتصاره على اربعة ان الاخرى تدخل فيها ، قال : « ولما كانت اغراض الشعراء كثيرة ومعانيهم متشبعة جمة لا يبلغها الاحصاء كان من الوجه ان نذكر ما هو اكثر استعمالا وأطول مدارسة له وهو :

المدح والهجاء والوصف والنسيب والمراثي والفخر . وقد ذكرت قبل هذا المديح والهجاء وما ينبغي استعماله فيهما ثم ذكرت الآن الوصف والنسيب وتركت المراثي

والفخر لانهما داخلان في المديح ، وذلك ان الفخر هو مدحك نفسك بالطهارة والعفاف والحلم والعلم والحسب وما يجري مجرى ذلك . والمرثية مديح الميت ، والفرق بينهما وبين المديح ان تقول كان كذا وكذا ، وتقول في المديح هو كذا وأنت كذا . فينبغي ان تتوخى في المرثية ما تتوخى في المديح الا انك اذا اردت أن تذكر الميت بالجود والشجاعة تقول : مات الجود وهلكت الشجاعة ولا تقول : كان فلان جوادا وشجاعا فان ذلك بارد غيرمستحسن ، وما كان الميت يكده في حياته فينبغي ان لا يذكر انه يبكي عليه مثل الخيل والابل وما يجري مجراها وانما يذكر اغتباطهم بموته . وقد احسنت الخنساء حيث تقول :

فَقَدْ فَقَدَتْكَ طلقةُ واستراحَتْ فليت الخيلَ فارسُها يراهـــا

بل يوصف بالبكاء عليه من كان يحسن في حياته اليه كما قال الغنوي :

ليبكك شيخٌ لم يجد من يُعينه وطاوي الحشا نائي المزار غريب

فهذه جملة اذا تدبرها صانع الكلام استغنى بها عن غيرها » (١)

السرقات :

لم يسمها بهذا الاسم الذي شاع في كتب البلاغة والنقد وانما سماها الاخذ وقسمه الى حسن وقبيح . وعقد لهذه القضية الباب السادس من الصناعتين وتحدث عن تداول المعاني وانه ليس لاحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن ان يكسوها الفاظا من عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم ويوردوها في غير حليتها الاولى ويزيدوهـــا في حسن تأليفها وجودة تركيبها . والمعاني مشتركة بين العقلاء فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي وانما تتفاضل الناس في الالفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها . وقد يقع للمتأخر معنى سبقه اليه المتقدم من غير ان يلم به ولكن كما وقع للأول وقع للآخر . قال : « وهذا أمر عرفته من نفسي فلست أمتري فيه وذلك

(١) كتاب الصناعتين ص ١٣٢ .

اني عملت شيئا في صفه النساء : « سفرن بدوراً وانتقبن أهلّةً » ، وظننت اني سبقت الى جمع هذين التشبيهين في نصف بيت الى ان وجدته بعينه لبعض البغداديين فكثر تعجبي وعزمت على ان لا أحكم على المتأخر بالسرق من المتقدم حكما حتما » [1]

ولا عيب في أخذ المعنى لان المعاني متداولة بين الناس وانما العيب اذا أخذ بلفظه كله أو أخذ فأفسده وقصر فيه عمن تقدمه .

ومن اسباب اخفاء السرقة أن يأخذ معنى من نظم فيورده في نثر أو من نثر فيورده في نظم أو ينقل المعنى المستعمل في صفة خمر فيجعله في مديح أو في مديح فينقله الى وصف . فمن أخفى دبيبه الى المعنى وستره غاية الستر أبو نواس في قوله :

أعطتك ريحانَها العقــارُ   وحــان من ليلك انسفــار

ان كان قد أخذه من قول الاعشى فقد اخفاه غاية الاخفاء ، وقول الاعشى :

وسبيئة مما تعتق بابــلٌ   كدمِ الذبيح سلبتُها جريـالهـا[2]

وممن نقل المعنى من صفة الى أخرى البحتري فانه قال في المتوكل :

ولو انَّ مشتاقاً تكلَّف غيرَ مـا   في وسعه لسعى اليك المِنْبَـرُ

أخذه من العرجي في صفة نساء :

لو كان حيًّا قبلهن ظعائنــا   حيّا الحطيم وجوههن وزمــزم

ومما فيه زيادة قول ابي تمام .

وأنجدتم من بعدِ إتهامِ دارِكم   فيـا دَمْعُ أنجدني على ساكني نَجْدِ

على قول الأعرابي :

ومستنجدٍ للحزن دمعاً كأنــه   على الخَدّ مما ليس برقأُ حائِرُ

(١) كتاب الصناعتين ص ١٩٦
(٢) السبيئة الخمر . جريالها : لونها .

بقوله : « انجدني على ساكني نجد » .

هذا هوحسن الاخذ وذلك ان يأخذ الاديب المعنى ويكسوه لفظا جديداً أجود من لفظه الاول أوينقله الى معنى آخر أويزيد فيه . أما قبح الاخذ فهوان يعمد الى المعنى فيتناوله بلفظه كله أو اكثره أو يخرجه في معرض مسنهجن . ومثال الاخذ لفظا ومعنى قول امرىء القيس :

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيهم　　يقولون لا تهلك أَسًى وتَجَمَّلِ

وقول طرفة :

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيهم　　يقولون لا تهلك أسًى وتَجَلَّدِ

ومثال ما أخرجه بغيضا متكلفا قول ابن طباطبا :

فيا لائمي دعني أغال بقيمتي　　فقيمةُ كلِ الناس ما يحسنونـــه

أخذه من قول الامام علي ــ رضى الله عنه ــ « قيمة كل امرىء ما يحسنه » ومثال التقصير قول البحتري :

قَوم ترى أرماحهم يومَ الوغى　　مشغوفةً بمـــواطن الكتمانِ

أخذه من قول عمرو بن معدي كرب :

والضاربينَ بكلِ أبيضَ مرهفٍ　　والطاعنينَ مجامعَ الأضغـــانِ

فقوله « مجامع الاضغان » أجود من قول البحتري « مواطن الكتمان » لانهم انما يطاعنون من أجل أضغانهم فاذا وقع الطعن في موضع الضغن فذلك غاية المراد .

ومما له صلة بهذا الموضوع حل المنظوم وهو أربعة أضرب :

١ ــ ضرب منها يكون بادخال لفظة بين الفاظه .

٢ ــ وضرب ينحل بتأخير لفظة منه وتقديم اخرى فيحسن محلوله ويستقيم .

٣ ــ وضرب منه ينحل على هذا الوجه ولا يحسن ولا يستقيم .

٤ ــ وضرب تكسو ما تحله من المعاني الفاظا من عندك ، وهذا أرفـــع

الدرجات . (١)

ومن هذا ايضا التضمين وهو استعارة العبارات والابيات والاشطر . وهو حسن ولا يعد سرقة أوأخذا بل يسمى تضمينا . (٢)

لقد كانت دراسته للسرقات واسعة وان كانت اسسه وقواعده مما استقر في كتب معاصريه كالآمدي والقاضي الجرجاني . ولكنه امتاز عنهم بالاستقصاء وتعرضه للسرقات النثرية . وقد أشار إلى جهوده فيها بقوله : « وقد أتيت في هذا الباب على الكفاية ، ولا أعلم أحدا ممن صنف في سرق الشعر فمثل بين قـــول المبتدىء وقول التالي وبين فضل الاول على الآخر والآخر على الاول غيري ، وانما كانت العلماء قبلي ينبهون على مواضع السرق فقط » (٣)

هذه أهم القضايا النقدية التي تحدث عنها أبو هلال الى جانب آرائه البلاغية ، وقد وفق في عرضها لانه كان أديبا يطرب للكلمة العذبة ويهتز للمعنى البديع ، ولذلك جاء كتاب الصناعتين حافلا بالنظرات الصائبة والالتفاتات الدقيقة والتحليل الرائع والنصوص البليغة فحقـق ما قاله في أول الكتاب من ان الغرض ليس سلوك مذهب المتكلمين وانما السير على طريقة صناع الكلام .

وبذلك كان كتاب الصناعتين زبدة بحوث البلاغة والنقد وان لم يكن جديدا كل الجدة ، لانَّ العمدة ليست في الآراء الجديدة واختراع الفنون فحسب وانما في العرض والتنسيق والشرح والتحليل ايضا . ومن هنا فالكتاب ذو قيمة عظيمة في دراسة البلاغة والنقد ، وهو من أَجَلِّ كتب القرن الرابع تنظيماً وتهذيبا .

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٢١٦ .
(٢) كتاب الصناعتين ص ٣٦ .
(٣) كتاب الصناعتين ص ٢٣٧ .

النَّقْدُ والإعْجَاز

الاتِّجَاه الثَّاني

مسألة الاعجاز

نزل القرآن الكريم فكان حجة بلاغية كبرى ومعجزة أدبية عظمى وقف العرب أمامها مبهورين لا يعرفون لذلك سببا ولا يستطيعون لتأثيره ردّا . ولم يكن إزاء هذه المعجزة إلاّ ان يرجعوا الى أنفسهم لعلهم يجدون مخرجا ، ولكن الحجة أعيتهم ووقفت ألسنتهم واحتبست اصواتهم وهم يستمعون الى النبي العظيم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبلغ الناس قوله تعالى : « وإنْ كنتم في ريبٍ مما نزّلنا على عَبْدِنا فاتوا بسورةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شهداءَكم من دونِ اللهِ إنْ كنتم صادقين . فان لم تَفْعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النارَ التي وَقودُها النَّاسُ والحجارةُ أُعِدَّتْ للكافرينَ » (١) وقوله تعالى : « أم يقولون افتراه ، قُلْ فاتُوا بعَشْرِ سورٍ مثلِه مُفْتَرَيَاتٍ وادْعُوا مَنِ استطعتُمْ من دونِ اللهِ إنْ كنتم صادقينَ . فان لم يَسْتَجيبوا لكم فاعْلَموا أنَّما أُنْزِلَ بعلم اللهِ وأن لا إلهَ إلاّ هو فهل أنتم مُسْلِمونَ » (٢) وقوله : « قُل لَئِنِ اجتمعتِ الانْسُ والجِنُ على أن يأتوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثْلِه ولوكان بعضُهُم لبعضٍ ظهيرا » (٣)

وعجزوا عن أن يأتوا بمثل هذا الكتاب وهم أصحاب لسن وفصاحة فقالوا : « ماهذا إلاّ سِحْرٌ مُفْتَرَى وما سَمِعنا بهذا في آبائِنا الاوَّلينَ » (٤) وأخذوا يفرون من سماعه خوفا من ان يؤثر في نفوسهم ويهديهم الى سواء السبيل كما هدى من قبلُ طليعة المسلمين ، وصاروا يحولون دون الاستماع اليه لئلا تلين القلوب . في سيرة

(١) سورة البقرة ، الآيتان ٢٣ ، ٢٤

(٢) سورة هود ، الآيتان ١٣ ، ١٤

(٣) سورة الاسراء ، الآية ٨٨

(٤) سورة القصص ، الآية ٣٦

ابن هشام ان الطفيل بن عمرو الدوسي قدم مكة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بها فمشى اليه رجال قريش وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً ففالوا له : « يا طفيل انك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين اظهرنا قد اعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت امرنا . وانما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين زوجه وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن مه شيئا » قال : « فوالله مازالوا بي حتى اجمعت ان لا اسمع منه شيئا ولا أكلمه حتى حشوت في أذني حين غدوت الى المسجد كُرْسُفاً[1] فرقا من ان يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن اسمعه . فغدوت الى المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قائم يصلي عند الكعبة ، فقمت منه قريبا فأبى الله الا ان يسمعني بعض قوله . فسمعت كلاما حسنا فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله اني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح فما يمنعني ان اسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذي يأتي حسنا قبلته وان كان قبيحا تركته » . ومكث الطفيل جتى انصرف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى بيته فاتبعه حتى اذا دخل بيته دخل عليه وقال : « يامحمد ، ان قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، للذي قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفونني امرك حتى سددت أذني بكُرْسُفٍ لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله الا أن يسمعني قولك فسمعته قولا حسنا فاعرض عليّ أمرك » . وعرض الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الاسلام عليه وتلا القرآن فاسلم ، قال : « فلا والله ما سمعت قولا قط احسن منه ولا أمرا أعدل منه فأسلمت وشهدت شهادة الحق » [2]

وقال الوليد بن المغيرة وقد سمع النبي (ص) يتلو آيات القرآن : « واللهِ إنَّ لقوله لحلاوةً ، وإنّ أصله لعذق ، وإنَّ فرعه لجناة » [3]

وشغل الناس بالقرآن بعد ان انتشر الاسلام واخذوا يتدارسونه ويوضحون معانيه ويتحدثون عن الفاظه وتراكيبه ومافيه من فنون وقف العرب امامها

(١) الكرسف : القطن
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٢
(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٠

مبهورين . وكانت البلاغة من العلوم التي أولوها عناية كبيرة وجعلوها « أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ ـ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه » لان « الانسان اذا اغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وما شحنه به من الايجاز البديع » (١) وذهبوا ابعد من ذلك فقال عمرو بن عبيد عن البلاغة انها « ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار وما بصرك بمواقع رشدك وعواقب غيك » (٢)

وكان تأثير القرآن واضحاً في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية والنقدية وكانت آياته البينات الشاهد البلاغي الرفيع كما كان ما فيها من روعة وجمال وتأثير مدعاة الى التأليف في غريبه ومعانيه وأسراره ومجازه فألف ابو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (٢٠٧ هـ) كتاب « معاني القرآن » وعني بالتراكيب اللغوية والاعراب والاساليب العربية الرفيعة . وقد لاحظ النسق الصوتي في كتاب الله وتتبعه وقال انه يعدل عن بعض الصيغ مراعاة لذلك ، والنظم القرآني يختار مع ما يتفق والمقاطع او الفواصل او رؤوس الآيات وينسجم مع النسق الموسيقى العام في الايات (٣) . ووضع أبو عبيدة مُعَمَّر بن المثنّى (ـ ٢٠٨ هـ) كتاب « مجاز القرآن » من أجل مسألة تتصل بالتشبيه وكون المشبه به معلوما او مجهولا في قوله تعالى : « طَلْعُها كأنَّه رؤوس الشياطين » وقول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفيُّ مضاجعـي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغْوالِ

وعني فيه بغريب القرآن ومجازه أي ما يعبر به عن الآية وقارن بين كلام العرب وعرض لما فيه من فنون بيانية كالتشبيه والاستعارة والتقديم والتأخير والحذف والذكر .

وكان لمسألة الاعجاز أثر كبير في تطور البلاغة والنقد ، وكان المتكلمون أول من بحثوا في إعجازه وبلاغته فقالت المعتزلة ـ إلاّ النَّظّام وهشاماً الفوطي وعباد

(١) كتاب الصناعتين ص ١

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٤ ، والعقد الفريد ج ١ ص ٢٨٥

(٣) اثر القرآن في تطور النقد العربي ص ٦٣

ابن سليمان ـ : « تأليف القرآن ونظمه معجز محال وقوعه منهم كاستحالة احياء الموتى منهم وانه علم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال النظام : الآية والاعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز ان يقدر عليه العباد لولا ان الله منعهم بمنع وعجز احدثهما فيهم . وقال هشام وعباد : لا نقول ان شيئا من الاعراض يدل على الله سبحانه وتعالى ولا نقول ايضا ان عرضا يدل على نبوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يجعلا القرآن علما للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزعما أنَّ القرآن اعراض » (1) فللمعتزلة في إعجاز القرآن رأيان :

الاول : إنّه معجز بنظمه .

والاخر : إنّه معجز بالصَّرفة .

وتبنّى الجاحظ (ـ ٢٥٥ هـ) هذين الرأيين فقال إنّ إعجاز كتاب الله بنظمه وتأليفه ، وبالصَّرْفة ، ومن أجل الرأي الاول ألّفَ كتابه « نظم القرآن » ليبين هذه الفكرة ويبرزها ولكن الكتاب لم يصل الينا لنعرف منهجه وآراءه ، قال الجاحظ عنه : « ولي كتاب جمعت فيه آياً من القرآن لتعرف بها فصل ما بين الايجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فاذا قرأتها رأيت فضلها في الايجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالالفاظ القليلة على الذي كتبته لك في باب الإيجاز وترك الفضول » (2) وذهب الدكتور محمد زغلول سلام إلى ان الطابع الغالب على الكتاب هو الحِجاج الديني وكذلك الشأن فيما ورد من قوله في تفسير الآيات في كتبه التي بين أيدينا . (3)

وفي كتب الجاحظ التي وصلت دراسات للفظ القرآني وصوره البيانية ونظمه وموسيقاه ، وهي تدل على انه لم يقف عند رأي المعتزلة واستاذه وانما ذهب الى ان القرآن معجز بنظمه وبلاغته التي لا يرقى اليها أحد .

---

(1) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦

(2) الحيوان ج ٣ ص ٨٦

(3) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص ٨٠

وألّف ابن قتيبة (ـ ٢٧٦ هـ) كتاب « تأويل مشكل القرآن » وقد أولى البلاغة عناية كبيرة لانه صنّفه للرد على الملحدين الذين يطعنون على القرآن الكريم ويقولون ان فيه تناقضا وفسادا في النظم واضطرابا في الاعراب ، وهو طعن يرجع الى جهلهم باساليب العرب ، وذكر في مقدمته ان كتاب الله معجز بتأليفه وعجيب نظمه ، قال : « وقطع منه بمعجز التأليف اطماع الكائدين وابانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين وجعله متلوّا لا يمل على طول التلاوة ومسموعا لا تمجه الاذان وغضّا لا يخلق على كثرة الرد وعجيبا لا تنقضي عجائبه ومفيدا لا تنقطع فوائده » (١)

واستمر التأليف في إعجاز القرآن واختلفت وجهات النظر وتشعبت سبل القول ، لان الوصول الى ذلك صعب وتحديد البلاغة في القرآن أصعب ، قال الخطابي : « ولذلك صاروا إذا سُئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن الفائقة في وصفها سائر البلاغات وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة قالوا : انه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم منه مباينة القرآن غيره من الكلام وانما يعرفه العالمون منه عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده ، وأحالوا على سائر اجناس الكلام الذي يقع فيه التفاضل فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ويتميز في افهام قبيل الفاضل من المفضول منه . قالوا : وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر اثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به .

قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع وهشاشة في النفس لا يوجد مثلهما لغيره منه والكلامان معا فصيحان ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة » . (٢) ولم يثنهم ذلك عن عزمهم ومضوا يتلمسون بلاغة القرآن ويبينون إعجازه فكانت دراساتهم أحسن مصدر للبلاغة وأجل مورد للنقد .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٣ .
(٢) بيان اعجاز القرآن ـ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص ٢٢

دراسات قرآنية

أثارت مسألة الاعجاز المؤلفين فوضعوا الكتب يتحدثون عن بلاغة القرآن الكريم ويبينون وجه الاعجازفيه ، وممن شهد أوائل القرن الرابع أبوعبد الله محمد ابن يزيد الواسطي (ـ ٣٠٦ هـ) الذي ألّف كتاباً في هذه المسألة سمّاه « إعجاز القرآن في نَظْمِه وتأليفه » . ولا نعرف الفكرة التي بنى عليها كتابه والموضوعات التي عالجها لانه لم يصل الينا . ويبدو من اهتمام عبد القاهر الجرجاني به وشرحه مرتين انه كان على جانب عظيم من الاهمية .

أما أهم مؤلفي كتب الاعجاز في القرن الرابع فهم : الرُمَّاني والخَطَّابي والباقلاني والقاضيْ عبد الجبار .

الرماني :

ألّف ابوالحسن علي بن عيسى الرماني (٣٨٦ هـ) رسالة « النكت في إعجاز القرآن » وذكر أنَّ وجوه إعجازالقرآن تظهر من سبع جهات :

١) ترك المعارضة مع توفرالدواعي وشدة الحاجة .

٢) التحدي للكافة .

٣) الصَّرْفَة .

٤) البلاغة .

٥) الاخبارالصادقة عن الامور المستقبلة .

٦) نقض العادة .

٧) قياسه بكل معجزة .

والبلاغة على ثلاث طبقات : منها ما هو في أعلى طبقة ومنها ما هو في أدنى طبقة ،

ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن . وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس . وليست البلاغة إفهام المعنى لانه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عييّ ، وليست بتحقيق اللفظ على المعنى لأنّه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافـر متكلف وإنما هي : « إيصال المعنى الى القلب في أحسن صورة من اللفظ » (١) وأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن .

والبلاغة على عشرة أقسام : الايجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان . ولعل بحثه للايجاز من أحسن الفصول التي عقدها فقد فَصَّلَ القول فيه تفصيلا وقال عنه : « الايجاز تقليل الكلام من غير اخلال بالمعنى ، واذا كان المعنى يمكن ان يعبر عنه بالفاظ كثيرة ويمكن ان يعبر عنه بالفاظ قليلة فالالفاظ القليلة الايجاز» (٢) وهو على وجهين : حذف وقصر ، فالحذف اسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال او فحوى الكلام ، والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى غير حذف . وميزة الايجاز بالحذف وبلاغته ان النفس تذهب فيه كـل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان .

وتحدث عن الفنون الاخرى بهذا الاسلوب أي انه كان يعرِّف الفن ثم يقسمه ويذكر أجزاءه ويمثل له بكلام الله تعالى وأشعار العرب . فمثلا قال في تعريف الاستعارة : « الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للابانة » (٣) وفرَّق بينها وبين التشبيه وقال ان ما كان من التشبيه بأداة التشبيه في الكلام فهو على اصله لم يغير عنه في الاستعمال ، وليس كذلك الاستعارة لان مخرج الاستعارة مخرج ما العبارة ليست في أصل اللغة . وكل استعارة لا بد فيها من أشياء : مستعار ومستعار له ومستعار منه ، وكل استعارة لا بد لها من حقيقة .

(١) النكت في اعجاز القرآن ـ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص ٦٩

(٢) المصدر السابق ص ٧٠

(٣) المصدر السابق ص ٧٩

ولا تخرج الاستعارة في كتب البلاعيين عن هذه الاصول التي وضعها الرماني وكانت دراسته للاقسام العشرة بداية الاخذ بالتعريفات المنطقية والتقسيمات الدقيقة التي كانت سمة الكتب بعده .

والبيان هو الاحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره في الادراك [1] وهو أربعة أقسام : كلام وحال واشارة وعلامة ، وهذا ما ذكره الجاحظ حينما تحدث عن دلالات الكلام . وهو على وجهين :

الاول : كلام يظهر به تميز الشيء من غيره فهو بيان .

الثاني : كلام لا يظهر به تميز الشيء فليس ببيان ، كالكلام المخلط والمحال الذي لا يفهم به معنى .

وحسن البيان عند الرماني على مراتب فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبّل البرد وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة . ودلالة الاسماء والصفات متناهية فاما دلالة التأليف فليس لها نهاية ولهذا صح التحدي فيها بالمعارضة لتظهر المعجزة ، ولو قال قائل : قد انتهى تأليف الشعر حتى لا يمكن احد ان يأتي بقصيدة الا وقد قيلت فيما قيل لكان ذلك باطلا لان دلالة التأليف ليس لها نهاية كما ان الممكن من العدد ليس له نهاية يوقف عندها لا يمكن ان يزاد عليها . قال « والقرآن كله في نهاية حسن البيان فمن ذلك قوله تعالى : «كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم » فهذا بيان عجيب يوجب التحذير من الاغترار بالامهال » [2]

وفي رسالة الرماني الى جانب الفنون البلاغية ملاحظات نقدية نجدها تتكرر في الكتب السابقة واللاحقة ، ومن ذلك استحسانه للايجاز في قوله تعالى : « ولكم في القِصاص حَياةٌ » وتفضيله على قول العرب : « القَتْلُ أَنْفَى للقتل » من أربعة أوجه :

---

(١) المصدر السابق ص ٩٨

(٢) المصدر السابق ص ٩٩

١) انه أكثر في الفائدة .
٢) وأوجز في العبارة .
٣) وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة .
٤) واحسن تأليفا بالحروف المتلائمة .
وأوضح هذه الاوجه بقوله :

« اما الكثرة في الفائدة فيه ففيه كل ما في قولهم : « القتل أنفى للقتل » وزيادة معان حسنة منها ابانة العدل لذكره القصاص ، ومنها ابانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة ، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به .

وأما الايجاز في العبارة فان الذي هو نظير « القتل انفى للقتل » قوله « القصاص حياة » والاول أربعة عشر حرفا والثاني عشرة أحرف . وأما بعده من الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة فان في قولهم : « القتل أنفى للقتل » تكريرا غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة .

وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس وموجود في اللفظ ، فان الخروج من الفاء الى اللام أعدل من الخروج من اللام الى الهمزة ، لبعد الهمزة من اللام ، وكذلك الخروج من الصاد الى الحاء أعدل من الخروج من الالف الى اللام .

فباجتماع هذه الامور التي ذكرناها صار أبلغ منه وأحسن ، وان كان الاول بليغا حسنا » (١)

وظهور الاعجاز في الوجوه التي بينها يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس ان الكلام من البلاغة في أعلى طبقة وان كان قد يلتبس فيما قلَّ بما حسن جداً لا يجازه وحسن رونقه وعذوبة لفظه وصحة معناه . وللايجاز وجهان :

احدهما : اظهار النكته بعد الفهم لشرح الجملة .

(١) المصدر السابق ص ٧١ - ٧٢

والآخر : احضار المعنى بأقل ما يمكن من العبارة .

قال : « واذا عرفت الايجاز ومراتبه وتأملت ما جاء في القرآن منه عرفت فضيلته على سائر الكلام وهو علوه على غيره من سائر الكلام وعلوه على غيره من انواع البيان . والايجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان والايجاز تصفية الالفاظ من الكدر وتخليصها من الدرن ، والايجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الالفاظ ، والايجاز اظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير ، والايجاز والاكثار انما هما في المعنى الواحد وذلك ظاهر في جملة العدد وتفصيله كقول القائل : لي عنده خمسة وثلاثة واثنان في موضع العشرة . وقد يطول الكلام في البيان عن المعاني المختلفة وهو مع ذلك في نهاية الايجاز [1] » .

وتكلم على التلاؤم ، وهو نقيض التنافر ، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، والتأليف ، ثلاثة أوجه : متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ومتلائم في الطبقة العليا . فالتأليف المتنافر كقول الشاعر :

وقبرُ حَرْبٍ بمكانٍ قَفْرِ ... وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

وأما التأليف المتلائم في الطبقة الوسطى ــ وهو من أحسنها ــ فكقول الشاعر :

رمتني وسِتْرُ اللهِ بيني وبَيْنَها ... عَشيَّةَ آرامِ الكِناس رَميمُ
رميمُ التي قالت لجيران بيتِها ... ضَمِنْتُ لكم أنْ لا يزال يَهيمُ
ألا رُبَّ يومٍ لو رمتني رميتُها ... ولكنَّ عهدي بالنضالِ قَديمُ

والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله ، وذلك بين لمن تأمله .

وعلل السبب في التلاؤم بقوله : « والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما ، وأما التنافر فالسبب ما ذكره الخليل من البعد الشديد اوالقرب الشديد ، وذلك انه اذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، واذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد ــ لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده الى مكانه

(١) المصدر السابق ص ٧٣ ــ ٧٤

وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك في الاعتدال ، ولذلك وقع في الكلام الادغام والابدال » (١) والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة . ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب في أحسن ما يكون من الخط والحرف وقراءته في أقبح ما يكون من الحرف والخط ، فذلك متفاوت في الصورة وان كانت المعاني واحدة . والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد وذلك يظهر بسهولته على اللسان وحسنه في الاسماع وتقبله في الطباع . فاذا انضاف الى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في اعلى الطبقات ظهر الاعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام كما تظهر له أعلى طبقات الشعراء من أدناها اذا تفاوت ما بينهما .

وهذان المثالان يوضحان منهج الرماني في النقد ، وهو نقد قائم على الملاحظة العامة مع التعليل العقلي في أغلب الأحيان ، لأنه كان معتزليا وكان متكلماً ميالا إلى علوم المنطق والفلسفة ، وكان لا بدَّ أنْ يظهر ذلك في بلاغته ونقده ، ولذلك لا نجد الذوق الادبي يأخذ سبيله في هذه الرسالة .

الخطابي :

وضع أبوسليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخَطَّابي (ـ٣٨٨هـ) رسالة « بيان إعجاز القرآن » ورأى ان بلاغة كتاب الله ترجع إلى جمال الفاظه وحسن نظمه وسمو معانيه وتأثيره في النفوس . قال : « واعلم ان القرآن انما صار معجزا لانه جاء بأفصح الالفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني » (٢) فكتاب الله معجز بالنظم وحسن التأليف ، وهو ما وقف عنده عبد القاهر طويلا وبنى عليه نظريته في النظم والاعجاز .

وأشار الخطابي الى تأثير القرآن في النفوس فقال : « قُلْتُ في اعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه الا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه في القلوب

(١) المصدر السابق ص ٨٨ .
(٢) بيان اعجاز القرآن ـ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص ٢٤ .

وتأثيره في النفوس ، فانك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا اذا قرع السمع خلص له الى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه اليه . تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى اذا أخذت حظها منه عادت مرتاعه قد عراها من الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها . فكم من عدو للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من رجال العرب وفتاكها اقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم ان يتحولوا عن رأيهم الاول وان يركنوا الى مسالمته ويدخلوا في دينه وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم ايمانا » [1] من ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حينما خرج يريد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويعمد لقتله فسار الى دار أخته وهي تقرأ سورة « طه » فلما وقع في سمعه لم يلبث ان آمن . ومن ذلك ما روي عن عتبة بن ربيعة حينما ارسله الملأ من قريش الى الرسول (ص) ليواقفوه على أمور أرسلوه بها فقرأ عليه رسول الله (ص) آيات من « حم » فلما أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش قالوا : أقبل ابو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على تأثيره النفسي من ذلك قوله تعالى : « لو أَنْزلنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لرأَيْتَه خاشِعاً مُتَصدِّعاً من خَشْيَةِ الله [2] » وقوله : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديثِ كتاباً مُتَشابهاً مثانيَ تقشعرُّ منه جلودُ الذين يَخْشَوْنَ ربهُم ثم تَلينُ جلودُهم وقلوبهُم الى ذكرِ اللهِ » [3] وقوله « وإذا سَمِعوا ما أُنْزِلَ الى الرسولِ تَرى أعْيُنَهم تفيضُ من الدَّمْعِ مما عَرَفُوا من الحَقّ [4] » ثم ان السر في الاعجاز ايضا هو الجمع بين المعاني والموضوعات الى ذلك النظم البديع والتأليف المتلائم واضعاً كل شيء منه موضعه الذي لا يرى في صورة العقل أمر أليق منه ، مودعا اخبار القرون الماضية وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند

(١) المصدر السابق ص ٦٤

(٢) سورة الحشر ، الاية ٢١ .

(٣) سورة الزمر ، الاية ٢٣ .

(٤) سورة المائدة ، الاية ٨٣ .

منهم ، منبئا عن الكوائن المستقبلة في الاعصار الباقية من الزمان جامعا في ذلك بين الحجة والمحتج له والدليل والمدلول عليه ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا اليه وأنبأ عن وجوب ما أمر به ونهى عنه . ومعلوم ان الاتيان بمثل هذه الامور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قدرهم فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته بمثله او مناقضته في شكله [1] .

ولم يبحث الخطابي موضوعات البلاغة كما بحثها الرماني ، لانّها ليست الاساس في الاعجاز وانما هي في المقام الثاني بعد النظم ، ولذلك أشار الى فنونها في أثناء كلامه على الآيات القرآنية وما فيها من بلاغة أعجزت العالمين . من ذلك كلامه على الغرابة وهي ليست مما شرطه في حدود البلاغة وانما يكثر وحشي الغريب في كلام الاوحاش من الناس والاجلاف من جفاة العرب الذين يذهبون مذاهب العنجهية ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخير له ، وليس ذلك معدودا في النوع الافضل من انواعه ، وانما المختار منه النمط الأقصد الذي جاء به القرآن وهو الذي جمع البلاغة والفخامة الى العذوبة والسهولة والحذف والاختصار ، والتكرار وهو على ضربين :

أحدهما : مذموم وهو ما كان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الاول ، لانه حينئذ يكون فضلا من القول ولغواً وليس في القرآن شيء من هذا النوع .

والضرب الآخر : ما كان بخلاف هذه الصفة فإن ترك التكرار في الموضوع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة اليه فيه بازاء تكليف الزيادة في وقت الحاجة الى الحذف والاختصار ، وانما يحتاج اليه ويحسن استعماله في الامور المهمة التي قد تعظم العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها . وقد يقول الرجل لصاحبه في الحث والتحريض على العمل : « عجل عجل » و« ارم ارم » ، وكقول الشاعر :

(١) المصدر السابق ص ٢٥

هَلاَّ سألت جموعَ كِنْدةَ يوم وَلُّوا أَينَ أَيْنَا

وقول الآخر :

يـالَ بَكْرٍ انشروا لي كُليبـــــا　　　يـالَ بَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الفـــرار

وقد أخبر الله بالسبب الذي من أجله كرر الاقاصيص والاخبار في القرآن فقال : « ولقد وَصَلنا لهم القولَ لعلَّهم يتذكرون » (١) ، وقال : « وَصَرَّفْنَا فيه من الوعيدِ لعلَّهم يتَّقون أو يُحْدِثُ لهم ذِكْرا » (٢). وأما سورة « الرحمن » فان الله ـ سبحانه ـ خاطب بها الثقلين من الانس والجن وعدّد عليهم أنواع نعمه التي خلقها لهم فكلما ذكر فصلا من فصول النعم جدد اقرارهم به واقتضاءهم الشكر عليه ، وهي أنواع مختلفة وفنون شتى ، وكذلك هو في سورة « المرسلات » ذكر احوال يوم القيامة فقدم الوعيد فيها وجدد القول عند ذكر كل حال من احوالها لتكون ابلغ في القرآن وأوكد لاقامة الحجة والإعذار ومواقع البلاغة معتبرة لمواقعها من الحاجة .

وتتضح في رسالة الخطابي الموازنة والاستفادة من النصوص الشعريـــة والملاحظات البيانية في الحديث عن اسلوب القرآن الذي قال عنه : « إنّ أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية . فنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرسل . وهذه اقسام المعاني الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن شيء منه . فالقسم الاول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثاني أوسطه وأقصده والقسم الثالث أدناه وأقربه . فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الاقسام حصة وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة فانتظم لها بامتزاج هذه الاوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين ، لأن العذوبة نتاج السهولة والجزالة والمتانة في

---

(١) سورة القصص ، الاية ٥١ .

(٢) سورة طه ، الاية ١١٣ .

الكلام تعالجان نوعا من الوعورة . فكان اجتماع الامرين في نظمه مع نبوّ كل منهما على الآخر فضيلة خُص بها القرآن يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه ودلالة على صحة ما دعا اليه من أمر دينه » (١) وتكلم على عناصر الاسلوب وهي :

١) اللفظ . ٢) المعنى . ٣) النظم الذي يجمع بينهما .

قال : « وانما يقوم الكلام بهذه الاشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم . واذا تأملت القرآن وجدت هذه الامور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الالفاظ افصح ولا اجزل ولا أعذب من الفاظه ولا ترى نظماً أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه . وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل انها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في ابوابها والترقي الى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها . وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد الا في كلام العليم القدير » (٢).

ومن القضايا البارزة في رسالة الخطابي الحديث عن عمود البلاغة وهو وضع كل نوع من الالفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي اذا ابدل مكانة غيره جاء منه اما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام واما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة. وجره ذلك الى الكلام على الألفاظ المتقاربة المعاني والفرق بينها وما تعطيه كل لفظة من معنى يختلف عن معنى اللفظة الثانية مما يظنه البعض تشابها واتفاقا . قال : «إن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس انها متساوية في افادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة والحمد والشكر والبخل والشح وكالنعت والصفة ، وكذلك : اقعد واجلس وبلى ونعم وذلك وذاك ومن وعن ونحوهما من الاسماء والافعال والحروف والصفات. والامر فيها وفي ترتيبها عند علماء اهل اللغة بخلاف ذلك لان لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وان كانا قد يشتركان في بعضها . تقول : عرفت الشيء

(١) المصدر السابق ص ٢٣ – ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤ .

وعلمته اذا أردت الاثبات الذي يرتفع معه الجهل . الا ان قولك « عرفت » يقتضي مفعولا واحدا كقولك : عرفت أسداً و« علمت » يقتضي مفعولين كقولك : « علمت زيداً عاقلاً » ولذلك صارت المعرفة تستعمل خصوصا في توحيد الله تعالى واثبات ذاته ، فتقول : « عرفت الله » ولا تقول : « علمت الله » الا ان تضيف اليها صفة من الصفات فتقول : « علمت الله عدلا » و«علمته قادراً » ونحو ذلك من الصفات » (١).

وعلى معرفة مواقع تلك الالفاظ في العبارات يقوم معنى الكلام ، فليس الاعجاز في اللفظ وانما في تأليفه ، قال : « ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لاعجاز القرآن على مفرد الالفاظ التي منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التي هي معانيه وملابسه التي هي نظوم تأليفه » (٢) والمعاني التي تحملها الالفاظ تحتاج الى معاناة لانها نتائج العقول وولائد الافهام وبنات الافكار ، ورسوم النظم بحاجة الى الثقافة والحذق لانها لجام الالفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه مع بعضه فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان .

ومن تلك القضايا الحديث عن المعارضة ، وقد رسم سبيلها بقوله : « وسبيل من عارض صاحبه في خطبة أو شعر ان ينشيء له كلاماً جديدا ويحدث له معنى بديعاً فيجاريه في لفظه ويباريه في معناه ليوازن بين الكلامين فيحكم بالفلج لمن أبر منها على صاحبه ، وليس بان يتحيف من اطراف الكلام خصمه فينسف منه ثم يبدل كلمة مكان كلمة فيصل بعضه ببعض وصل ترقيع وتلفيق ثم يزعم انه واقفه موقف المعارضين » (٣) والمعارضة على أحد وجوه : منها أنْ يتبارى الرجلان في شعر أو خطبة أو محاورة فيأتي كل واحد منهما بأمر محدث من وصف ما تنازعاه وبيان ما تباريا فيه ، يوازي بذلك صاحبه او يزيد عليه فيفصل الحكم عند ذلك بينهما بما يوجبه النظر من التساوي والتفاضل ، نحو ما تنازعه امرؤ القيس وعلقمة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٣ .

ابن عبدة من وصف الفرس في قصيدتيهما المشهورتين فافتتح امرؤ القيس قصيدته بقوله :« خليلي مرا بي على أم جندب » فلما وصل الى ذكر الفرس وسرعة ركضه قال :

فللزجرِ ألـهوبٌ ولـلساق دَرَّةٌ ... وللسَّوطِ منه وَقْعُ أَهْوَجَ مُنْعبِ

وابتدأ علقمة قصيدته بقوله : « ذَهَبْتَ من الهجرانِ في غيرِ مَذْهَبِ » فلما صار الى ذكر الفرس وركضه قال :

تُعفّيّ على آثارِهِنَّ بحاصِبٍ ... وغيبةِ شؤبوبٍ من الشد ملهب
فأدركهن ثانيا من عِنانه ... يمرُّ كمرِّ الرائحِ المتحلّبِ

وكانا قد حكما بينهما امرأة امرىء القيس فقالت لزوجها : علقمة أشعر منك فقال : وكيف ذلك ؟ قالت : لانه وصف الفرس بما أدرك الطريدة من غير ان يجهده اويكدّه ، وأنت مَرَيْتَ فرسك بالزجر وشدة التحريك والضرب ، فغضب وطلقها .

ونحو هذا معارضة الحارث اليشكري اياه في اجازة أبيات :

قال امرؤ القيس : أحارِ ترى بَريقاً هبَّ وَهْناً
فقال الحارث : كنارِ مجوس تستعرُ استعارا
فقال امرؤ القيس : أرقت له ونامَ أبوشريحٍ
فقال الحارث : إذا ما قلت قَد هدأ استطارا
فقال امرؤ القيس : فمرَّ بجانبِ العيلات منه
فقال الحارث : وباتَ يحتفر الاكَمَ احتفارا
وقال امرؤ القيس : فلم يترك بذات السرِّ ظبياً (١)
فقال الحارث : ولم يترك بعرصتها حمارا
فقال امرؤ القيس : كأنَّ هزيزه بوراء غيبٍ

(١) ذات السر : اسم موضع .

وقال الحارث : عشارٌ وَلَّهٌ لاقت عِشارا

فقال امرؤ القيس : فلما أنْ علا شرجي أضاخ [1]

فقال الحارث : وَهَتْ أعجاز رِيِّقِهِ فخارا

وقال امرؤ القيس : فلم تَرَمِثْلَنا ملكاً هُماماً

فقال الحارث : ولم تَرَمثل هذا الجارِ جارا

قال الخطابي : « هذه مباراة عجيبة ومعارضة تامة مستوفاة فصلا فصلا ومصراعا مصراعا ، وللحارث فيها ما ليس لامرىء القيس ، لان المبتدىء متمكن من الاختيار موسع عليه الطرق يسلك ايها شاء والمجيز مقصور القيد ممنوع من التصرف الا في الجهة التي هو بإزائها ، فلذلك قد ابر عليه الحارث لما جاء من حسن التشبيه والتمثيل الذي خلاصته كلام امرىء القيس ، ولاجل ذلك آلى امرؤ القيس ان لا يماتن شاعرا بعده » . [2]

وروي ان الوليد بن عبد الملك وأخاه مسلمة تنازعا ذكر الليل وطوله ففضل ابيات النابغة في وصف الليل وهي :

كِليني لهمّ يا أُميمةَ ناصبِ ... وليلٍ أُقاسيه بطيءِ الكواكبِ

تطاولَ حتى قُلْتُ ليس بمنْقَضٍ ... وليس الذي يَرْعى النجومَ بآيبِ

بصدرٍ أراح الليلُ عازِبَ هَمِّه ... تضاعَفَ فيه الحُزْنُ من كلِ جانِبِ

وفضل مسلمة أبيات امرىء القيس وهي :

وليلٍ كموجِ البَحْرِ أرخى سدولَه ... عليَّ بأنواع الهمومِ ليبتلي

فقلتُ له لما تَمَطّى بصُلْبِه ... وأَرْدَفَ أعجازاً وناءَ بكلكلِ

أَلا أيُّها اللَّيلُ الطويلُ أَلا انْجلي ... بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأَمْثَلِ

فيا لك من ليلٍ كأَنَّ نجومَه ... بكلِ مغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بيذْبُلِ

(١) اضاخ موضع ، ويروى : كتني اصاخ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٦ .

وحكما الشعبي بينهما ، وعلق الخطابي على هذه المعارضة بقوله : « قلت : افتتاح النابغة قصيدته بقوله : «كليني لهم يا أميمة ناصب » متناهٍ في الحسن بليغ في وصف ما شكاه من همه وطول ليله ، ويقال انه لم يبتدىء شاعر قصيدة بأحسن من هذا الكلام . وقوله : « بصدر اراح الليل عازب همه » مستعار من اراحة الراعي الابل الى مباتها ، وهو كلام مطبوع سهل يجمع البلاغة والعذوبة إلا ان في أبيات امرىء القيس من ثقافة الصنعة وحسن التشبيه وابداع المعاني ما ليس في أبيات النابغة اذ جعل لليل صلباً وإعجازاً وكلكلاً وشبه تراكم ظلمة الليل بموج البحر في تلاطمه عند ركوب بعضه بعضا حالا على حال ، وجعل النجوم كأنها مشدودة بحبال وثيقة فهي راكدة لا تزول ولا تبرح . ثم لم يقتصر على ما وصف من هذه الأمور حتى عللها بالبلوى ونبه فيها على المعنى وجعل يتمنى تصرم الليل بعود الصبح لما يرجو فيه من الروح ثم ارتجع ما أعطى واستدرك ما كان قدمه وأمضاه فزعم ان البلوى أعظم من أن يكون لها في شيء من الاوقات كشف وانجلاء ، والمحنة فيها أغلظ من أن يوجد لدائها في حال من الأحوال دواء وشفاء . وهذه الأمور لا يتفق مجموعها في اليسير من الكلام إلا لمثله من المبرزين في الشعر الحائزين فيه قصب السبق ، ولاجل ذلك كان يركض الوليد برجله اذ لم يتمالك أن يعترف له بفضله ، فبمثل هذه الأمور تعتبر معاني المعارضة فيقع بها الفضل بين الكلامين من تقديم لاحدهما أو تأخير أو تسوية بينهما » .

وقد يتنازع الشاعران معنى واحدا فيرتقي احدهما الى ذروته ويقصر شأو الاخر عن مساواته في درجته كالاعشى والاخطل حين انتزعا في وصف الخمر على معنى واحد فكان لأحدهما العلو وكان للاخر السفل . فقد روي ان الشعبي دخل على الاخطل فوجده ثملا وحوله رياحين فقال : يا شعبي فعل الأُخطل ، وذكر امهات الشعراء ، فقال الشعبي : بماذا يا أبا مالك قال : بقوله :

وتظلُّ تنصفنا بها قرويةٌ ... أبريقها برقاعِه ملثومُ
فاذا تعاورَت الاكفُّ زجاجَها ... نَفَحت فنال رياحَها المزكومُ

فقال الشعبي : أَشعر منك الذي يقول :

وأدكنُ عاتِقٍ جحـلٍ سِبَحْـــــلٍ صبحت براحه شَرْباً كِراما [1]
من اللائي حَمَلْنَ عـلى الروايـــا كريحِ المسك تستلّ الزكامـــا

فقال له الاخطل : من يقول هذا يا شعبي قال : الاعشى . قال : قدوس قدوس ، فعل الاعشى وذكر امهات الشعراء . قال الخطابي : فتأمل اين منزلة أحدهما من الاخر ، لم يزد الاخطل حين احتشد وافتخر على ان جعل رائحتها لذكأها تنفذ حتى الى الرأس فينالها المزكوم ، وجعلها الاعشى لحدتها وفرط ذكأها مستلة للزكام طاردة له ، قد طبت لدائه وتأيت لبرئه وشفائه » [2] .

وأعجب من هذه المعارضات بناء الشيء وهدمه وتشييده ثم وضعه ونقضه كقول حسان بن ثابت في ذم الخمر :

ولولا ثلاثٌ هن في الكأس لم يَكُنْ لها ثَمَنٌ من شارِب حين يَشْرَبُ
لها نَزَقٌ مثل الجنونِ ومَصْــــرَع دني وإنَّ العقلَ ينأى ويعـزُبُ

وكقوله في تحسينها ومدحها :

ولولا ثلاثٌ هُنَّ في الكأس أصبحَتْ كأنفسِ مالٍ يُستفاد ويُطْلَـــبُ
أمانيّا والنفس يظهر طيبهـــــا على حزنها والهمُّ يسلي ويذهـــبُ

وأدخل الخطابي في هذا الباب الموازنة التي هي المعارضة والمقابلة ، وذلك ان يجري أحد الشاعرين في اسلوب من أساليب الكلام وواد من اوديته فيكون أحدهما أبلغ في وصف ما كان من باله من الاخر في لفت ما هو بإزائه ، وذلك مثل ان يتأمل شعر ابي دؤاد الايادي والنابغة الجعدي في صفة الخيل ، وشعر الاعشى والاخطل في نعت الخمر ، وشعر الشماخ في وصف الخمر ، وشعر ذي الرمة في صفة الاطلال والدمن ونعوت البراري والقفار . فان كل واحد منهم وصاف لما يضاف اليه من أنواع الامور فيقال : فلان اشد في بابه ومذهبه من فلان في طريقته التي يذهبها في شعره وذلك بالتأمل في نمط كلامه في نوع ما يعنى به ويصفه والنظر

(١) السحل : الضخم .
(٢) المصدر السابق ص ٥٩ .

فيما يقع تحته من النعوت والاوصاف ، فاذا وجد أحدهما أشد تقصياً لها وأحسن تخلصا الى دقائق معانيها وأكثر اصابة فيها حكم لقوله بالسبق وقضى له بالتبريز على صاحبه من غير التفات الى اختلاف مقاصدهم وتباين الطرق بهم فيها .

وفي هذه النظرات الدقيقة والتحليل البديع الذي ساقه يدلل على أن العرب لم يصنعوا في معارضة القرآن شيئا ، كما انه في وقفاته البديعة ينم على ذوق فني ونزعة أدبية اتخذت من النصوص سبيلا الى دراسة اساليبها والموازنة بينها ، وقد فتحت هذه الخطوة الطريق لمن اهتم باسلوب القرآن كالباقلاني ، اومن عُني بالموازنة كالآمدي ، كما وضعت أمام عبد القاهر فكرة النظم التي بنى عليها رأيه في إعجاز كتاب الله .

القاضي عبد الجبار :

ألّف القاضي أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي (ـ ٤١٥ هـ) في إعجاز القرآن ، وكان الجزء السادس عشر من كتابه « المُغْني في أبواب التوحيد والعدل » خاصا بهذه المسألة . ورأيه ان الفصاحة والبلاغة تقومان على ضم الكلمات وتقارنها وهي الفكرة التي تبناها عبد القاهر وأقام عليها نظرية النظم . قال عبد الجبار بعد ان عرض رأي استاذه ابي هاشم الجُبّائي : « اعلم ان الفصاحة لا تظهر في افراد الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ولا بد مع الضم من ان يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز في هذه الصفة ان تكون بالمواضعة التي تتناول الضم وقد تكون بالاعراب الذي له مدخل فيه وقد تكون بالموقع . وليس لهذه الاقسام الثلاثة رابع لانه اما ان تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة . ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات اذا انضم بعضها الى بعض ، لانه قد يكون لها عند الانضمام صفة وكذلك لكيفية اعرابها وحركاتها وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه انما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها فان قال : فقد قلتم ان في جملة ما يدخل في الفصاحة حسن المعنى ، فهلا اعتبرتموه ؟ قيل له : إنّ المعاني وإنْ كان لا بدّ منها فلا تظهر فيها المزية ولذلك تجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون احدهما افصح من الاخر والمعنى متفق . على انا نعلم ان المعاني لا يقع فيها تزايد

فإذن يجب ان يكون الذي يعتبر التزايد عنده الالفاظ التي يعبر عنها . فاذا صحت هذه الجملة فالذي تظهر به المزية ليس الا الابدال ــ الاختيار ــ الذي به تختص الكلمات او التقدم والتأخر الذي يختص الموقع او الحركات التي تخص الاعراب فبذلك تقع المباينة . ولا بد في الكلامين اللذين أحدهما افصح من الاخر ان يكون انما زاد عليه بكل ذلك اوببعضه، ولا يمتنع في اللفظة الواحدة ان تكون اذا استعملت في معنى تكون افصح منها اذا استعملت في غيره ، وكذلك فيها اذا تغيرت حركاتها وكذلك القول في جملة من الكلام » . ثم قال : « ان المعتبر في المزية ليس بنية اللفظة وان المعتبر فيه ما ذكرناه من الوجوه ، فاما حسن النغم وعذوبةالقول فمما يزيد الكلام حسنا على السمع لا انه يوجد فضلا في الفصاحة (١).

ان عبد الجبار بهذه الفكرة يكون قد وضع الاسس التي بنى عليها عبد القاهر نظرية النظم ، واذا نظرنا الى الاسس النقدية التي احتواها كتابه « المغني » وجدناها غير واضحة لانه لم يكن ناقدا تعنيه دراسة الاساليب والموازنة بينها وانما كان ينظر الى مسألة الاعجاز نظرة عقلية .

هذه أهم دراسات اعجاز القرآن في القرن الرابع ، وهي دراسات ليس فيها التفصيل والاسس النقدية الواضحة ، وقد كان الباقلاني أعظم هؤلاء الدارسين ولذلك ستكون الوقفة عنده طويلة . أما الدراسات القرآنية الاخرى فلم تكن ذات قيمة كبيرة في النقد ، ولعل أهمها كتابا « تلخيص البيان في مجازات القرآن » و « المجازات النبوية » للشريف الرضي (ـ ٤٠٦ هـ) وهما كتابان ليس فيهما العناية بالنقد لان مؤلفهما سعى الى كشف ما في كتاب الله وأحاديث النبي محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ من مجازات ، وهو بعض ما يسعى اليه الناقد .

---

(١) المغني ج ١٦ ص ١٩٩ ــ ٢٠٠ .

الباقلاني

أَلَّف أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ـ ٤٠٣ هـ) عدة كتب لها صلة باعجاز القرآن هي :

١) التمهيد ٢) الانتصار لنقل القرآن ٣) البيان
٤) اعجاز القرآن .

وذهب الى ان كتاب الله معجز لانه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ، قال : « فان قال قائل : وما وجه دلالة ظهور القرآن على يده على صدقه قيل له : وجه ذلك من طريقين :

أحدهما : نظمه وبراعته

والآخر : ما انطوى عليه من اخبار الغيوب وعلمها » (١) واضاف اليهما وجها ثالثا هو ما انطوى عليه من قصص الاولين وسير الماضين وآحاديث المتقدمين (٢).

وقال : « ان قدر ما يقتضيه التقدم والحذق في الصناعة قدر معروف لا يخرق العادة مثله ولا يعجز أهل الصناعة والمتقدمون فيها عنه مع التحدي والتقريع بالعجز والقصور لان العادة جارية بجميع الدواعي والهمم على بلوغ منزلة الحاذق المتقدم في الصناعة وما أتى به النبي ـ صلى الله عليه ـ من القرآن قد خرج عن حد ما يكتب بالحذق » (٣).
والاعجاز عنده ليس في نفس الحروف وإنما هو في نظمها وإحكام رصْفها

(١) التمهيد ص ١٤١ .
(٢) التمهيد ص ١٥٩
(٣) التمهيد ص ١٤٢ .

وكونها على وزن ما أتى به النبي (ص) وليس نظمها اكثر من وجودها متقدمة او متأخرة ومترتبة في الوجود وليس لها نظم سواها . وهوكتتابع الحركات ووجود بعضها قبل بعض ووجود بعضها بعدبعض . (١) وقد تحداهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من جهة نظمه فلم يقدروا ان يأتوا بمثله . ولوكانوا قادرين على معارضته او معارضة سورة منه لسارعوا الى ذلك ولكان اهون عليهم وأخف من نصب الحرب معه والبلاء عن الاوطان وتحمل الاهوال والصبر على القتل وألم الجراح واحتمال الذل والعار (٢) .

وليست هذه الكتب الاربعة كلها في صميم الاعجاز ، فالاول في العقيدة وفيه فصل عن الاعجاز ، والثاني خاص بعلوم القرآن ومن بينها اعجازه والثالث في الفرق بين المعجزات والكرامات وفيه كلام على اعجازكتاب الله ، ولكنه نظري ليس فيه الموازنة والتحليل الذي نجده في كتابه « اعجاز القرآن » وان كانت الآراء واحدة في الكتب الاربعة .

أما كتابه الرابع « إعجاز القرآن » فهو أهم هذه الكتب لانه في صميم مسألة الاعجاز ، ولانه جمع فيه آراءه التي ذكرها في الكتب الاخرى ورتبها ترتيبا دقيقا وفصَّلَ القول فيها تفصيلا . وقد أوضح هدفه في المقدمة وقال إنَّ الذين ألَّفوا في معاني القرآن من علماء اللغة والكلام لم يبسطوا القول في الابانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانته مع ان الحاجة الى ذلك البيان أَمَسّ وأولى من التصنيف في بديع الاعراب وغامض النحو وقد قصر بعضهم في هذه المسألة حتى أدَّى ذلك الى تحول قوم منهم الى مذاهب البراهمة فيها . وصنَّف الجاحظ في نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى .

وذكر انه وضع كتابه استجابة لسؤال سائل ان يذكر جملة من القول جامعة

---

(١) يطر التمهيد ص ١٥١ واعجاز القرآن ص ٢٦١ .

(٢) يطر التمهيد ص ١٤٢ ، والبيان ص ٢٨ واعجاز القرآن ص ٢٠ .

نسقط الشبهات وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال وتصف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب وترتيب وجوه الكلام وما تختلف فيه طرق البلاغة . ولا يمكن ان يكون ذلك واضحا مفيدا لمن قلّت قدرته في اللغة ومهارته في الادب ولذلك ينبغي ان يكون الناظر في هذا الكتاب من أهل صناعة العربية قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه وعرف جملة من طرق المتكلمين ونظر في شيء من أصول الدين .

وتحدث في هذه المقدمة عن أنّ نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبنية على دلالة معجزة القرآن ، وانتهى الى ان بناء نبوته ـ عليه السلام ـ على دلالة القرآن ومعجزته ، وصارله من الحكم في دلالته على نفسه وصدقه انه يمكن ان يعلم انه كلام الله تعالى وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الانبياء لانها لا تدل على انفسها الا بأمرزائد عليها ووصف منضاف اليها ، لان نظمها ليس معجزا وان كان ما تتضمنه من الاخبارعن الغيوب معجزا ، وليس كذلك القرآن لانه يشاركها في هذه الدلالة ويزيد عليها في ان نظمه معجز فيمكن ان يستدل به عليه .

وتحدث عن الدلالة في ان القرآن معجز وقال ان هذا القرآن من عند الله وانه تحداهم ان يأتوا بمثله فعجزوا ، وليس فيه زيادة اونقص لان العدد الذي اخذوه وضبطوه حفظا وعرفوه حتى صارلا يشتبه على أحد منهم حرف لا يجوز عليهم السهووالنسيان ولوزادوا اونقصوا اوغيروا لظهر . ثم قال : « وقد علمت ان شعر امرىء القيس وغيره على انه لا يجوز ان يظهر ظهورالقرآن ولا ان يحفظ كحفظه ولا ان يضبط كضبطه ولا ان تمس الحاجة اليه إمساساً الى القرآن لوزيد فيه بيت او نقص منه بيت لا بل لوغير فيه لفظ لتبرأ منه اصحابه وأنكره أربابه . فاذاكان ذلك مما لا يمكن ان يكون في شعر امرىء القيس ونظرائه مع ان الحاجة اليه تقع لحفظ العربية فكيف يجوز اويمكن ما ذكروه في القرآن مع شدة الحاجة اليه في الصلاة التي هي أصل الدين ثم في الأحكام والشرائع واشتمال الهمم المختلفة على ضبطه » [1] . ورد على القائلين بالصرفة ، لانه لوكانت المعارضة ممكنة ـ وإنما منع منها

(١) اعجار القرآن ص ١٩

الصرفة ـ لم يكن الكلام معجزا وانما يكون المنع هو المعجز فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه .

وتكلم على جملة وجوه الاعجاز ، وبدأه بما قاله الأشاعرة من أوجــه :

أحدها : ما تضمنه القرآن من الإخبار عن الغيوب .

والثاني : انه اتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الامور ومهمات السير من حين خلق الله آدم الى مبعثه .

والثالث : انه بديع النظم عجيب التأليف ، متناه في البلاغة الى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه . والذي اطلقه العلماء هو على هذه الجملة وهذا ما ذكره في كتابه « التمهيد » ايضا . وقد كشفها في كتابه « اعجاز القرآن » وفصل القول فيها وقال ان الذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للاعجاز وجوه :

١) ما يرجع الى الجملة وذلك ان نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله اسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن اساليب الكلام المعتاد .

٢) انه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر .

٣) ان عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف اليه من الوجوه التي يتصرف فيها ويشتمل عليها ، وانما هو على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا اسفاف فيه الى المرتبة الدنيا .

٤) ان كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل والعلو والنزول

والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم اليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع ، وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء الى شيء والتحول من باب الى باب . والقرآن على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الافراد الى حد الآحاد وهذا امر عجيب تبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج معه الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف .

٥) ان نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن كما يخرج عن عادة كلام الانس ، فهم يعجزون عن الاتيان بمثله كعجزنا ويقصرون دونه كقصورنا .

٦) ان الذي ينقسم اليه الخطاب من البسط والاقتصاروالجمع والتفريق والاستعارة والتصريح والتجوز والتحقيق ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم موجود في القرآن وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والابداع والبلاغة .

٧) ان المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والاحكام والاحتجاجات في اصل الدين والرد على الملحدين على تلك الالفاظ البديعة وموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمتنع .

٨) ان الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته بأن يذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام او تقذف ما بين شعر فتأخذها الاسماع وتتشوف اليها النفوس ويرى وجه رونقها باديا غامرا سائر ما تقرن به كالدرة التي ترى في سلك من خرز وكالياقوتة في واسطة العقد . وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غرة جميعه وواسطة عقده والمنادي على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله واعتراضه في حسنه ومائه .

٩) ان الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا وعدد السور

التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمانية وعشرون سورة وجملة ما ذكر في هذه الحروف في اوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفا ليدل بالمذكور على غيره وليعرفوا ان هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم

١٠) انه سهل سبيله فهو خارج عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر وعن الصنعة المتكلفة وجعله قريبا الى الافهام ، يبادر معناه لفظه الى القلب ويسابق المغزى منه عبارته الى النفس وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول غير مطمع مع قربه في نفسه ولا موهم مع دنوه في موقعه ان يقدرعليه او يظفر به .

وعقد فصلا خاصا شرح فيه هذه الوجوه العشرة ومعانيها ، ثم عقد فصلا آخر في نفي الشعرعن القرآن ، وتحدث في فصل آخر عن السجع ونفاه عن القرآن ايضا كما فعل اصحابه الاشاعرة . وتحدث عن موضوعات أخر تخص الاعجاز منها كيفية الوقوف على اعجاز القرآن ، وعنده ان اعجازه لا يخفى على العربي البليغ الذي قد تناهى في معرفة اللسان العربي ووقف على طرقه ومذاهبه ولا يشتبه على ذي بصيرة ولا يخيل عند أخي معرفة، أما من لم يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى الى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة فهو كالاعجمي في انه لا يمكنه ان يعرف اعجاز القرآن الا بأنه يعلم ان العرب قد عجزوا عنه واذا عجز هؤلاء عنه فهو عنه أعجز . وذكر ان نظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم . ثم تحدث عن حقيقة المعجز وبين معنى اعجازه على اصول الاشاعرة بأنه لا يقدر العباد عليه وانما ينفرد الله بالقدرة عليه ، وعقد فصلا في كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال انه محال ان يكون القرآن من كلامه عليه السلام لان كلامه غير معجز ، ولوكان القرآن من كلامه لكان البون بين كلامه وبينه مثل ما بين خطبة وخطبة ينشئهما رجل واحد ، وكانوا يعارضونه لان القدر الذي بين كلامهم وكلامه عليه السلام لا يخرج الى حد الاعجاز ولا يتفاوت التفاوت الكثير .

وختم الكتاب بفصل قال فيه : « قد ذكرنا في الابانة عن معجز القرآن وجيزا

من القول رجونا ان يكفي وأملنا ان يقنع والكلام في اوصافه ان استقصي بعيد الاطراف واسع الاكناف لعلوشأنه وشريف مكانه . والذي سطرناه في الكتاب وان كان موجزاً وما أمليناه فيه وان كان خفيفاً ـ فانه ينبه على الطريقة ويدل على الوجه ويهدي الى الحجة » . [1] وقال متحدثا عن القرآن : « تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك في منظر بهيج ونظم انيق ومعرض رشيق غير معتاص على الاسماع ولا ملتوعلى الافهام ولا مستكره في اللفظ ولا متوحش في المنظر غريب في الجنس عير غريب في القبيل ممتلىء ماء ونضارة ولطفا وغضارة يسري في القلب كما يسري السرور ويمر الى مواقعه كما يمر السهم ويضيء كما يضيء الفجر ويزخر كما يزخر البحر ، طموح العباب جموح على المتناول المنساب كالروح في البدن والنور المستطير في الافق والغيث الشامل والضياء الباهر « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » [2] أما قضايا النقد والبلاغة التي تحدث عنها الباقلاني فكثيرة أهمها :

فنون الكلام :

كلام العرب شعرونثر ، وقد قسم الباقلاني الكلام من حيث الوزن الى أربعة اقسام :

١) النثر .
٢) مقفى غير موزون .
٣) موزون غير مقفى ، ومنه السجع والخطب .
٤) النظم المقفى الموزون وهو الشعر .

وقال : « وان اسرعها الى النفس هو النثر يليه المقفى غير الموزون وهو السجع ويليه الموزون غير المقفى ويلي ذلك المقفى الموزون على روي واحد وهو الشعر. والعرب لم تتكلم اولا الا بالمنثور بلا وزن ولا تقفية لاغراضها في ذلك وتفاهمها ثم اتفق في

---

(١) اعجاز القرآن ص ٢٩٩

(٢) اعجاز القرآن ص ٢٠٣ .

أواخر كلامها مخارج حروف استحليت وألفتها الاسماع كما ألفت بعض دوران النواعير والدواليب من غير قصد من الحيوان والجماد الى ذلك، فلما كثر في كلامهم ذلك فطنوا له وتنبهوا عليه ثم اتفق ان وقع لهم أزواجا وأفرادا على وجه يستغرق المعنى المقصود فغيروه من حال الى حال فصار متألفا التأليف الذي سموه سجعا وبرز التأليف الذي سموه خطبة فصار السجع والخطابة ديدنهم، ثم انهم فطنوا للتأليف المتفق أواخره فصار وزنا واحدا فاستحلوه فصار شعرا بطويله وقصيره ورجزه وقصيده فاذا كانوا قادرين على ذلك ابتداء من غير مطالبة ثم عجزوا عن الاتيان بمثل سورة مفتراة دل على ان القرآن ليس من وزن كلامهم ولا من نجاره مع انهم تحدوا بذلك وقرعوا به » (١). وقد لا يكون هذا الرأي كله مقبولا الان ولكن هكذا نظر الباقلاني الى كلام العرب وقسمه هذا التقسيم الذي لم يثبت عليه فقد قسمه في « اعجاز القرآن » الى خمسة اقسام :

١) الشعر .
٢) الكلام الموزون غير المقفى .
٣) الكلام المعدل المسجع .
٤) القول المعدل الموزون غير المسجع .
٥) المرسل .

وهذا التقسيم أدق من تقسيمه السابق لانه « خرج بالسجع عن النثر المرسل وعن الكلام الموزون غير المقفى والمقفى غير الموزون ووضعه بين المعدل الموزون غير المقفى، والمعدل الموزون غير المسجع يقصد الى جعل الكلام المعدل المسجع يجري مجرى الموزون على وزن ما ولكنه غير مطرد اطراد المقفى الموزون او الموزون غير المقفى، خارج كذلك عن نوع من الكلام الفني لا يشبه السجع ولكن قد يقع فيه منه، ولعل فيه تقع الخطب والمقالات الفنية ثم المرسل وهو المطلق الخالي من كل وزن وقافية » (٢).

---

(١) نكت الانتصار ص ٢٧٠ .

(٢) اثر القرآن في تطور النقد العربي ص ٢٨٠ ، ومقدمة نكت الانتصار ص ٢٢

وهذه الوجوه لا تخرج عن ان تقع لهم بأحد امرين :

١) اما بتعمل وتكلف وتعلم وتصنع .

٢) اوباتفاق من الطبع وقذف من النفس على اللسان للحاجة اليه . [١]

واختلف في أي اللونين من الكلام تَتأتّى الفصاحة والبلاغة ، فقال بعضهم إنَّ المنثور يتأتى فيه منها ما لا يتأتى في الشعر ، لان الشعر يضيق نطاق الكلام فيه ويمنع القول من انتهائه ويصده عن تصرفه على سننه، وقال آخرون انه لا يمتنع ان يكون الشعر أبلغ اذا صادف شروط الفصاحة وأبدع اذا تضمن أسباب البلاغة. ويميل الباقلاني الى الرأي الثاني ويؤيده بقوله : « ويشهد عندي للقول الاخير أن معظم براعة كلام العرب في الشعر ولا نجد في منثور قولهم ما نجد في منظومه وان كان قد احدثت البراعة في الرسائل على حد لم يعهد في سالف ايام العرب ولم ينقل في دواوينهم وأخبارهم . وهو وان ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه ويضم اطرافه ونواحيه فهو اذا تهذب في بابه ووفى له جميع أسبابه لم يقاربه من كلام الآدميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب » [٢] .

والشعر واسع ومن توهم ان يلحظ شأوه بان ضلاله ووضح جهله ، إذ الشعر سمت قد تناولته الالسن وتداولته القلوب وانثالت عليه الهواجس وما دونه من كلامهم فهو أدنى محلا وأقرب مأخذا وأسهل مطلباً . والكلام يقع فيه البليغ والابلغ ولذلك كانوا يسمون الكلمة يتيمة ويسمون البيت الواحد يتيما . وكذلك يقع في الكلام البيت الوحشي والنادر والمثل السائر والمعنى الغريب ، وسبب ذلك « الغزارة في أصل الصنعة والتقدم في عيون المعرفة » . [٣] وشعر الشاعر البليغ يتفاوت على حسب الاحوال التي يتصرف فيها فيأتي بالغاية في البراعة في معنى فاذا جاء الى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره . فللشعر عند العرب أصوله وقواعده وليس في القرآن شعر كما ذهب اليه بعضهم فقد نفاه الله

---

(١) اعجاز القرآن ص ٦٢ .

(٢) اعحاز القرآن ص ١٥٥ .

(٣) اعجاز القرآن ص ٢٥٨ .

تعالى عنه وعن النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « وما عَلّمناه الشّعْرَ وما ينبغي له ، إنْ هو إلاّ ذِكْرٌ وقرآن مُبين » (١) اما ما وجد في القرآن موزونا فليس شعرا لان للشعر حده ومزاياه وخصائصه التي هي غير الوزن. وقد أجاب الباقلاني على من ادعى الشعر في القرآن بأن الفصحاء من العرب حين ورد عليهم القرآن لو كانوا يعتقدونه شعرا ولم يروه خارجا عن اساليب كلامهم لبادروا الى معارضته لان الشعر مسخر لهم مسهل عليهم ، فلما لم ترهم اشتغلوا بذلك ولا عولوا عليه عُلم انهم لم يعتقدوا فيه شيئا من ذلك . والعرب تعرف الشعر وقد ذهب أهل صناعة العربية الى ان البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرا ، وأقل الشعر بيتان فصاعداً وان ما كان على وزن بيتين الا انه يختلف وزنهما اوقافيتهما فليس بشعر ، وان الشعر انما يطلق متى قصد القاصد اليه على الطريق التي يتعمد ويسلك ، ولا يصح ان يتفق مثله الا من الشعراء دون ما يستوي فيه العامي والجاهل والعالم بالشعر واللسان وتصرفه وما يتفق من كل واحد ، فليس يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم شاعر ، لانه لو صح ان يسمى كل من اعترض في كلامه الفاظ تتزن بوزن الشعر او تنتظم انتظام بعض الأعاريض كان الناس كلهم شعراء لان كل متكلم لا ينفك من ان يعرض في جملة كلام كثير يقوله ما قد يتزن بوزن الشعر وينتظم انتظامه . فالعامي قد يقول لصاحبه : « اغلق الباب وائتني بالطعام » ، ويقول الرجل لاصحابه : « اكرموا من لقيتم من تميم » وما وقع هذا الموقع لم يعدّ شعرا وانما يعد شعرا ما اذا قصده صاحبه تأتى له ولم يمتنع عليه فاذا كان هو مع قصده لا يتأتى له وانما يعرض في كلامه من غير قصد اليه لم يصح ان يقال انه شعر ولا ان صاحبه شاعر .

وقيل : في القرآن كلام موزون كوزن الشعر وان كان غير مقفى بل هو مزاوج متساوي الضروب ، وذلك احد اقسام كلام العرب ، ومن سبيل الموزون من الكلام ان تتساوى اجزاؤه في الطول والقصر والسواكن والحركات فان خرج عن ذلك لم يكن موزونا كقوله :

(١) سورة يس ، الاية ٦٩ .

رُبَّ أخٍ كُنْتُ بــه مغتبطــــاً	أَشُدُّ كفّي بعُرى صُحْبتــــهِ
تمسُّكاً منّيَ بالـــــودِ ولا	أحسبُه يزْهَدُ في ذي أمـــلِ
تمسُّكــاً منيَ بالـــــودّ ولا	أحْسُبه يغـيّر العَهْــــدَ ولا
يَحولُ عنـــه أبـــــدا	فخـاب فيـــه أمــــلي

والقرآن ليس من هدا القبيل بل هذا قبيل غير ممدوح ولا مقصود من جملة الفصيح وربما كان عندهم مستنكرا بل أكثره على ذلك . (١)

فالقرآن ليس شعراً لانه لا يلتقي به وقد حدَّ الشعر بقوله : « وحدُّ الشعر الصحيح أنْ يكون كلاماً مقفى موزوناً لا يقع مثله إلا من عالم به قاصد إلى وزنه وتقفيته (٢) . وفي هذا التعريف وضع الحدود الفاصلة بين الشعر وغيره ويمكن ان نلخص رأيه فيه :

١) ان الشعر لا بد ان يكون مقفى وما جاء منه بغير قافية ليس شعرا وانما خروج على طريقة العرب اوهوجهل وغلط وربما كان عندهم مستنكرا .
٢) لا بد للشعر ان يكون موزونا غير خارج على الأعاريض .
٣) لا بد للشعر ان يقصد اليه ، ولذلك لا يسمى شعرا كل ما يقال عفو الخاطر .
٤) لا بد للشعر ان يزيد على بيتين من وزن واحد ورويّ واحد ، ولا يسمى قصيدة الا ما تجاوز ذلك المقدار .

وهذا الفهم للشعر غير ما الفناه عند قدامة حين عرف الشعر بانه الكلام الموزون المقفى ، فالشعر عند الباقلاني أبعد من ذلك : انه تعبير عن المشاعر والاحاسيس ، والشاعر منسوب الى انه « يشعر بما لا يشعر به غيره من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام (٣) وهو ما ذكره صاحب «البرهان في وجوه البيان» حينما اختلف عن قدامة في تعريف الشعر . لقد أعطى الباقلاني مفهوماً واسعا للشعر ولم يقيده بالوزن

(١) اعجار القرآن ص ٥٦ .
(٢) نكت الانتصار ص ٢٧٨ .
(٣) اعجاز القرآن ص ٥١ .

والقافية . وان كان الغرض من ذلك نفيه عن القرآن غير انه جاء بما فيه الفائدة و بما يدل على ادراك لهذا الفن . ونـفي الشعر عن كتاب الله ليس مما ابدعه الباقلاني وانما تحدث عنه السابقون كالجاحظ الذي قال : « ويدخل على من طعن قوله « تَبَّتْ يدا أبي لَهَب وتَبَّ » وزعم انه شعر لانه في تقدير : مستفعلن مفاعلن . فيقال له : اعلم انك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل « مستفعلن مستفعلن » كثيرا و « مستفعلن مفاعلن » . وليس أحد في الارض يجعل ذلك المقدار شعراً .ولو ان رجلا من الباعة صاح : « مَنْ يشتري باذنجان » لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات . وكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد الى الشعر ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام . واذا جاء المقدار الذي يعلم انه من نتاج الشعر والمعرفة بالاوزان والقصد اليها كان ذلك شعرا وهذا قريب والجواب فيه سهل والحمد لله » . (١) ولكن الباقلاني توسع في هذا المبحث توسعا لا نجده عند الجاحظ أو غيره .

وتحدث عن السجع ونفاه عن القرآن الكريم . وقد أملى عليه هذا الموقف متابعته لاصحابه الأشاعرة فقد ذهبوا الى نفيه ، قال : « ذهب اصحابنا الى نفي السجع من القرآن وذكره الشيخ أبو الحسن الاشعري ــ رضي الله عنه ــ في غير موضع من كتبه » . وذهب غيرهم الى إثبات السجع في كتاب الله وقالوا ان ذلك مما يبين به فضل الكلام وانه من الاجناس التي يقع فيها التفاضل في البيان والفصاحة كالتجنيس والالتفات وغير ذلك من الوجوه . ودليلهم اتفاق الكل على ان موسى افضل من هارون عليهما السلام ــ ولمكان السجع قيل في موضع « هارون وموسى » ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل : « موسى وهارون » وقالوا : « وهذا يفارق أمر الشعر لانه لا يجوز ان يقع في الخطاب الا مقصودا اليه واذا وقع غير مقصود اليه كان دون القدر الذي نسميه شعراً ، وذلك القدر ما يتفق وجوده من المفحم كما يتفق وجوده من الشاعر. وأما ما في القرآن من السجع فهو كثير لا يصح ان يتفق كله غير مقصود اليه » وردَّ عليهم قائلا : « وهذا الذي يزعمونه غير صحيح

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩

ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن اساليب كلامهم ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك اعجاز. ولو جاز ان يقولوا هو سجع معجز لجاز لهم ان يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لان الكهانة تنافي النبوات وليس كذلك الشعر »[1] والذي يقدرونه أنَّه سجع وهم ، لأنّه قد يكون الكلام على مثال السجع وان لم يكن سجعا لان ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض لان السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لان اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى . وفصل بين ان ينتظم الكلام في نفسه بالفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه وبين ان يكون المعنى منتظما دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت افادة السجع كافادة غيره ، ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبا لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى . ولو كان الذي يقدرونه في القرآن سجعا لكان مذموما مرذولا لان السجع اذا تفاوتت اوزانه واختلفت طرقه كان قبيحا من الكلام . وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط متى اخل به المتكلم وقع الخلل في كلامه ونسب الى الخروج عن الفصاحة كما ان الشاعر اذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا وكان شعره مرذولا وربما أخرجه عن كونه شعرا . ولو كان الكلام الذي هو في صورة السجع منه لما تحيروا فيه ولكانت الطباع تدعو الى المعارضة ، لان السجع غير ممتنع عليهم بل هو عادتهم فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة وهو غير خارج عنها ولا متميز منها .

فالباقلاني ينفي السجع من القرآن لما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه قال : « أسجاعةٌ كسجاعةِ الجاهلية » أو « أسجعاً كسجع الكهان » ولان المعنى يكون تابعا للفظ في السجع ، ولان جواز السجع في كتاب الله يؤدي الى القول بما ذهب اليه النّظام وعباد بن سليمان وهشام الفوطي من انه ليس في نظم القرآن وتأليفه اعجاز وانه يمكن معارضته ، وانما صرفوا عنه ضربا من الصرف . وليس

(١) اعجاز القرآن ص ٥٧ .

فيما قاله كبير شأن لان النبي ــ عليه السلام ــ لم يذم السجع كله وانما ما كان كسجع الجاهلية والكهان في المعنى ، ولان السجع اذا تبع المعنى فيه اللفظ كان خارجا عن الفصاحة والبلاغة التي ينبغي ان يستوي فيها اللفظ والمعنى . ولعل ما كان من أمر السجع في عصره جعله يذهب هذا المذهب ويربط السجع باللفظ دون المعنى . أما الايمان بما قاله اصحاب الصرفة فليس واقعا ولا يؤدي اليه الاعتراف بالسجع .

ان السجع كثير في القرآن ولا يمكن ان ينكره أحد ، ولا يقلل من قيمته ان يسمى فواصل لاننا حينما ننظر في تعريفهم للفواصل نجد انها حروف متشاكلة في المقاطع وهي تابعة للمعاني ، ويمكن ان نجعل السجع تابعا للمعاني أيضا . وتقسيمهم الفواصل الى وجهين :

احدهما : على الحروف المتجانسة كقوله تعالى : « طه ، ما أَنْزَلنا عليكَ القرآنَ لتَشْقى . إلاّ تَذْكِرةً لمن يَخْشى » وقوله : « والطُّورِ . وكتابٍ مَسْطورٍ » .
والاخر : على الحروف المتقاربة كالميم من النون في قوله تعالى : « الرَّحمنِ الرحيمِ . مالِكِ يومِ الدينِ » ، وكالدال مع الياء في قوله : « ق . والقرآنِ المجيدِ » ، ثم قال : « هذا شيءٌ عجيب » (1) ان هذا التقسيم لا يخرج السجع منها ، ولو قال الباقلاني ان اعجاز القرآن لا يؤخذ من السجع كما لا يؤخذ من فنون البلاغة الاخرى لكان اولى ، وله الحق في ذلك ما دام يذهب الى ان كتاب الله معجز بنظمه وحسن تأليفه ، اما ان ينفى السجع عن القرآن فليس بالرأي السديد .

وتحدث عن اختلاف الادباء وتجويدهم في فنون معينة ، وذكر ان كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع على حسب اختلاف هذه الامور ، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو ، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين ، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ ، ومنهم من يغرب في وصف الابل او الخيل او سير الليل او وصف الروض او وصف الخمر او الغزل او غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتناوله الكلام ، ولذلك ضرب

(1) ينظر النكت في اعجاز القرآن ــ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص ٩٠ ، ونكت الانتصار ص ٢٢٦ .

المثل بامرىء القيس اذا ركب والنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب ، ومثل ذلك لا يختلف في الخطب والرسائل وسائر اجناس الكلام . ومتى تأمل الدارس شعر الشاعر البليغ رأى التفاوت في شعره على حسب الاحوال التي يتصرف فيها فيأتي بالغاية في البراعة في معنى فاذا جاء الى غيره قصرعنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره . ولذلك ضرب المثل بالذين ذكرهم لانه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم. ومن الشعراء من يجود في الرجز ولا يمكنه نظم القصيد اصلا ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر تقصيرا عجيبا ويقع ذلك من رجزه موقعا بعيدا، ومنهم من يبلغ في القصيد الرتبة العالية ولا ينظم الرجز اويقصر فيه مهما تكلفه او تعمله ، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل فاذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانا بينا ، ومنهم من يجود بضد ذلك . (١)

وميّز بين أسلوبين من الكلام ، فليس سواءً كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة ويتلوّن تلون الحرباء ويختلف اختلاف الاهواء ويكثر في تصرفه اضطرابه وتتقاذف به اسبابه ، وقول يجرى في سبكه على نظام وفي رصفه على منهاج وفي وصفه على حذو في صفاء على باب وفي بهجته ورونقه على طريق مختلفه مؤتلف ومؤتلفه متحد ومتباعده متقارب وشارده مطيع ومطيعه شارد وهو على متصرفاته واحد لا يستصعب على حال ولا يتعقد في شأن (٢) .

وأشار الى اختلاف أساليب الكتاب والى اتباع بعضهم الكتاب الآخرين . فرسائل عبد الحميد وطبقته تختلف عن رسائل من بعده واسلوب ابن العميد يختلف عن غيره لانه خلص لنفسه طريقة وأنشأ لنفسه منهاجا فسلك تارة طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجع وبرع في ذلك باقتداره وتقدم بحذقه . وبان تقدمه على الجاحظ لانه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه ويكملها على شروط صنعته ولا يقتصر على ان يأتي بالاسطر من نحو كلامه كما فعل الجاحظ في كتبه متى ذكر من كلامه سطرا اتبعه من كلام الناس اوراقا واذا

(١) اعجاز القرآن ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٢) اعجاز القرآن ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتابا ، وليس في كتبه ورقة واحدة تشتمل على نظم بديع اوكلام مليح مع ان متأخري الكتاب نازعوه في طريقته وجاذبوه على منهجه فمنهم من ساواه حين ساماه ومنهم من أبر عليه اذ باراه [1] .

ولم يترك الشعراء المحدثين من غير وقفة قصيرة عندهم ، فالكثير منهم قد تصنع لابواب الصنعة حتى حشى جميع شعره منها واجتهد ان لا يفوته بيت الا وهو مملوء من الصنع كما فعل ابو تمام في لاميته التي مطلعها :

متى أَنْتَ عن ذُهلّيةِ الحي ذاهِلُ ... وصَدْرُك منها مُدَّةَ الدَّهْرِ آهِلُ [2]

والكثير منهم أيضا توغلوا الى حيازة المحاسن، فمنهم من جمع رصانة الكلام الى سلاسته ومتانته الى عذوبته والاصابة في معناه الى تحسين بهجته حتى ان منهم متى قصر عنه [3] في بعض تقدم عليه في بعض وان وقف دونه في حال سبقه في احوال وان تشبه به في أمره ساواه في أمور، لان الجنس الذي يرمون اليه والغرض الذي يتواردون عليه هو مما للآدمي فيه مجال وللبشري فيه مثال [4] ، وفي شعرهم من الغزل ما يذوب معه اللب وتطرب عليه النفس [5] . وهذا كله ليثبت ان امرأ القيس ليس بالشاعر الذي لا يرقى الى شاعريته شك وانما هو كالشعراء الآخرين ، بل في المحدثين من هو احسن منه ، وبذلك اعطى الباقلاني للمحدثين اهمية كبيرة ، وهو امر ليس بالهين اذا ما عرفنا ان امثاله كان أكثر تشبثا بالقديم وأعظم ارتباطا بمثله واساليبه الشعرية .

نقد الكلام :

النقد عند الباقلاني من الامور الصعبة التمييز ، ولذلك كان العلماء بالشعر

---

(١) اعجاز القرآن ص ٢٤٨ .

(٢) اعجار القرآن ص ١٠٨ .

(٣) يريد امرأ القيس .

(٤) اعجاز القرآن ص/١٥٩ .

(٥) اعجار القرآن ص ١٦٨

أعزّ من الكبريت الاحمر كما قال عمرو بن العلاء [1]، والاتفاق في النقد أمر صعب لان الناس متفاوتون في المعرفة ولو اتفقوا فيها لم يجز ان يتفقوا في معرفة هذا الفن او يجتمعوا في الهداية الى هذا العلم لاتصاله باسباب خفية وتعلقه بعلوم غامضة الغور كثيرة المذاهب ، وقد قال المتنبي :

وكم مــن عائب قــولاً صحيحاً وآفته مــن الفَهْــمِ السَّقيــمِ
ولكن تــأخذُ الآذانُ منــــه على قَــدْرِ القرائــحِ والعلــومِ

وقال البحتري :

أهزُّ بالشعر أقواماً ذوي سِنَــةٍ لوأنَّهم ضُربوا بالسَّيْفِ ما شَعروا
عليَّ نَحْتُ القوافي من مقاطعهــا وما عليَّ إذا لم تَفْهــم البَقَــرُ

قال الباقلاني : « فاذا كان نقد الكلام كله صعبا وتمييزه شديداً، والوقوع عــلى اختلاف فنونـه متعذرا ، وهـذا في كـلام الآدميين فمـاظنك بكـــلام رب العالمين » [2] .

ونقد الكلام لا يتأتى الا للعارف بالصنعة ، ولذلك يكرر الدعوة الى المعرفة والندرب في هذاالفن ، ومن لم يكن كذلك فينبغي ان يجلس في مجلس المقلدين ولا يعطي احكاما لانه غير قادر على التمييز بين الكلام . وقد أوضح هذه الفكرة وتحدث عن نقد الشعر وتميزه في الفصل الذي عقده في كيفية الوقوف على اعجاز القرآن وقال ان ذلك لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية من العجم والترك وغيرهم ان يعرفوا اعجاز كتاب الله الا بان يعلموا ان العرب قد عجزوا عن ذلك ، وكذلك من كان من أهل اللسان العربي الا انه لا يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى الى معرفة اساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة وما يعدونه فصيحا بليغا من غيره فهو كالاعجمي في انه لا يمكنه ان يعرف الاعجاز ، فأما من تناهى في معرفـة

---

(١) اعجاز القرآن ص ٢٠٣ .
(٢) اعجاز القرآن ص ٣٠٠ .

اللسان العربي ووقف على طرقها ومذاهبها فهو يعرف القدر الذي ينتهي اليه وسع المتكلم من الفصاحة ويعرف ما يخرج عن الوسع ويتجاوز حدود القدرة فلا يخفى عليه اعجاز القرآن كما يميز بين الخطب والرسائل والشعر وكما يميز بين الشعر الجيد والرديء والفصيح والبديع والنادر والبارع والغريب وهذا كما يميز اهل كـل صناعة صناعتهم فيعرف الصيرفي من النقد ما يخفى على غيره ويعرف البزاز من قيمة الثوب وجودته ورداءته ما يخفى على غيره .

وناقد الشعر يعرف أنواعه ويضع يده على الجيد منه اوالرديء ، ومتى تقدم في هذه الصنعة لم يخفَ عليه وجه من وجوه القول ولم تشتبه عنده الطرق فهو يميز قدر كل متكلم بكلامه وقدر كل كلام في نفسه ويحله محله ويعتقد فيه ما هو عليه ويحكم فيه بما يستحق من الحكم . وزاد المسألة تفصيلا فقال : « والعالم لا يشذ عنـه شيء من ذلك ولا تخفى عليه مراتب هؤلاء ولا تذهب عليه اقدارهم حتى انه اذا عرف طريقة شاعر في قصائد معدودة فأُنشد غيرها من شعره لم يشك ان ذلك من نسجه ولم يرتب انها نظمه .كما انه اذا عرف خط رجل لم يشتبه عليه خطه حيث رآه من بين الخطوط المختلفة وحتى يميز بين رسائل كاتب وبين رسائـل غيره ، وكذلك أمر الخطيب [(1)]. وقد يشتبه بعض الكلام لاشتباه الطريقتين وتماثل الصورتين كما قد يشتبه شعر أبي تمام بشعر البحتري في القليل الذي يترك أبو تمام فيه التصنع ويقصد فيه التسهل ، ولكن ذلك لا يخفى تمام الخفاء كما لا يخفى على أحد سبك ابي نواس من سبك مسلم ولا نسج ابن الرومي من نسج البحتري ، وشعر الاعشى من شعر امرئ القيس ، وشعر النابغة من شعر زهير ، وشعر جرير من شعر الاخطل وشعر البعيث من شعر الفرزدق لان لكل منهجـا معروفا وطريقا مألوفا . وكذلك لا يخفى الفصل بين رسائل عبد الحميد وطبقته وبين من بعده ، ولا يشتبه ما بين رسائل ابن العميد ورسائل أهل عصره ومن بعده ممن برع في هذه الصنعة . ولا يخفى على الناقد العالم معرفة سارق الالفاظ ولا سارق المعاني ولا من يخترعها ولا من يلم بها ولا من يجاهر بالاخذ ممن يكاتم

(١) اعجاز القرآن ص ١٢٠

به ولا من يخترع الكلام اختراعا .

وبعد ان تحدث عن هذه المسألة وضرب الامثال قال : « وانما اطلت عليك ووضعت جميعه بين يديك لتعلم ان أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله وغامضه وجليه وقريبه وبعيده ومعوجه ومستقيمه فكيف يخفى عليهم الجنس الذي هو بين الناس متداول وهو قريب متناول من أمر يخرج عن اجناس كلامهم ويبعد عما هو من غرضهم ويفوت مواقع قدرهم . واذا اشتبه ذلك فانما يشتبه على ناقص في الصنعة اوقاصر عن معرفة طرق الكلام الذي يتصرفون فيه ويديرونه بينهم ولا يتجاوزونه فكلامهم سبل مضبوطة وطرق معروفة محصورة » (١) .

فتمييز الكلام من مهمة الناقد العالم الذي يميّز بين الاساليب ويعرف الجيد من الرديء ، وهي مهمة صعبة تحتاج الى عناية وروية وثقافة واسعة ولذلك قال : « إنَّك إذا كنت بصنعة علم اللسان متدربا وفيه متوجها متقدما امكنك الوقوف على ما ذكرنا والنفوذ فيما وضعنا والا فاجلس في مجلس المقلدين وارضَ بمواقف المتحيرين . ونصحت لك حيث قلت : انظر هل تعرف عروق الذهب ومحاسن الجوهر وبدائع الياقوت ودقائق السحر من غير معرفة باسباب هذه الامور ومقدماتها وهل يقطع سمت البلاد من غير اهتداء فيها ولكل شيء طريق يتوصل اليه به وباب يؤخذ نحوه فيه ووجه يؤتى منه ، ومعرفة الكلام أشد من المعرفة بجميع ما وصفت لك واغمض وأدق وألطف وتصويرما في النفس وتشكيل ما في القلب حتى تعلمه وكأنك مشاهده وان كان قد يقع بالاشارة ويحصل بالدلالة والامارة كما يحصل بالنطق الصريح والقول الفصيح . فللاشارات ايضا مراتب وللسان منازل ورب وصف يبر عليه ويتعداه ورب وصف يقصر عنه . ثم اذا صدق الوصف انقسم الى صحة واتقان وحسن واحسان والى اجمال وشرح والى استيفاء وتقريب والى غير ذلك من الوجوه ، ولكل مذهب طريق وله باب وسبيل » (٢) وقد ادرك الباقلاني هذه الحقيقة فنقد الكلام على

(١) اعجاز القرآن ص ١٢٤ .

(٢) اعجاز القرآن ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤ .

استحياء ومسه مسا رقيقا وطاف بفنونه المختلفة ليظهر ان القرآن اروع وان آياته أرفع .

تحليل النصوص :

امتاز الباقلاني عن معاصريه بأنّه نظر الى الكلام نظرة كلية تتخذ من السورة او القصيدة مجالا للعرض والتحليل . وقبل ان يتحدث عن نظم القرآن وتحليل سوره تناول معلقةَ امرئ القيس وقصيدةً للبحتري بالتحليل ليرسم منهجه وسبيله في النقد . وهذه الالتفاتة لا نجدها عند الآخرين الذين انصبت عنايتهم على البيت او البيتين ، وهي التفاتة جديرة بالوقوف والتقدير ، قال غرنباوم : « أجل هنالك تعليقات كثيرة تنصب على بيت بمفرده اوعلى قصائد معينة إلا أنَّ الناحية الجمالية لم تكن الدافع الاول في أية منها ولاول مرة أصبح البحث والتقويم الجماليان الغاية الاولى للنقد الادبي ولكتاب الباقلاني هذا منزلة رفيعة وخاصة اذا عرفنا انه كان رائدا في ذلك » (١) .

لقد أراد الباقلاني أنْ يظهر نظم القرآن وبديع عباراته واسلوبه فعمد الى قصيدة امرئ القيس وبيّن ما فيها من خلل وتفاوت في نظمها ووضع مقياسا دقيقا للموازنة ،ذلك انه لم يختر قصيدة ضعيفة او مهلهلة وانما عمد الى قصيدة مشهورة لها مكانتها في الادب العربي ، ورسم منهجه بقوله : « اذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك فمن سبيلنا ان نعمد الى قصيدة متفق على كبر محلها وصحة نظمها وجودة بلاغتها ورشاقة معانيها واجماعهم على ابداع صاحبها فيها مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصناعة والمعروفين بالحذق في البراعة فنقفك على مواضع خللها وعلى تفاوت نظمها وعلى اختلاف فصولها وعلى كثرة فضولها وعلى شدة تعسفها وبعض تكلفها وما تجمع من كلام رفيع يقرن بينه وبين كلام وضيع ، وبين لفظ سوقي يقرن بلفظ ملوكي » . (٢) ومهد لنقده بعبارات تحدث فيها عن جودة

---

(١) دراسات في الادب العربي ص ١٠١ .

(٢) اعجاز القرآن ص ١٥٦ .

شعر امرئ القيس وبراعته وتصرفه في فنون القول لكي يطرد عن نفسه الشبهة ويظهر نفسه في موقف المنصف الذي لا يتعصب للشيء او عليه . ثم بدأ بنقد القصيدة بيتا بيتا او بيتين بيتين موضحا ما فيها من خلل اوعيوب اوابتذال في المعنى واللفظ او حشو او اسفاف مستعينا بثقافته الواسعة وذوقه الرفيع ومعرفته لفنون البلاغة . قال عن اول القصيدة :

قِفا نَبْكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزِلِ ... بسقط اللّوى بين الدخول فحوملِ
فتوضح فالمقراه لم يَعْفُ رسْمُها ... لما نسجتها من جنوب وشمألِ

« الذين يتعصبون له ويدعون محاسن الشعر ويقولون هذا من البديع لانه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر العهد والمنزل والحبيب وتوجع واسترجع كله في بيت ونحو ذلك وانما بينا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن ان كانت ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة ان وجدت . تأمل ـ ارشدك الله وانظر هداك الله ـ أنت تعلم انه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعرا ولا تقدم به صانعا . وفي لفظه ومعناه خلل . فأول ذلك انه استوقف من يبكي لذكر الحبيب وذكراه لا تقتضي بكاء الخلي وانما يصح طلب الاسعاد في مثل هذا على ان يبكي لبكائه ويرق لصدقه في شدة برحائه فاما ان يبكي على حبيب صديقه وعشيق رفيقه فأمر محال . فان كان المطلوب وقوفه وبكاؤه ايضا عاشقا صح الكلام من وجه وفسد المعنى من وجه آخر ، لانه من السخف ان لا يغار على حبيبه وان يدعو غيره الى التغازل عليه والتواجد معه فيه . ثم في البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الاماكن من الدخول وحومل وتوضح والمقراة وسقط اللوى ، وقد كان يكفيه ان يذكر في التعريف بعض هذا ، وهذا التطويل اذا لم يفد كان ضربا من العي . ثم ان قوله « لم يَعْفُ رَسْمُها » ذكر الاصمعي من محاسنه انه باق فنحن نحزن على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا . وهذا بأن يكون من مساويه اولى لانه ان كان صادق الود فلا يزيده عفاء الرسوم الا جدة عهد وشدة وجد . وانما فزع الاصمعي الى افادته هذه الفائدة خشية ان يعاب عليه فيقال : أي فائدة لان يعرفنا انه لم يعف رسم منازل حبيبته وأي معنى لهذا الحشو

فذكر ما يمكن ان يذكر ولكن لم يخلصه بانتصاره له من الخلل .

ثم في هذه الكلمة خلل آخر لانه عقب البيت بان قال : « فهل عند رسم دارس من معول » فذكر ابو عبيدة أنه رجع فاكذب نفسه كما قال زهير :

قف بالديارِ التي لم يَعْفُها القِـدَمْ   نَعَمْ وغَيَّرها الأرواحُ والدِّيَـمُ

وقال غيره : أراد بالبيت الاول انه لم ينطمس أثره كله وبالثاني انه دهب بعضه حتى لا يتناقض الكلامان . وليس في هذا انتصار . لان معنى : عفا ودرس واحد . فاذا قال : « لم يعف رسمها » ثم قال : « قد عفا » فهو تنافض لا محالة . واعتدار ابي عبيدة أقرب لو صح . ولكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك كما قاله زهير فهو الى الخلل أقرب .

وقوله : « لما نسجتها » كان ينبغي ان يقول : « لما نسجها » ولكنه تعسف فجعل « ما » في تأويل تأنيث لانها في معنى الريح . والاولى التذكير دون التأنيث وضرورة الشعر قد قادته الى هذا التعسف . وقوله : « لم يعف رسمها » كان الاولى ان يقول : « لم يعف رسمه » لانه ذكر « المنزل » فان كان رد ذلك الى هذه البقاع والاماكن التي المنزل واقع بينها فذلك خلل لانه انما يريد صفة المنزل الذي نزله حبيبه بعفائه اوبأنه لم يعف دون ما جاوره . وان اراد بالمنزل الدار التي أنث فذلك أيضا خلل . ولوسلم من هذا كله وما نكره ذكره كراهية التطويل لم نشك في ان شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين بل يزيد عليهما ويفضلهما » (١) .

ونقد الابيات الاخرى بهذا الاسلوب وتعرض لكثير من القضايا اللفظية والمعنوية واللغوية والنحوية والبلاغية . ونقده هذا يدل على تعمق وادراك . ويمكن ان نجمل ما أورده في القصيدة في :

١) صحة المعنى وفساده ، فكثير من معاني امرئ القيس معروفة متداولة .
٢) الحشو في الابيات .

---

(١) اعجاز القرآن ص ١٦٠ ـ ١٦٢ .

٣) عدم الصدق في الكلام على عواطفه واحاسيسه .
٤) التنافض في المعاني والافكار .
٥) الخروج عن اسلوب العرب في اللغة والنحو .
٦) عدم توفر المعنى البديع وحسن اللفظ في القصيدة دائما .
٧) الحروج على بناء العبارة بناءً سليماً .
٨) التكلف .
٩) انقطاع المصراع الثاني عن الاول في بعض الابيات .
١٠) الضرورات الكثيرة التي افسدت القصيدة .
١١) الحديث عن سفاهاته وتبجحه وتفحشه .
١٢) التشبيهات والاستعارات ليست كلها من البديع الجيد .
١٣) التكرار غير المفيد .
١٤) انحطاط الصنعة في القصيدة .
١٥) عدم ارتباط الابيات .
١٦) التفاوت في العبارات من حيث القوة والضعف .
١٧) التفاوت في الالفاظ بين الرقة والجفاف والفصاحة والغرابة .

ومما يحمد له انه لم يتحدث عن العيوب فحسب وانما أشار الى الابيات البديعة والمعاني المقبولة ، من ذلك قوله في البيت :

إذا ما الثّرَيّا في السماءِ تَعَرَّضَتْ تعرُّضَ أَثنـاءِ الوشاحِ المفصَّـلِ

« قد أنكر عليه قوم قوله : « اذا ما الثريا في السماء تعرضت » وقالوا : الثريا لا تتعرض حتى قال بعضهم سمى الثريا وانما اراد الجوزاء لانها تعرض والعرب تفعل ذلك كما قال زهير : « كأحمر عاد » وانما هو احمر ثمود. وقال بعضهم في تصحيح قوله : انما تعرض اول ما تطلع وحين تغرب كما أن الوشاح اذا طرح يلقاك بعرضه وهو ناحيته ... والاشبه عندنا ان البيت غير معيب من حيث عابوه وانه من محاسن هذه القصيدة [1] وقال : « اعلم ان هذه القصيدة قد ترددت

---

(١) اعجاز القرآن ص ١٧٢ ـ ١٧٣

بين أبيات سوقية مبتذلة وأبيات متوسطة وأبيات ضعيفة مرذولة وأبيات وحشية غامضة مستكرهة وأبيات معدودة بديعة » ثم قال : « وقد بينا لك ان هذه القصيده ونظائرها تتفاوت في ابياتها تفاوتا بينا في الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والاستصعاب والتسهل والاسترسال والتوحش والاستكراه . وله شركاء في نظائرها ومنازعون في محاسنها ومعارضون في بدائعها ... وهذا القدر يكفي في كتابنا ولم نحب ان ننسخ لك ما سطره الادباء في خطأ امرئ القيس في العروض والنحو والمعاني وما عابوه عليه في اشعاره وتكلموا به على ديوانه » (1) .

واختار قصيدة مشهورة للبحتري وطبق عليها منهجه السابق فقال عن البيتين :

أهلاً بذلِكُمُ الخيالِ المُقْبِلِ	فَعَل الذي نَهْواه أو لم يَفْعَلِ
بَرْقٌ سَرى في بَطْنِ وجرةَ فاهتد	ت بسناه أعناقُ الركابِ الضُلَّلِ

« البيت الاول في قوله « دلكم الخيال » ثقل روح وتطويل وحشو . وغيره أصلح له . وأخف منه قول الصنوبري :

أهلاً بذاك الزور من زور	شَمْسٌ بَدَتْ في فَلَكِ الدور

وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف او نقصان حرف فيصير الى الكزازة وتعود ملاحته بذلك ملوحة وفصاحته عيّاً وبراعته تكلفا وسلاسته تعسفا وملاسته تلويا وتعقدا ، فهذا فصل . وفيه شيء آخر وهو ان هذا الخطاب انما يستقيم مهما خوطب به الخيال حال اقباله ، فأما ان يحكي الحال التي كانت وسلفت على هذه العيادة ففيه عهدة ، وفي تركيب الكلام عن هذا المعنى عقدة ، وهو لبراعته وحذقه في هذه الصنعة يعلق نحو هذا الكلام ولا ينظر في عواقبه لان ملاحة قوله تغطي عيون الناظرين فيه نحو هذه الامور . ثم قوله « فعل الذي نهواه او لم يفعل » ليست

(1) اعجاز القرآن ص ١٨٢ - ١٨٣

بكلمة رشيقة ولا لفظة ظريفة وان كانت كسائر الكلام . فأما بيته الثاني فهو عذب الموقع في البهجه وبديع المأخذ حسن الرواء انيق المنظر والمسمع يملأ القلب والفهم ويفرح الخاطر وتسري بشاشته في العروق. وكان البحتري يسمي نحو هذه الابيات « عروق الذهب » وفي نحوه ما يدل على براعته في الصناعة وحذقه في البلاغة .

ومع ذلك كله فيه ما نشرحه من الخلل مع الديباجة والرونق المليح . وذلك انه جعل الخيال كالبرق لاشراقه في مسراه كما يقال انه يسري كنسيم الصبا فيطيب ما مر به كذلك يضيء ما مر حوله وينور ما مر به . وهذا غلو في الصنعة الا ان ذكره « بطن وجرة » حشو وفي ذكره خلل . لان النور القليل يؤثر في بطون الارض وما اطمأن منها بخلاف ما يؤثر في غيرها فلم يكن من سبيله ان يربط ذلك ببطن وجرة . وتحديده المكان على الحشو أحمد من تحديد امرئ القيس من ذكر « سقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة » لم يقنع بذكر حد حتى حده بأربعة حدود كأنه يريد بيع المنزل فيخشى ان أخل بحد ان يكون بيعه فاسدا او شرطه باطلا . فهذا باب . ثم انما يذكر الخيال بخفاء الاثر ودقة المطلب ولطف المسلك . وهذا الذي ذكر يضاد هذا الوجه ويخالف ما وضع عليه اصل الباب » .

ثم قال : « فاما قول البحتري بعد ذلك :

من غادةٍ مَنعت وتمنع غيرهـــا	فلو انَّها بَذَلت لـنا لم تبــــذلِ
كالبدر غـير مخيـلٍ والغصنِ غير مميـلٍ	والـدعصِ غـير مهيــــلِ

فالبيت الاول على ما تكلف فيه من المطابقة وتجشم الصنعة الفاظه أوفر من معانيه وكلماته أكثر من فوائده . وتعلم ان القصد وضع العبارات في مثله ولو قال : هي ممنوعة مانعة كان ينوب عن تطويله وتكثيره الكلام وتهويله ، ثم هو معنى متداول مكرر على كل لسان . وأما البيت الثاني فأنت تعلم ان التشبيه بالبدر والغصن والدعص أمر منقول متداول ولا فضيلة في التشبيه بنحو ذلك وانما يبقى تشبيهه ثلاثة اشياء بثلاثة اشياء في البيت وهذا ايضا قريب لان المعنى مكرر ويبقى له بعد

دلك شيء آخر وهو تعمله للترصيع في البيت كله . إلا ان هده الاستثناءات فيها ضرب من التكلف لان التسبيه بالغصن كاف فادا راد فقال : كالغصن غير معوج . كان دلك من باب التكلف خللا وكان ذلك زيادة يستغنى عنها . وكذلك قوله « كالدعص غير مهيل » لانه اذا انهال خرج عن ان يكون مطلق التشبيه مصروفا اليه فلا يكون لتقييده معنى » [1] .

ونقد ابيات القصيدة بهذا الاسلوب وتحدث عما فيها من حشو واختلال في المعنى والنظم وتعقيد واشتراك في المعاني كما اشار الى ما فيها من جودة . ويمكن ان نجمل ما ذكر من ملاحظات في :

١ ـ ثقل الروح .
٢ ـ التعقيد .
٣ ـ ليس في بعض الالفاظ رشاقة .
٤ ـ الغلو في الصنعة والتكلف في المطابقة
٥ ـ الحشو .
٦ ـ مخالفة ما عرف وذكر المعاني بما هو ضدها في المألوف .
٧ ـ تكرار التشبيهات المعروفة .
٨ ـ التكلف والتعسف .
٩ ـ عدم صلة بيت بآخر . وهولا يحسن الخروج في عامة شعره .
١٠ ـ الاضطراب بالتأخير والتقديم .
١١ ـ بعض جناساته واستعاراته وصوره البيانية غير بديعة .

هذه ملاحظاته العامة على القصيدة ولم يمنعه اعجابه بالبحتري ان يبدي هذا الرأي فيه . واعجابه به كثير من ذلك قوله : « ونحن وان كنا نفضل البحتري بديباجة شعره على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه نقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة الفاظه وقلة تعقد قوله » ودافع عن بعض هفواته ووقوف الالفاظ

(١) اعجاز القرآن ص ٢٠٠ ـ ٢٢٣ .

به عن تمام الحسنى وقعود العبارات عن الغاية القصوى . وانتهى الى ان الموازنة لا تصح الا بين شاعرين من طبقة واحدة ومن عصر واحد . قال « وانما يوازن شعر البحتري بشعر شاعر من طبقته ومن أهل عصره ومن هو في مضماره او في منزلته » [1]. واقتصر على قصيدة البحتري لان الكتاب يفضلونه على أهل دهره ويقدمونه على من في عصره ومنهم من يدعي له الاعجاز.

وطبق على كتاب الله هذا المنهج فحلل الآيات وأوضح ما فيها من روعة النظم وجودة التأليف مما لا يقدر عليه أحد . قال : « فاما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فان العقول تتيه في جهته وتحار في بحره وتضل دون وصفه » [2]. ودعا الى أن تدرس السورة كلها لتتضح الصورة وتكمل فان ذلك أدعى الى تبيان الاعجاز قال : « فاذا كانت الآية تنتظم البديع وتتألف من البلاغات فكيف لا تفوت حد المعهود ولا تجوز شأو المألوف وكيف لا تحوز قصب السبق ولا تتعالى عن كلام الخلق ؟ ثم اقصد الى سورة تامة فتصرف في معرفة قصصها وراع ما فيها من براهينها وقصصها . تأمل السورة التي يذكر فيها النمل وانظر في كلمة كلمة وفصل فصل . بدأ بذكر السورة الى ان بين ان القرآن من عنده فقال : « وانك لتلقى القرآن من لَدُنْ حكيمٍ عليم » ، ثم وصل بذلك قصة موسى ـ عليه السلام ـ وانه رأى نارا فقال لاهله امكثوا « اني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر او آتيكم بشهابٍ قبس لعلكم تَصْطَلون » وقال في سورة طه في هذه القصة : « لعلي آتيكم منها بقبسٍ أوأجدُ على النار هُدىً » وفي موضع « لعلي آتيكم منها بخبرٍ أوجذوةٍ من النار لعلكم تصطلون » قد تصرف في وجوه واتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك ولهذا قال : « فليأتوا بحديث مثله » ليكون أبلغ في تعجيزهم وأظهر للحجة عليهم .وكل كلمة من هذه الكلمات وان انبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها تامة في معناها ، ثم قال : « فلما جاءها نُودي أنْ بورك مَنْ في النارومَنْ حَوْلَها وسبحانَ الله ربِ العالمين » ، فانظر الى ما أجرى

(١) اعجاز القرآن ص ٢٤٣ .

(٢) اعجاز القرآن ص ١٨٣ .

له الكلام من علو أمر هذا النداء وعظم شأن هذا الثناء وكيف انتظم مع الكلام الاول وكيف اتصل بتلك المقدمة وكيف وصل بها ما بعدها من الاخبار على الربوبية وما دل به عليها من قلب العصا حية وجعلها دليلا يدل عليه ومعجزة تهديه اليه . وانظر الى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة ثم ما شفع به هذه الآية وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء . ثم انظر في آية آية وكلمة كلمة هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف فكل كلمة لو افردت كانت في الجمال غاية وفي الدلالة آية فكيف اذا قارنتها اخواتها وضامتها ذواتها مما تجري في الحسن مجراها وتأخذ في معناها . ثم من قصة الى قصة ومن باب الى باب من غير خلل يقع في نظم الفصل الى الفصل وحتى يصور لك الفصل وصلا ببديع التأليف وبليغ التنزيل وان أردت أن تتبين ما قلناه فضل تبين وتتحقق بما ادعيناه زيادة تحقق فان كنت من أهل الصنعة فاعمد الى قصة من هذه القصص وحديث من هذه الاحاديث فعبر عنه بعبارة من جهتك أو اخبر عنه بألفاظ من عندك حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر وتتبين في نظم القرآن الدليل الباهر . ولذلك أعاد قصة موسى في سور وعلى طرق شتى وفواصل مختلفة مع اتفاق المعنى » [1]. واستمر في الحديث عن سورة النمل فقال : « متى تهيأ للآدمي ان يقول في وصف كتاب سليمان ـ عليه السلام ـ بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية : « أنْ لا تعلوا عليَّ وَأتوني مسلمينَ » . والخلوص من ذلك الى ما صارت اليه من التدبير واشتغلت به من المشورة من تعظيمها أمر المستشار ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الالفاظ البديعة والكلمات العجيبة البليغة . ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها : « يأيُّها الملأُ افتوني في أمري ماكنت قاطعةً أمْراً حتى تشهدون » وذكر قولهم « قالوا نحن أولو قوةٍ وأُلو بأسٍ شديدٍ والأَمْرُ اليكِ فانظري ماذا تأمرين » لا تجد في صفتهم أنفسهم أبرع مما وصفهم به . وقوله : « والأمْـرُ اليكِ » تعلم براعته بنفسه وعجيب معناه وموضع اتفاقه في هذا الكلام وتمكـن

(١) اعجاز القرآن ص ١٨٨

الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله : « فانظري ماذا تأمرين » ثم الى هـــدا الاختصار والى البيان من الايجاز فان الكلام يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والايجاز وهذا مما يزيد الاختصار بسطا لتمكنه ووقوعه ويتضمن الايجاز منه تعرفا يتجاوز محله وموضعه ... ثم فكر بعد ذلك في آية آية اوكلمة كلمة في قولــه : « إنَّ الملوك إدا دخلوا قريةً أفسدوها وجَعَلوا أعزَّةَ أهلها أذلةً وكذلك يفعلون » هذه الكلمات الثلاث كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره وكالياقوت يتلألأ بين شذوره . تم تأمل تمكن الفاصلة وهي الكلمة الثالثة وحسن موقعها وعجيب حكمتها وبارع معناها . وان شرحت لك ما في كل آية طال عليك الامر ولكني هد بينت بما فسرت وقررت بما فصلت الوجه الدي سلكت والنحو الذي قصدت والغرض الذي اليه رميت والسمت الذي اليه دعوت ثم فكر بعد ذلك في شيء ادلك عليه وهو تعادل هذا النظم في الاعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة فأجل الرأي في سورة سورة وفاصلة فاصلة وتدبر الخواتم والفواتح والبوادي والمقاطع ومواضع الفصل والوصل ومواضع التنقل والتحول ثم اقض ما أنت قاض » .

وحلل سورة « حم غافر » بهذا الأسلوب الجديد الذي لم نألفه عند نقاد تلك الفترة ، وهو منهج يولي السورة او القصيدة التامة عناية كبيرة وينظر اليها نظرة متكاملة لا تقف عند الجزئيات أو الأبيات أو الفنون البلاغية وانما تتجاوزها الى ما في الكلام من تلاحم وانسجام ونظم دقيق ومعنى رقيق .

الموازنة :

الموازنة عند الباقلاني سبيل معرفة جودة الكلام وروعته وقد اتخذها سبيلا الى تقريب اعجاز القرآن ، وقد رسم هذا المنهج بقوله : « فاذا أردنا ان نقرب عليه أمرا ونفسح له طريقا ونفتح له بابا ليعرف به اعجاز القرآن فانا نضع بين يديه الامثلة ونعرض عليه الاساليب ونصور له كل قبيل من النظم والنثر ونحضره من كل فن من القول شيئا يتأمله حق تأمله ويراعيه حق رعايته فيستدل استدلال

العالم ويستدرك استدراك الناقد ويقع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية الطالع عن الالهية الجامع بين الحكم والحكم والاخبار عن الغيوب والغائبات والمتضمن لمصالح الدنيا والدين والمستوعب لجلية اليقين والمعاني المخترعة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها بالالفاظ الشريفة على تفننها وتصرفها ونعمد الى شيء من الشعر المجمع عليه فبين وجه النقص فيه وندل على انحطاط رتبته ووقوع أبواب الخلل فيه حتى اذا تأمل ذلك وتأمل ما نذكره من تفصيل واعجاز القرآن وفصاحته وعجيب براعته انكشف له واتضح وثبت ما وصفناه لديه ووضح » (1) .

وأول ما يشترطه النظر في نظم القرآن اولا تم في شيء من كلام النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليعرف الفرق بين النظمين والفرق بين الكلامين . وذكر خطبا ورسائل للرسول عليه السلام . وليزيد الامر وضوحا ذكر خطبا للصحابة والبلغاء وقال ان نسجها ونسج ما ذكر من خطب النبي (ص) واحد وسبكها سبك غير مختلف وانما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين وبين شعر الشاعرين ، وذلك أمر له مقدار معروف وحد ينتهي اليه مضبوط . وما فعله منهج عملي لمن يريد ان يكتسب ذوقا وعلما يستطيع بهما ان يميز بين الاساليب المختلفة ، وان يعرف قدر الكلام ويحكم عليه ، وهو بالتالي لا بد ان يؤدي الى الاعتراف بروعة نظم القرآن وخرقه للعادة بعد ان يكون الدارس قد وقف عند كلام العرب وعرف ما فيه من تفاوت واختلاف لا يجده في كتاب الله الذي هو « أعلى منازل البيان وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه من تعديل النظم وسلامته وحسنه وبهجته وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول وتصوره تصور المشاهد وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسنا وبهجة وسناء ورفعة . واذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يذهل ويبهج ويقلق ويؤنس ويطمع ويوئس ويضحك ويبكي ويحزن ويفرح ويسكن

(1) اعجاز القرآن ص ١٢٦ .

ويزعج ويشجي ويطرب ويهز الاعطاف ويستميل نحوه الاسماع ويورث الاريحية والعزة وقد يبعث على بدل المهج والاموال شجاعة وجودا ويرمي المسامع من وراء رأيه مرمى بعيدا وله مسالك في النفوس لطيفة ومداخل الى القلوب دقيقة ، وبحسب ما يترتب في نظمه ويتنزل في موقعه ويجري على سمت مطلعه ومقطعه يكون عجيب تأثيراته وبديع مقتضياته وكذلك على حسب مصادره يتصور وجوه موارده » (١). وهذه اشارة حسنة الى الاثر النفسي للقرآن وما يفعله البيان الرفيع في النفس ، ثم قال : « وقد ينبىء الكلام عن محل صاحبه ويدل على مكان متكلمه وينبه الى عظيم شأن أهله وعلى علو محله . الا ترى ان الشعر في الغزل اذا صدر عن محب كان أرق وأحسن ، واذا صدر عن متعمل وحصل من متصنع نادى على نفسه بالمداجاة وأخبر عن خيبته في المراياة . وكذلك قد يصدر الشعر في وصف الحرب عن الشجاع فيعلم وجه صدوره ويدل كنهه وحقيقته ، وقد يصدر عن المتشبه ويخرج عن المتصنع فيعرف من حاله ما ظن انه يخفيه ويظهر من أمره خلاف ما يبديه وانت تعرف لقول المتنبي :

فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والحَرْبُ والضَّرْبُ والقرطاسُ والقَلَمُ

من الوقع في القلب لما تعلم انه من أهل الشجاعة ما لا تجده للبحتري في قوله :

وأنا الشّجاعُ وقد بَدا لك موقفي بعقرقسى والمشرفية شُهَّدي

والشيء اذا صدر من أهله وبدأ من أصله وانتسب الى ذويه سلم في نفسه وبانت فخامته وشوهد أثر الاستحقاق فيه . واذا صدر من متكلف وبدا من متصنع بان أثر الغربة عليه وظهرت مخايل الاستيحاش فيه وعرف شمائل التحير منه » ، ثم قال : « وانما ذكرت لك هذه الامور لتعلم ان الشيء في معدنه أعز والى مظانه أحسن والى اصله أنزع وبأسبابه أليق وهو يدل على ما صدر منه وينبه ما انتج عنه ويكون قراره على موجب صورته وأنواره على حسب محله ولكل شيء حد ومذهب ولكل كلام سبيل ومنهج » (٢) .

---

(١) اعجار القرآن ص ٢٧٦ .

(٢) اعجاز القرآن ص ٢٧٧

ولا تجوز الموازنة بين القرآن والشعر [1]. اما الموازنة بين شعر وشعر فهو مما يظهر مزايا الكلام وخصائصه ويوضح قيمته الفنية ، وقد وازن الباقلاني بين الحسين بن الضحاك وابي نواس وابن الرومي ، فقد ذكر الحسين انه أنشد ابا نواس قصيدته التي فيها :

وشاطري اللسان مختلق التكريـهِ شابَ المجونَ بالنسكِ
كأنَّه نَصْبَ كأسه قَمَرٌ يكرع في بَعْضِ أنجم الفلكِ

فأنشده أبو نواس بعد أيام قصيدته التي يقول فيها :

أعاذل أعتبتِ الامامَ وأعتبا ... وأعربتِ عما في الضميرِ وأعربا
وقلت لساقيها أجزها فلم أكُنْ ... ليأبى أميرُ المؤمنينَ وأشربا
فجوَّزها عني عقاراً ترى لها ... الى الشرف الاعلى شعاعا مطنبا
إذا عَبَّ فيها شاربُ القوم خلته ... يقبِّلُ في داجٍ من الليل كَوْكبا

فقال له الحسين : يا أبا علي هذه مصالتة . فقال : تظن انه يروى لك معنى وأنا حي .

قال الباقلاني : « فتأمل هذا الاخذ وهذا الوضع وهذا الاتباع ، أما الخليع فقد رأى الابداع في المعنى فاما العبارات فانها ليست على ما ظنه لان قوله « يكرع » ليس بصحيح وفيه ثقل بين وتفاوت . وفيه احالة لان القمر لا يصح تصورا ان يكرع في نجم . واما قول أبي نواس « اذا عب فيها » فكلمة قد قصد فيها المتانة وكان سبيله ان يختار سواها من ألفاظ الشرب ولو فعل ذلك كان املح . وقوله « شارب القوم » فيه ضرب من التكلف الذي لا بد منه او من مثله لاقامة الوزن . ثم قوله : « خلته يقبّل في داجٍ من الليل كوكبا » تشبيه بحالة واحدة من احواله وهي أن يشرب حيث لا ضوء هناك وانما يتناوله ليلا فليس بتشبيه مستوفى على ما فيه من الوقوع والملاحة والصنعة . وقد قال ابن الرومي ما هو أوقع منه وأملح وأبدع :

---

(١) اعجاز القرآن ص ١٥٤ ، ٢١٥ .

ومهفهفٍ تَمَّتْ محاسِنُه ... حتى تُجاوزَ منيةَ النَّفْسِ
تصبو الكؤوسُ الى مَراشفه ... وتحنُّ في يده الى الحَبْسِ
أبصرْتُه والكأسُ بين فَمٍ ... منه وبين أناملٍ خَمْسِ
وكأنَّها وكأنَّ شاربَها ... قَمَرٌ يقبّل عارضَ الشَّمْسِ

ولا شك في أن تشبيه ابن الرومي أحسن وأعجب . الا انه لم يتمكن من إيراده الا في بيتين وهما مع سبقهما الى المعنى أتيا به في بيت واحد » [1] .

البديع :

كان البديع أهم ما درسه النقاد وقد اختلفوا فيه فمنهم من دهب الى الاخذ به وتحكيمه في النقد وايضاح القيمة الفنية للشعر . ومنهم من لم يتخذه اساسا للنقد والحكم على الكلام وانما هو مما يفيد وليس عمدة واصلا . وعقد الباقلاني فصلا في ذكر البديع من الكلام ابتدأه بقوله : « ان سأل سائل فقال : هل يمكن ان يعرف اعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع قيل : ذكر أهل الصنعة ومن صنف في هذا المعنى من صفة البديع الفاظا نحن نذكرها ثم نبين ما سألوا عنه ليكون الكلام واردا على أمر بين وباب مقرر مصور » وتحدث عن البديع وهو عنده مختلف فنون البلاغة ، فمنه قوله تعالى : واخفِضْ لهما جناحَ الذُّلِّ من الرحمة » وقوله : « وإنّه في أُمِّ الكتابِ لدينا لعليٌّ حكيم » ، وهذا ما ذكره ابن المعتز في باب الاستعارة . وقد يكون البديع في الكلمات الجامعة الحكمة كقوله تعالى « ولكم في القِصاص حياةٌ » وفي الالفاظ الفصيحة كقوله : « فلما استيأسوا خلصوا نَجيّا » ، وفي الالفاظ الالهية كقوله : « ليس كمثِله شيءٌ » ومنه في الشعر طرق كثيرة نقل الباقلاني جملة منها لتكون دليلا على ما بعدها كقول امرئ القيس :

وقد أغتدي والطيرُ في وُكناتِها ... بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هَيْكَلِ

(1) اعجاز القرآن ص ٢١٧ ـ ٢١٨

وذكر بعد ذلك فنونا بلاغية كالتشبيه الحسن في قول امرئ القيس :

كأنَّ قلوبَ الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العنّابُ والحَشَفُ البالي

وتشبيه شيئين بشيئين على حسن تقسيم كقول بشار :

كأن مُثارَ النقعِ فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُه

وهو مما سبق اليه امرؤ القيس . لان بشارا لم يتمكن الا من تشبيه احدى الجملتين بالاخرى دون صحة التقسيم والتفصيل . ومن التشبيه الحسن في القرآن قوله تعالى : « وله الجواري المنشآت في البحر كالاعلام » .

ومن البديع في الاستعارة قول امرئ القيس :

وليلٍ كموجِ البحر أرْخَى سدولَه عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي
فقلتُ له لما تمطَّى بصلْبه وأرْدَف أعجازاً وناءَ بكلكل

وذكر ألوانا أخرى من البديع كالغلو والافراط في الصفة والمماثلة والمطابقة والتجنيس والمقابلة والموازنة والمساواة والاشارة والمبالغة والغلو والايغال والتوشيح ورد عجز الكلام على صدره وصحة التقسيم وصحة التفسير والتكميل والتتميم والترصيع مع التجنيس والتكافؤ والسلب والايجاب والعكس والتبديل والالتفات والتذييل والاستطراد والتكرار والاستثناء واكتفى بهذه الوجوه لانها كثيرة جدا ، ولان الغرض ليس ذكر أبواب البديع كلها .

ومنهجه في بحث هذه الموضوعات يقوم على تعريف الفن والاستشهاد بالآيات الكريمة وكلام العرب البليغ ولا يكتفي بذكر الامثلة وانما يصب اهتمامه على التعبير القرآني ويقارنه باساليب العرب ، وبذلك جمع في هذه الدراسة الطريفة البلاغة بما فيها التعريف والتقسيم والنقد والتحليل .

ولا يرى الباقلاني ان القرآن معجز بهذه الفنون البلاغية لان هذه الوجوه اذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل اليها بالتدريب والتعود والتصنع لها ، وذلك كالشعر

الذي اذا عرف الانسان طريقه صح منه التعمل له وأمكنه نظمه . قال : « والوجوه التي نقول ان اعجاز القرآن يمكن ان يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل اليه بحال » (١) . وأوضح هذه الفكرة بأن ضرب مثلا بالمحدثين الذين تصنعوا لابواب الصنعة وحسوْا جميع شعرهم منها واجتهدوا ان لا يفوتهم بيت الا وفيه فن بديعي كما صنع ابو تمام في لاميته :

متى أنْتَ عن ذهليّةِ الحي داهِلُ	وصدرُك منها مُدَّةَ الدَّهْرِ آهِلُ
تطلُّ الطلولُ الدمعَ في كل موقفٍ	وتمثلُ بالصبر الديارُ المواثلُ
دوارسُ لم يَجْفُ الربيعُ ربوعَها	ولا مَرَّ في اغفالها وهو غافِلُ
فقد سَحَبَتْ فيها السحابُ ذيولَها	وقد أخملت بالنور تلك الخمائلُ
تعفَّيْنَ من زادِ العفاة إذا انتحى	على الحيّ صَرْفُ الأَزْمَةِ المتماحِلُ
لهم سلفٌ سمْرُ العوالي وسامِرٌ	وفيهم جمالٌ لا يفيض وجامِلُ
من الهيف لو أَنَّ الخلاخيلَ صُيِّرتْ	لها وشحاً جالت عليه الخلاخِلُ
مها الوحشِ إلاَّ أَنَّ هاتا أو انِسٌ	قَنا الخطِّ إلاَّ أَنَّ تلك ذوابِلُ
هَوى كان خلساً إِنَّ من أطيب الهوى	هَوًى جلت في أفيائه وهو خامِلُ

ومن الادباء من عاب هذه الابيات ونحوها على ما تكلف فيها من البديع وتعمل الصنعة ، وليس كذلك البحتري فانه لا يرى في التجنيس ما يراه ابو تمام ويقل التصنع له فاذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسنا رشيقا وظريفا جميلا ، وتصنعه للمطابق حسن كثير وتعمقه في وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلاسة فلذلك يخرج سليما من العيب في الاكثر (٢) . فالباقلاني في هذا الرأي تابع الذين تمسكوا بعمود الشعر وأنكروا على ابي تمام بديعه وما في شعره من صنعة وتعمل ، ولذلك لا يرى في وجوه البديع ما يفسر الاعجاز لان « هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب والتصنع له كقول الشعر ورصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق في البلاغة ،

(١) اعجاز القرآن ص ١٠٧ .

(٢) اعحاز القرآن ص ١٠٨ ـ ١١٠.

وله طريق يسلك ووجه يقصد وسلم يرتقى فيه اليه ومثال قد يقع طالب عليه . فرب انسان يتعود ان ينظم جميع كلامه شعرا وآخر يتعود ان يكون جميع خطابه سجعا او صنعة متصلة لا يُسْقِط من كلامه حرفا وقد يتأتى لما قد تعوده . وانت ترى ادباء زماننا يضعون المحاسن في جزء وكذلك يؤلفون انواع البارع ثم ينظرون فيه إذا أرادوا انشاء قصيدة أو خطبة فيحسنون به كلامهم ـ ومن كان قد تدرب وتقدم في حفظ ذلك استغنى عن هذا التصنيف ولم يحتج الى تكلف هذا التأليف وكان ما أشرف عليه في هذا الشأن باسطا من باع كلامه وموشحا بانواع البديع وما يحاوله من قوله . وهذا طريق لا يتعذروباب لا يمتنع ، وكل يأخذ فيه مأخذا او يقف منه موقفا على قدرما معه من المعرفة وبحسب ما يمده من الطبع . فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا امام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا كما يتفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب والشيء القليل العجيب » [1] .

والبديع عنده باب من أبواب البراعة وجنس من أجناس البلاغة وانه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغات العرب ولا وجه من وجوه فصاحاتهم ، واذا أورد هذا المورد ووضع هذا الموضع كان جديرا ، ولكنه لا يجعل الاعجاز متعلقا بهذه الوجوه الخاصة ووقفا عليها ومضافا اليها وان صح ان تكون مؤثرة في الجملة آخذة بحظها من الحسن والبهجة متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستبشع والتعمل المستشنع .

وعقد الباقلاني في خاتمة كتابه « اعجاز القرآن » فصلا في وجوه البلاغة وقال ان بعض أهل الأدب والكلام ذكر ان البلاغة على عشرة أقسام : الايجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين والمبالغة ، وحسن البيان . وهذه أقسام الرماني نقلها من غير أنْ يذكر

(١) اعجاز القرآن ص ١١١ ـ ١١٢

اسمه وسماه « بعض أهل الادب والكلام » وردَّ عليه لأنّه أخذ إعجاز القرآن من هذه الوجوه فان التشبيه تعرف به البلاغة « وذلك مسلم ولكن ان قلنا ما وقع من التشبيه معجز عرض علينا من التشبيهات الجارية في الاشعار ما لا يخفى عليك وأنت تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر وقد تتبع في هذا ما لم يتتبع غيره واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء . وكذلك كثير من وجوه البلاغة قد بينا ان تعلمها يمكن وليس تقع البلاغة بوجه واحد منها دون غيره . فان كان انما يعني هذا القائل انه اذا أتى في كل معنى يتفق في كلامه بالطبقة العالية ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض وينتهي منه الى متصرفاته على أتم البلاغة وأبدع البراعة فهذا مما لا نأباه بل نقول به ، وانما ننكر ان يقول قائل ان بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الاعجاز من غير ان يقارنه ما يصل به من الكلام ويفضي اليه مثل ما يقول ان ما أقسم به وحده بنفسه معجز وان التشبيه معجز وان التجنيس معجز والمطابقة بنفسها معجزة . فاما الآية التي فيها ذكر التشبيه فان ادعى اعجازها لالفاظها ونظمها وتأليفها فاني لا أدفع ذلك وأصححه ولكن لا أدعي اعجازه لموضع التشبيه » (١). ثم قال : « وما حكينا من صاحب الكلام من المبالغة في اللفظ فليس ذلك بطريق الاعجاز لان الوجوه التي ذكرها قد تتفق في كلام غيره وليس ذلك بمعجز بل قد يصح ان يقع في المبالغة في المعنى والصفة وجوه من اللفظ تثمر الاعجاز وتضمين المعاني ايضا قد يتعلق به الاعجاز اذا حصلت للعبارة طريق البلاغة في أعلى درجاتها » (٢)، وكذلك الفنون الاخرى يمكن ان تدخل في الاعجاز اذا بلغت ذروة البلاغة ، اما كما ذكرها الرماني فلا يمكن ان تتخذ اساسا ولذلك وصفه الباقلاني بأنّه لا يعرف من البلاغة الا القليل ولا يفطن منها الا لليسير (٣) .

واستدلَّ بتفاوت الشعراء والخطباء والكتاب في كلامهم على إعجاز القرآن وان أحدهم لو استطاع ان يأتي بكلامه في غاية الابداع لامكن ان يدعي فيه

---

(١) اعجاز القرآن ص ٢٧٥ - ٢٧٦
(٢) اعجار القرآن ص ٢٨٥
(٣) اعجاز القرآن ص ٣٠٠

الاعجاز ولكن القدر الذي يفوت الحد في البيان ويتجاوز الوهم ويشذ عن الصنعة ويقذفه الطبع في النادر القليل كالبيت البديع والقطعة الشريفة التي تتفق في ديوان شاعر والفقرة تتفق في رسالة كاتب حتى يكون الشاعر ابن بيت او بيتين أو قطعة او قطعتين والاديب شهير كلمة اوكلمتين ، ذلك امر قليل ولوكان كلامه يطرد على ذلك المسلك ويستمر على ذلك المنهج أمكن ان يدعى فيه الاعجاز ، ولكنك ان كنت من أهل الصنعة تعلم قلة الابيات الشوارد والكلمات الفرائد وامهات القلائد فان اردت ان تجد قصيدة كلها وحشية وأردت ان تراها مثل بيت من أبياتها مرضية لم تجد ذلك في الدواوين ولم تظفر بذلك إلى يوم الدين . ونحن لم ننكر ان يستدرك البشر كلمة شريفة ولفظة بديعة وانما انكرنا ان يقدروا على مثل نظم سورة او نحوها وأحلنا ان يتمكنوا من حد في البلاغة ومقدار في الخطابة . وهذا كما قلناه من أن صورة الشعر قد تتفق في القرآن وان لم يكن له حكم الشعر » .

وقال : « فان قيل : فاذا كان يجوز عندكم ان يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة تباين جميع ديوانه في البلاغة ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه ولا يعرف سبب ذلك البيت ولا تلك القطعة في التفصيل ولو أراد ان يأتي بمثل ذلك اويجعل جميع كلامه من ذلك النمط لم يجد الى ذلك سبيلا وله سبب في الجملة وهو التقدم في الصنعة لانه يتفق من المتأخر فيها ـ فهلا قلتم انه إذا بلغ في العلم بالصناعة مبالغه القصوى كان جميع كلامه من نمط ذلك البيت وسمت تلك القطعة ! وهلا قلتم : ان القرآن من هذا الباب فالجواب انا لم نجد أحدا بلغ الحد الادنى الذي وصفتم في العادة ، وهذا الناس وأهل البلاغة اشعارهم عندنا محفوظة وخطبهم منقولة ورسائلهم مأثورة وبلاغتهم مروية وحكمهم مشهورة وكذلك أهل الكهانة والبلاغة مثل قس بن ساعدة وسحبان وائل ومثل شق وسطيح وغيرهم ..كلامهم معروف عندنا وموضوع بين أيدينا لا يخفى علينا في الجملة بلاغة بليغ ولا خطابة خطيب ولا براعة شاعر مفلق ولا كتابة كاتب مدقق . فلما لم نجد في شيء من ذلك ما يداني القرآن في البلاغة اويشاكله في الاعجاز مع ما وقع من التحدي اليه المدة الطويلة وتقدم من التقريع في المجازاة الامد المديد وثبت له وحده قصب السبق والاستيلاء على الامد وعجز الكل عنه ووقفوا دونه حيارى

يعرفون عجزهم وان جهل قوم سببه ويعلمون في نقصهم وان أغفل قوم وجهه . رأينا انه ناقض للعادة ورأينا انه خارق للمعروف في الجبلة » (١) .

ومن فنون البلاغة التي أشار اليها حسن الانتقال وهو ما لا يحسنه البحتري وان اتفق له في مواضع معدودة خروج يرتضى وتنقل يستحسن (٢) . والسرقات ولكنه لم يقف عندها كمعاصريه بل لمح اليها حينما تحدث عن فنون البديع واشار الى المعاني المأخوذة من السابقين ، وحينما تحدث عن معرفة سارق الالفاظ وسارق المعاني ومن يخترعها ومن يلم بها ومن يجاهر بالاخذ ممن يكاتم به ، وأولى سرقات ابي تمام عناية واضحة ، وسرقات البحتري منه .

هذه جهود الباقلاني في البلاغة والنقد ويتضح أنّه كان في دراساته ناقداً كبيراً لم يعرف القرن الرابع مثله ، لانه لم يقف عند الجزئيات كما كان يفعل غيره ، ولم يستهوه البديع الذي هام به الشعراء والنقاد وانما نظر الى السورة والقصيدة والخطبة والرسالة نظرة متكاملة وحلّلها تحليلا بديعا ووقف عندها موضحاً ما فيها من جمال منبهاً الى ما لها من تأثير في النفوس ، وبذلك يظل هذا الناقد خير ممثل للدراسات القرآنية التي عنيت بالاعجاز وأظهرت بلاغة كتاب الله متخذة لها نقد كلام العرب والحديث عن فنونه وأهدافه سبيلا .

---

(١) اعجاز القرآن ص ٢٨٥ وما بعدها .

(٢) اعجاز القرآن ص ٣٨ .

النَّقْدُ وَأبو تَمَّامْ

الاتِّجاهُ الثَّالِثُ

الصراع

كان العصر العباسي ميداناً لظهور كثير من الاتجاهات الشعرية التي كانت تتسم بالتجديد بعد أنْ شهدت الحياة العربية طوراً جديداً لم تألفه من قبل في الترف والتقاء الحضارات . وحمل الشعراء دعوة التجديد واتخذها الكثيرون سبيلا لهم في فنون قصائدهم وأغراضها فكانت سمة المجددين الذين وقفوا من القديم موقفا فيه كثير من التحدي والخروج عليه . وكان التجديد يتجلى في أمور أهمها :

١ ــ الصياغة .
٢ ــ الموضوعات .
٣ ــ الأعاريض والاوزان .

واهتم بعضهم بهذا التجديد وأولى المحدثين عناية كبيرة فالمبرِّد مثلا ألف كتاب « الروضة » واختار فيه من الشعر المحدث ، وفعل مثله هارون بن علي المنجم في كتابه « البارع » وابن المعتز في « طبقات الشعراء ». وجمع بعضهم دواوين الشعراء المحدثين فصنع احمد بن أبي طاهر طيفور شعر بكر بن النطاح ودعبل ومسلم والعتابي ومنصور النمري وأبي العتاهية وبشار ، وعمل الصولي ديوان ابن الرومي وأبي تمام والبحتري وأبي نواس والعباس بن الاحنف وعلي بن الجهم وابن طباطبا وابراهيم بن العباس وابن عُيينة وابن شراعة والصنوبري ودعبل بن علي الخزاعي وابن المعتز ومسلم بن الوليد .

وكان من اهتمامهم به ان استشهدوا به في المعاني ، قال ابن جني : « المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الالفاظ » [1]

(١) العمدة ج ٢ ص ٢٣٦

وكان للغويين موقف آخر فقد استهانوا بهذه الحركة ونظروا اليها نظرة فيها كثير من الانكار والارتياب ، يُروى أنَّ اسحاق بن ابراهيم الموصلي أنشد الاصمعي :

هل الى نظرةٍ اليك سبيلُ فيُروَّى الصَّدى ويُشْفَى الغليلُ
إنَّ ما قلَّ منك يكثُرُ عندي وكثيرٌ ممن تُحبُّ القليلُ

فقال الاصمعي : لمن تنشدني فقال : لبعض الأعراب . قال : واللهِ هذا هو الديباج الخسرواني . قال : فانهما لليلتهما . فقال : لا جرم والله ان أثر الصنعة والتكلف بيّنٌ عليهما » (1) .

وكان ابن الأعرابي من أكثر اللغويين والرواة تعصبا على المحدثين ، فقد قال : « إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل أبي نواس وغيره مثل الريحان يشم يوما ويذوي فيُرمى به . وأشعارالقدماء مثل المِسْكِ والعنبركلما حركته ازداد طيبا » (2) . وأنشد شعراً لأبي تمام فقال : « إنّ كان هذا شعراً فما قالته العرب باطل » (3) . وقُرأت عليه أبياتٌ لأبي تمام على أنّها لبعض شعراء هذيل وهي :

وعاذلٍ عَذَلْتُه في عَذْلِهِ فظَنَّ أَنّي جاهلٌ من جَهْلِهِ

فقال لقارئها : اكتب لي هذه ، فكتبها له . قال له : أحسنة هي ؟ قال : ما سمعت بأحسنَ منها . قلت : إنّها لابي تمام . فقال : خَرِّق خَرِّقْ (4) .

وتمثّل ذات يوم بشعر المحدثين وهو لا يدري ، قال الصولي : « حدثني علي ابن محمد الأسدي قال : حدثني أحمد بن يحيى ثعلب . قال : وقف ابن الأعرابي على المدائن فقال له : الى أين يا أبا عبدالله ؟ قال : الى الذي هوكما قال الشاعر :

---

(1) الموازنة ج ١ ص ٢٣
(2) الموشح ص ٣٨٤ .
(3) الموشح ص ٤٦٥ ، وأخبار البحتري ص ١٤٧ .
(4) أخبار أبي تمام ص ١٧٥ ، والموازنةج ١ ص ٢٢ .

نَحْمِلُ أشباحَنـا الى مَلِـــــكٍ نأْخُذُ من مالِـه ومـن أَدَبِـــهِ

قال أبو بكر : فتمثل بشعر أبي تمام وهولا يدري ولعله لودرى ما تمثل به ، وكذلك فعل في النوادرجاء فيها بكثير من أشعار المحدثين ولعله لوعلم بذلك ما فعله » (١) .

وذكر الآمدي حجة صاحب البحتري وقال إنَّ الاصمعي وابن الأعرابي لم يستهجنا شعر أبي تمام واسحاق بن ابراهيم الموصلي لانهما لمحدثين وانما لما فيهما من تقليد ، ولوجاء شعرهما من أعرابي لقبلاه لانه يمثل الاصالة ويعبر عن الاحساس الصادق ، أما أن يأتي أبو تمام او الموصلي فينظمان شعراً ينحوانِ فيه منحى الأعراب فهذا مما لا يقبله الرجلان ولذلك ينبغي ان نخفف من اتهام امثال الاصمعي وابن الاعرابي من التعصب على أبي تمام ، لانَّ الذي يورده الأعرابي وهو محتذ على غير مثال أحلى في النفوس وأشهى الى الاسماع وأحق بالرواية والاستجادة مما يورده المحتذي على الامثلة .وعذر ابن الأعرابي في هذا واضح . والاصمعي غير ظالم لان اسحاق مع علمه بالشعر وكثرة روايته لا ينكر ان يورد مثل هذا لانه يقوم في النفس انه قد احتذاه على مثال وأخذه عن متقدم وانما يستطرف مثله من الاعرابي الذي لا يعول الا على طبعه وسليقته (٢) .

ونشأ من ذلك صراع بين القديم والجديد ، وهذا الصراع من طبيعة الحياة التي تأبى التوقف والجمود ، وقد شهدت الآداب كلها مثل هذا الصراع لان معناه الحياة والانطلاق .

وحينما كان الصراع قائما بين القدماء والمحدثين كان النقاد يحددون خصائص الشعر القديم ويوضحون سمات الشعر الجديد ، وقد قال ابن طباطبا عن الاول : « ومع هذا فان من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء وفي صدر الاسلام من الشعراء كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحا وهجاء وافتخارا ووصفاً وترغيبا وترهيبا الا ما قد احتمل الكذب فيه في كلم

(١) أخبار أبي تمام ص ١٧٧ .
(٢) الموازنة ج ١ ص ٢٣ ـ ٢٤ .

الشعر من الاغزاق في الوصف والافراط في التشبيه وكان مجرى ما يوردونه منه مجرى القصص الحق والمخاطبات بالصدق ، » وقال عن الثاني : « والشعراء في عصرنا إنما يحابون على ما يستحسن من لطيف ما يوردونه من أشعارهم وبديع ما يغربونه من معانيهم وبليغ ما ينظمونه من ألفاظهم ومضحك ما يوردونه من نوادرهم وأنيق ما ينسجونه من وشي قولهم دون حقائق ما يشتمل عليه من المدح والهجاء وسائر الفنون التي يصرفون القول فيها .. وأشعارهم متكلفة غير صادرة عن طبع صحيح كأشعار العرب التي سبيلهم في منظومها سبيلهم في منثور كلامهم الذي لا مشقة عليهم فيه » (١) . وقال الصولي : « إنَّ الفاظ المحدثين منذ عهد بشار الى وقتنا هذا كالمنتقلة الى معان أبدع وألفاظ أقرب وكلام أرق وان كان السبق للاوائل بحق الاختراع والابتداء والطبع والاكتفاء وانه لم ترأعينهم ما رآه المحدثون فشبهوه عيانا كما لم ير المحدثون ما وصفوه هم مشاهدة وعانوه مدة دهرهم من ذكر الصحاري والبر والوحش والابل والاخبية . فهم في هذه أبداً دون القدماء كما ان القدماء فيما لم يروه أبدا دونهم . وقد بَيَّنَ هذا أبو نواس بقوله :

صِفَةُ الطلولِ بلاغةُ القَدْمِ ... فاجعل صفاتِك لابنةِ الكَرْمِ (٢)

ثم يقول فيها :

تَصِفُ الطلولَ على السماعِ بها ... أَفذو العيان كأنْتَ في الفَهْمِ
وإذا وصفْتَ الشيءَ متَّبعاً ... لم تَخْلُ من زَلَلٍ ومن وَهَمِ

ولان المتأخرين انما يجرون بريح المتقدمين ويصبّون على قوالبهم ويستمدون بلعابهم وينتجعون كلامهم وقلما أخذ واحد منهم معنى من متقدم الا اجاده. وقد وجدنا في شعر هؤلاء معاني لم يتكلم القدماء بها ومعاني أومأوا اليها ، فأتى بها هؤلاء

---

(١) عيار الشعر ص ٩ .

(٢) الفدم : العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم .

وأحسنوا فيها ، وشعرهم مع ذلك أشبه بالزمان والناس له اكثر استعمالا في محالسهم وكتبهم وتمثلهم ومطالبهم » (١) .

وكانت الخصومة بين أنصار البحتري وأبي تمام أهم ما شغل النقاد ، فقد خرج أبو تمام على تقاليد العرب في الشعر وجاء بالجديد الطريف ، وتمسك البحتري الى حد كبير بتلك التقاليد وكان لكل من الشاعرين أنصاره وخصومه ووضعت في ذلك الكتب والدراسات . وكان دعبل بن علي الخزاعي (ـ ٢٤٦ هـ) يتعصب على أبي تمام ولم يعتبره شاعراً بل خطيبا وكان يميل عليه ولم يدخله في كتابه «كتاب الشعراء » ، وكان يقول : « ثلث شعره سرقة وثلثه غث وثلثه صالح » (٢) . واتهمه بالسرقة منه قال : « كان يتتبع معاني فيأخذها » فقال له رجل في مجلسه : ما من ذاك أعزك الله . قال : قلت :

وإنَّ امرءًا أسدى اليَّ بشافعٍ ... اليه ويرجو الشُكرَ مني لأَحْمَقُ
شفيعك فاشكُرْ في الحوائجِ إنَّهُ ... يصونُك عن مكروهِها وهو يَخْلَقُ

فقال له الرجل : فكيف قال أبو تمام ؟ قال : قال :

فلقيتُ بين يديكَ حُلْوَ عطائِه ... ولقيتُ بين يديَّ مُرَّ سؤالِه
وإذا امرؤٌ أَسْدى اليَّ صنيعةً ... من جاهِهِ فكأنَّه من مالِه

فقال الرجل : أحسن والله . فقال : كذبت قبحك الله . فقال : والله لئن كان أخذ هذا المعنى وتبعته فما أحسنت ، وان كان أخذه منك لقد أجاد فصار أولى به منك . فغضب دعبل وقام (٣) .

وكان دعبل يكذب على أبي تمام ويضع عليه الاخبار ، وقد قال رجل للحسن ابن وهب ـ وكان الحسن مفرطا في محبة أبي تمام والتعصب له والذب عنه ـ إنَّ

(١) اخبار أبي تمام ص ١٦ ـ ١٧ .
(٢) الموشح ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦
(٣) أخبار أبي تمام ص ٦٣ ـ ٦٤ ، والموشح ص ٤٥٨ .

أبا تمام سرق من رجل يقال له مكنف من ولد زهير بن أبي سُلمى وهو رجل من الجزيرة ، قصيدته التي يقول فيها :

كأَنَّ بني القعقاعِ يَوْمَ وفاتِـه ... نجومُ سماءٍ خَرَّ من بَيْنِها البَدْرُ
توفيتِ الآمالُ بعد محمدٍ ... وأصْبَحَ في شُغْلٍ عن السَّفَرِ السَّفْرُ

فقال الحسن بن وهب : هذا دعبل حكاه وأشاعه في الناس وقد كذب وشعر مكنف عندي . ثم أمر باخراجه فأُخرجت هذه القصيدة فقرأها الرجل فلم يجد فيها شيئاً مما قال أبو تمام في قصيدته . ثم دخل دعبل على الحسن بن وهب فقال : يا أبا علي بلغني أنك قلت في أبي تمام كيت وكيت ، فهبه سرق هذه القصيدة كلها وقبلنا قولك : سرق شعره كله ، أتحسن ان تقول كما قال :

شَهِدْتُ لقد أَقْوَتْ مغانيكم بَعْدي ... وَمحَّتْ كما محَّتْ وشائِعُ من بُرْدِ
وأَنْجَدْتُمُ من بعد إتهام دارِكم ... فيا دَمْعُ أَنْجدني على ساكني نَجْدِ

فانخزل (١) دعبل واستحيا . فقال له الحسن بن وهب : إنَّ الندم توبة وهذا الرجل قد توفي ولعلك كنت تعاديه في الدنيا حسدا له حظه منها وقد مات الآن وحسبك من ذكره . فقال له : أصدقك يا أبا علي ما كان بيني وبينه شيء الا اني سألته ان ينزل لي عن شيء استحسنته من شعره فبخل به علي ، وأنا الآن أمسك عن غيره . فضحك من قوله واعترافه بما اعترف (٢) . وقد تكون هذه الرواية مفتعلة بهذه الصورة ولكنها تعطي فكرة عما كان يدور في تلك الفترة ، وتوضح ما كان عليه أبو تمام من منزلة عظيمة جعلت أمثال دعبل الشاعر ينظر الى بعض شعره أملاً ان ينحله اياه ، وتصور أيضا العداوة التي كانت تشيع في تلك الاوساط بين الشعراء الكبار .

وممن تعرضوا لأبي تمام قدحاً أومدحا :

---

(١) انخزل : تراجع وفتر .
(٢) اخبار أبي تمام ص ١٩٩ ، وهبة الايام ص ١٤٩ .

ابن أبي طاهر :

احمد بن أبي طاهر طيفور (ـ ٢٨٠ هـ) ممن عُني بالشعراء المحدثين وله كتب في الاختيار منها : شعر بكر بن النطاح ودعبل ومسلم والعتابي ومنصور النمري وأبي العتاهية وبشار ، وله كتاب « المنظوم والمنثور » وهو اختيارات . وكان يحاول أيضاً صنع اختيار لشعر امرئ القيس ولذلك انقطع اياما عن مجلس أبي الحسن علي بن هارون المنجم ، فلما عاد اليه عاتبه على غيابه فذكر له انه كان متشاغلا باختيار شعر امرئ القيس . فأنكر ابو الحسن بن المنجم عليه ذلك وقال له : « أما تستحي من هذا القول وأيُّ مرذول في شعر امرئ القيس حتى تحتاج الى اختياره » [1] .

وكان معجباً بالمحدثين ، قال : « ناظرت أبا علي البصير وكان لا يرضى أبا نواس ولا مسلم بن الوليد ولا من في طريقهما من الشعراء في شعر أبي نواس ، وقلت له : والله لو كان لا يجيد في كل فن قال فيه الا في بيت أو بيتين لكان من المحسنين المتفننين في الاجادة فمن أين تدفعه عن الاحسان ؟ فقال لي : الشعر بين المدح والهجاء وابو نواس لا يحسنهما ، وأجود شعره في الخمر والطرد وأحسن ما فيهما مأخوذ مسروق ، وحسبك من رجل يريد المعنى ليأخذه فلا يحسن ان يعني عليه ولا ينقله حتى يجيء به نسخا » [2] .

وله كتاب « سرقات الشعراء » ، وقد وقف فيه عند سرقات أبي تمام ـ وفي كتاب الموازنة صورة لهذه السرقات ، قال الآمدي : « ووجدت ابن أبي طاهر قد خرج سرقات أبي تمام فأصاب في بعضها وأخطأ في البعض لانه خلط الخاص من المعاني بالمشترك بين الناس مما لا يكون مثله مسروقا » [3] . وقسمها الى ثلاثة أقسام :

١ ـ ما كان صحيح السرقة ، وعدَّدَ منها الآمدي واحداً وثلاثين بيتاً ، من

---

(١) الموشح ص ٤٣ .
(٢) الموشح ص ٤٣٤ .
(٣) الموازنة ج ١ ص ١١٠ .

ذلك قول أبي تمام :

كمـا كـاد يَنْسَى عَهْدَ ظمياء باللّـوى ولكِنْ أملّتـهْ عليـه الحمائِـــمُ

أخذه من قول العتابي :

بكى فاستملَّ الشوق من ذي حمامةٍ أبَتْ في غصون الأيك إلاّ تَرَنُّمَا

٢ ـ مما نسبه الى السرق وليس بمسروق لانه مما يشترك الناس فيه من المعاني ويجري على ألسنتهم ، وذكر من هذا النوع ستة أبيات كقوله :

ألَمْ تمت يا شقيقَ الجودِ من زَمَـــنٍ فقال لي : لم يَمُتْ من لَمْ يمتْ كرمُه

ادعى ابن أبي طاهر انه أخذه من قول العتابي :

رَدَّتْ صنـائِعُـه اليـه حيـاتَـه فكأنَّه مـن نَشْرِهـا مَنْشـورُ

ومثل هذا لا يقال فيه مسروق لانه قد جرى في عادات الناس اذا مات الرجل من أهل الفضل والخير وأثني عليه بالجميل ان يقولوا : ما مات من خلف مثل هذا الثناء ولا من ذكر بمثل هذا الذكر، وذلك شائع في كل امة وفي كل لسان .

وكقولـه :

إذا عنيت بشيءٍ خلت أبي قَـــد أدْركْتُه أدْركتني حِرْفَةُ الأدبِ

قال انه أخذه من قول الخريمي :

أدركتـني وذاك أوَّلَ دأبـــي بسجستانَ حِرْفَـةُ الآدابِ

وحرفة الآداب لفظة قد اشترك فيها الناس وكثرت على الافواه حتى سقط ان نظن ان واحدا يستملُّها من آخر .

٣ ـ ما نسبه الى السرق والمعنيان مختلفان ، كقوله :

تقبّلُ الركنَ ركنَ البيتِ نـافلـةً وظهرُ كفـك معمورٌ مـن القُبَلِ

زعم انه من قول عبدالله بن طاهر :

أَعْلَتْ لـه ذِكْـرَه فكـافـأهـا   بأَنْ توالتْ في ظهرها القُبَـلْ

وليس بين المعنيين اتفاق الا بذكر قبل الكف ، وهذا ليس من المعاني المبتدعة لأن الناس أبدا يقولون : ما خلق وجهه الا للتحية وكفه الا للتقبيل .
وكقولـه :

نَظَرَتْ فالتفَتُّ منهـا الى أَحـلى سوادٍ رأَيْتُـه في بيـاضِ

ادعى انه أخذه من قول كثيّر :

وعن نجلاء تدفـع في بيـاضٍ   إذا دمعت وتنظـر في سوادِ

وليس بين المعنيين اتفـاق الا بذكر البيـاض والسواد والالفـاظ غير محظورة ، وأبو تمام انما قال : « فالتفت منها إلى أحلى سواد » يعني حدقتها « في بياض » يعني شحمة عينها ، وهذا هو الصحيح وقد قيل : « سواد عينها في بياض وجهها » . وكثّير أراد ان عينها تدمع في بياض اذا دمعت ، يريد خدها وتنظر في سواد ويريد حدقتها ، وهذا المعنى غير ذاك .

واتهم القدماء ابن أبي طاهر بالاختلاق على أبي تمام ، قال الحاتمي : « قال المتنبي عن بيت أبي تمام :

يرى أقبَحَ الاشياءِ أوبـةَ آمـلٍ   كَسَتْهُ يدُ المأمولِ حُلَّـةَ خائـبِ

انه مأخوذ أخذ اغارة من قول الأخطل :

رأيْنَ بيـاضـاً في سوادٍ كأنـه   بياضُ العطايا في سوادِ المطـالبِ

فقلت له : هذا البيت من اختلاقات احمد بن أبي طاهر تحملاً على أبي تمام والا فمن هذا الذي رواه من رواة الشعر وفي أي قصيدة هو وفي أي نسخة من نسخ ديوان الاخطل يوجد؟ فقال : وما الذي بعث احمد بن أبي طاهر على اختلاق هذا وأي سبب أوجبه منه؟ فقلت : أليس هو القائل :

البحتريُّ إذا فتشْتَ نسبَتـــــــه في بحترٍ كحبيبٍ في بـني ثُعَـلِ
كلاهما يَتَظَنَّى عنـد نسبتـــــــه وَقَلْبه مِن تَظنّيه على وَجَـل (١)

وألف كتابا في « سرقات البحتري من أبي تمام » ولعله المقصود بقول الصولي : « ولولا ان بعض أهل الادب ألف في أخذ البحترى من أبي تمام كتابا لكنت قد سقت كثيرا مثل ما ذكرنا » (٢) . وقد ذكره ياقوت الحموي (٣). وأشار الآمدي اليه ولكنه قال : « وحكى أبو عبدالله محمد بن داود الجراح في كتابه ان ابن أبي طاهر أعلمه انه أخرج للبحتري ستمائة بيت مسروق ومنها ما أخذه من أبي تمام خاصة مائة بيت » (٤) . ويرى الدكتور محمد مندور ان بعض هذه السرقات قد تكون وردت في كتابه الآخر عن سرقات الشعراء (٥) .

ولا يستبعد ان يؤلف كتابا خاصا في سرقات البحتري وهو الذي كان يشنع عليه ويهجوه ، ويقول انه لم ير أقل وفاءً من البحتري ولا أسقط منه (٦) .

ابو الضياء :

ألّف أبو الضياء بشر بن يحيى النصيبي كتاباً في « سرقات البحتري من أبي تمام » بدأه بقوله : « ينبغي لمن ينظر في هذا الكتاب ان لايعجل بان يقول : هذا مأخوذ من هذا حتى يتأمل المعنى دون اللفظ ويعمل الفكر فيما خفي ، وانمـــا المسروق في الشعر ما نقل معناه دون لفظه وأبعد آخذه في أخذه » (٧) . وعـد الآمدي مما أورده اربعة وستين بيتاً قال ان البحتري أخذها من أبي تمام ، وقسم ما أورده الى ثلاثة أنواع :

---

(١) الرسالة الموضحة ص ١٦١ .
(٢) اخبار أبي تمام ص ٧٩ ، واخبار البحتري ص ١٥٢ .
(٣) معجم الادباء ج ٣ ص ٩١ .
(٤) الموازنة ج ١ ص ٢٩١ .
(٥) النقد المنهجي عند العرب ص ٨٥ .
(٦) ينظر أخبار البحتري ص ٧٨ ، ١١٢ ، والموشح ص ٥١٥ .
(٧) الموازنة ج ١ ص ٣٢٥ .

١ ــ ما أورده من المعاني المستعملة الجارية مجرى الامثال ، وذكر ان البحتري أخذه من أبي تمام . قال أبو تمام :

جَرى الجودُ مجرى النَّوْمِ منه فلم يَكُــنْ بغير سمــاحٍ أو طعــانٍ بحـــالِمِ

وقال البحتري :

ويبيتُ يحلم بالمكــارِم والعــــلى حتى يكونَ المجْدُ جُــلَّ منـامِـه

وهذا المعنى موجود في عادات الناس ومعروف في كلامهم وجارٍ كالمثل عــلى ألسنتهم .

٢ ــ ما أورده من المسروق والمعنيان مختلفان ليس بينهما اتفاق ولا تناسب كقول أبي تمام :

وأقسم بــاللحـظ بيننــا إنَّ في الَّلحْـظِ لعنـــوانُ مــا يجــنُّ الضمـــيرُ

وقول البحتري :

سلامٌ وإنْ كــان السلامُ تحيـــــةً فوجُهك دون الردّ يكفي المُسَلِّمـا

وأبو تمام سأل من يخاطبه ان يقبل عليه ويجعل قسطا من النظر له لان ادامة النظر تدل على المودة كما ان الإعراض يدل على البغضة ، والبحتري انما سلم على الهيثم الغنوي وذكر ان السلام تحية وان وجهه لجماله وطلاقته يكفي المسلِّم قبل رده السلام . والمعنيان مختلفان وليس لواحد منهما من الرقة والغرابة ما ينسب أحدهما الى انه محذوعلى الآخر أومسروق منه .

٣ ــ ما أورده من أنَّه مسروق وليس بينهما اتفاق الا في اللفظ ، وليس هذا محظورا على الشاعر ، كقول أبي تمام :

لا يدهمنَّــك من دهمائهم عَـــدَدٌ فانَّ أكثرهم أَوكلهــم بَقَـــرُ

وقول البحتري :

عليَّ نَحْتُ القوافي مِن مقاطِعها   وما عليَّ إذا لم تَفْهَمِ البَقَرُ

أراد أبو تمام انه لا يجب ان ينظر الى كثرة عددهم فان اكثرهم بقر ، وذكر البحتري انه عليه ان يجيد القول وليس عليه ان تفهمه البقر . وليس هنا الا اتفاق في لفظ البقر . قال الآمدي : « هذا ومما ادعى فيه أبو الضياء على البحتري السرقة والاتفاق في اكثر ذلك انما هو في الالفاظ التي ليست بمحظورة على أحد » (١) وبذلك اتسع كتاب أبي الضياء لانه أدخل في السرقات الكثير من الابيات التي لا تعد أخذا . وانتقد الآمدي الكتاب في عدة مواضع من الموازنة ، فقال وهو يذكر حجة صاحب البحتري : « ولكن ليس كما ادعيتم وادعاه أبو الضياء بشر ابن يحيى في كتابه ، لأنا وجدناه قد ذكر ما يشترك الناس فيه وتجري طباع الشعراء عليه فجعله مسروقا ، وانما السرق يكون في البديع الذي ليس للناس فيه اشتراك فما كان من هذا الباب فهو الذي أخذه البحتري من أبي تمام لا ما كثر فيه أبو الضياء وحشا به كتابه » . وقال : « مما نقلته من صحيح ما خرَّجه أبو الضياء بشر بن يحيى الكاتب لانه استقصى ذلك استقصاءً بالغ فيه حتى تجاوزه الى ما ليس بمسروق فكفانا مؤونة الطلب » . وقال : « غير أن أبا الضياء استكثر من هذا الباب وخلط به ما ليس من السرق في شيء ولا بين المعنيين تناسب ولا تقارب ، وأتى بضرب آخر ادعى ايضا فيه السرق والمعاني مختلفة وليس فيه الا اتفاق الالفاظ ليس مثلها مما يحتاج واحد ان يأخذه من آخر اذ كانت الالفاظ مباحة غير محظورة فبلغ غرضه في توفير الورق وتعظيم حجم الكتاب » (٢) .

ابن المعتز :

تحدث عبدالله ابن المعتز (ـ ٢٩٦ هـ) عن أبي تمام في مقدمة كتابه « البديع » وقال انه شغف بالبديع حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عُقبى الافراط وثمرة الاسراف . وله رسالة في

(١) الموازنة ج ١ ص ٣٤٣ .

(٢) الموازنة ح ١ ص ٥٢ ، ٣٠٤ ، ٣٢٦ .

« محاسن أبي تمام ومساويه » قال فيها : « ربما رأيت في تقديم بعض أهل الادب الطائي على غيره من الشعراء افراطاً بيّنا فاعلم انه أوكد أسباب تأخير بعضهم اياه عن منزلته في الشعر لما يدعوه اليه اللجاج . فأما قولنا فيه فانه بلغ عايات الاساءة والاحسان فكأن شعره قوله :

إنْ كان وجهْك لي تَتْرى محاسِنُـه | فانَّ فعلك بي تَتْـرى مساويـهِ

وفد روى المرزباني (١) قسمَ المساوىء لان كتابه « الموشح » في مآخذ العلماء على الشعراء . ومن أمثلة نفد ابن المعتز لأبي تمام فوله : « فمما أنكر عليه قوله : « في قصيـدة :

تكادُ عطاياهُ يُجَـنُّ جنونُهـــــا | إذا لم يَعَوِّذْها بنغمـةِ طـالــبِ

ولم يجن جنون عطاياه انتظارا للطلب ؟ يبتدىء بالجود ويستريح . وفيها يقول :

يقودُ نواصيهـا جذيـلُ مشــارِقٍ | إذا آبَهُ هَـمٌّ عذيـق مغــاربِ

عنى أنَّه كثير الاسفار فأراد بذلك قوّل القائل : أنا جذيلها المحكك وعذيقهـا المرجَّب . وقوله في قصيدته التي أولها :

سَرَتْ تستجيرُ الدمعَ فوق ندى غَدِ | وعاد قتادا عندها كُلُّ مرقـدِ
لعمري لقد حَرّرت يوم لقيتــــه | لو انَّ القضاءَ وَحْدَه لم يـبرّدِ

فلم تخرج ههنا المطابقة خروجا حسنا ولا تحسن في كل شيء . وقوله :

لولم تدارك مِسَنّ المجد مُذْ زَمَـــنٍ | بالجود والبأس كان المجدُ قد خَرِفا

فقوله : مسن المجد ، من البديع المقيت . وقال يصف المطايا :

إرقـالُهـا يَعْضيدُها ووسيجُهـــا | سعدانُها وذميلُها تَنُّومُهـــا

---

(١) الموشح ص ٤٧٠ .

الارقال : ضرب من السير وكذلك الوسيج والذميل ، واليعضيد : نبت وكذلك السعدان والتنوم ، يعني انه لا علف لها الا اليسير . وقد سُبق الى هذا المعنى وكسته الشعراء من الكلام أحسن من هذه الكسوة » .

وابن المعتز يذكر في هذه الرسالة ما عيب فيه أبو تمام من إسفاف في المعنى أو البديع اوالتقصير اوالاغراب في اللفظ والتعقيد الذي لا يقبل من البدوي بل القروي المتأدب ، او الابتداء المذموم كقوله :

خشنت عليه أخت بني خشينِ وأنجح فيك قول العاذلين

وهذا الكلام لا يشبه خطاب النساء في مغازلتهن وانما أوقعه في ذلك محبته ههنا للتجنيس وهو بهجاء النساء أولى .

او السرقة كقوله :

لما تَفَوَّقَتِ الخطوب سوادها ببياضها غَنِيَتْ به فتفوقا

سرقه من قول الآخر :

قَصَرَ الليالي خَطْوَه فتدانَى وثنين قائِمَ صُلْبه فَتَحانَى
ما بالُ شيخٍ قد تَخدَّد لحمُه أَفْنَى ثلاثَ عمائمٍ أَلوانا
سوداء داجية وسحق مفوفٍ وأجد لوناً بعد ذاك هجانا

وسرقاته كثيرة أحسن في بعضها وأخطأ في بعضها ، قال ابن المعتز : « ولما نظرت في الكتاب الذي ألفه في اختيار الاشعار وجدته قد طوى اكثر احسان الشعراء وانما سرق بعض ذلك فطوى ذكره وجعل بعضه عدة يرجع اليها في وقت حاجته ورجاء ان يترك أهل المذاكرة أصول اشعارهم على وجوهها ويقنعوا باختياره لهم . فتغبى عليهم سرقاته . ولا يعذر الشاعر في سرقته حتى يزيد في اضاءة المعنى أو يأتي باجزل من الكلام الاول أو يسنح له بذلك معنى يفضح به ما تقدمه ولا يفتضح به وينظر الى ما قصده نظر مستغن عنه لا فقير اليه » (١) .

---

(١) الموشح ص ٤٧٨ .

او الخروج على اللغة كقوله :

أَدْنَيْتُ رَحْلي الى مُدْنٍ مكارِمَـــــه   اليَّ يبتهلُ اللَّذْ جئـت أَهْتَبِلُ

او التكلف كقوله :

قَدْكَ اتئِبْ أربيت في الغلــــــواء   كم تعذلون وأنتـمُ سجرائـي

ومعايب ابي تمام كثيرة ولكنه ذكر منها ما يدل على ذلك ، وليس فيما قاله متعصب عليه بل كان يفضله ويلهج بالثناء عليه ، قال : « واكثرما له جيـد والرديء الذي له انما هو شيء يستغلق لفظه فقط فأما ان يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا . » (١) وفي كتاب أخبار أبي تمام كثير من الاخبار التي تظهر إكباره لابي تمام منها ما ذكره الصولي فقال : « حدثني عبدالله بن المعتز قال : كان ابراهيم بن المدبر يتعصب على أبي تمام ويحطه عن رتبته فلاحاني فيه يوما فقلت له أتقول هذا لمن يقول :

غدا الشيبُ مختطاً بفَودَيَّ خطـةً   سبيلُ الرَّدى منها الى الموتِ مَهْيَعُ
هو الزورُ يُجْفَى والمعاشر يُجْتَـــوى   وذو الإلْفِ يقلى والجديدُ يُرَقَّعُ
له مَنْظَرٌ في العينِ أبيضُ نـاصـــعٌ   ولكنَّه في القلب أسودُ أَسْفَـعُ

... قال : وأنشدته ايضا غير ذلك فكأني والله ألقمته حجرا » (٢) .

وبذلك كان ابن المعتز من الذين أنصفوا أبا تمام فذكروا محاسنه كما ذكروا مساوئه ، ورجحوا المحاسن فكان أبو تمام الشاعر المجلي في الميدان .

القطربلي :

أَلَّف أبو العباس احمد بن عبيدالله بن عمار القطربلي (ـ ٣١٩ هـ) رسالة بيَّنَ فيها أخطاء أبي تمام في الالفاظ والمعاني . وقد أشار اليها الآمدي ووصفه بالتحامل

(١) طبقات الشعراء ص ٢٨٦ .

(٢) أخبار أبي تمام ص ٩٧ ـ ٩٩ .

عليه وطعنه فيما لا يطعن عليه ، قال : « وقابل المنحرفون عنه افراطا بافراط فبخسوه حقه واطرحوا احسانه ونعوا سيئاته وقدموا عليه من هو دونه وتجاوز ذلك بعضهم الى القدح في الجيد من شعره وطعن فيما لا يطعن عليه واحتج بما لا تقوم حجة به ولم يقنع بذلك مذاكرة ولا قولا حتى ألف فيه كتابا وهو أبو العباس احمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار القطربلي المعروف بالعُزَير ، ثم ما علمته وضع يده من غلطه وخطائه الا على أبيات يسيرة ولم يقم على ذلك الحجة ولم يهتد لشرح العلة ولم يتجاوز فيما نعاه بعدها عليه الابيات التي تتضمن بعيد الاستعارة وهجين اللفظ ، وقد بينت غلطه فيما أنكر عليه من الصواب في جزء مفرد ان احب القارىء له ان يجعله من جملة هذا الكتاب ويصله باجزائه فعل ذلك ان شاء الله تعالى » [1] .

وذكر الآمدي تلك الأخطاء فوافقه في بعضها وأنكر بعضها وأوضح ما لم يوضحه ، فقد أنكر القطربلي على أبي تمام قوله :

هادِيهِ جِذْعٌ من الأراكِ وما ... تَحْتَ الصلا منه صَخْرَةٌ مُلْسُ

وقال : هذا من بعيد خطائه ان شبه عنق الفرس بالجذع ثم قال : « جذع من الاراك » ومتى رأى عيدان الاراك تكون جذوعا أو تشبه بها اعناق الخيل . قال الآمدي : « وأخطأ أبو العباس في انكاره على أبي تمام ان شبه عنق الفرس بالجدع وتلك عادة العرب وهو في اشعارها اكثر من ان يحصى ، وأصاب ابو العباس في انكاره ان تكون عيدان الاراك جذوعا وان لم يلخص المعنى لان عيدان الاراك لا تغلظ حتى تصير كالجذوع ولا تقاربها » .

واتجاه القطربلي جديد لانه لم ينصرف الى دراسة السرقات فحسب وانما تجاوزها الى الاخطاء الاخرى كما فعل ابن المعتز في رسالته .

الصولي :

ألّف أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ـ ٣٣٥ هـ أو ٣٣٦) كتاب « أخبار

(١) الموازنة ج ١ ص ١٣٥ . وقال البلاقلاني في اعجاز القرآن ص ١٠٩ : « وقد تعصب عليه احمد بن عبيدالله بن عمار وأسرف حتى تجاوز الى العض من محاسنه . »

أبي تمام » الذي كان دفاعاً عن الشاعر بل كان الى جانبه مع انه عقد فصلا صغيرا عَمَّا رُوي من معايبه كقول دعبل انه لم يكن شاعرا وانما كان خطيبا وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر، وقول ابن الأعرابي وقد أنشد شعراً لابي تمام : « إنْ كان هـذا شعراً فما قالته العرب باطل » . وليس في هذا الفصل ما يظهر عيوب شعره كما صورها الآخرون لان الصولي كان متعصبا له يدافع عنه ويفضله على الشعراء ، ولذلك قال في رسالته الى أبي الليث مزاحم بن فاتك : « واذكر جميع ما قيل فيه وان كان قصدي تبيين فضله والرد على من جهل الحق فيه » [(١)] .

تحدث الصولي عن افتراق آراء الناس في الشاعر ، واكثرهم والمقدم في علم الشعر وتمييز الكلام منهم والكامل في أصل النظم والنثر فيهم يوفيه حقه في المدح ويعطيه موضعه من الرتبة ثم يكبر باحسانه في عينه ويقوى بابداعه في نفسه حتى يلحقه بعضهم بمن تقدمه، ويفرط بعض فيجعله نسيج وحده وسابقاً لا مساوي له ، وفريق يعيبونه ويطعنون في كثير من شعره . وخصومه صنفان :

الأول : هم الذين يجهلون شعره ولا يستطيعون فهمه ولذلك عابوه وأسرفوا في التعصب عليه وتمسكوا بالقديم لان اشعار الاوائل قد ذللت لهم وكثرت لها روايتهم ووجدوا أئمة قد ماشوها لهم وراضوا معانيها فهم يقرؤونها سالكين غيرهم في تفاسيرها واستجادة جيدها وعيب رديثها . وألفاظ القدماء وان تفاضلت فانها تتشابه وبعضها آخذ برقاب بعض فيستدلون بما عرفوه منها على ما أنكروه ويقرون على صعبها بما ذللوه ولم يجدوا في شعر المحدثين منذ عهد بشار أئمة كأئمتهم ولا رواة كرواتهم الذين تجتمع فيهم شرائطهم ولم يعرفوا ما كان يضبطه ويقوم به وقصروا فيه فجهلوه فعادوه كما قال الله جل وعز : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » ، وكما قيل : « الانسان عدو ما جهل » ومن جهل شيئا عاداه . وفر العالم منهم من قول اذا سئل ان يقرأ عليه شعر بشار وأبي نواس ومسلم وأبي تمام وغيرهم من « لا أحسن » الى الطعن وخاصة على أبي تمام لانه أقربهم عهدا وأصعبهم شعرا .

---

(١) أخبار أبي تمام ص ٥ .

وكيف لا يفر الى هذا من يقول : اقرأوا علي شعر الاوائل ، حتى اذا سئل عن شيء من أشعار هؤلاء جهله . والى أي شيء يلجأ الا الى الطعن على ما لم يعرفه ولو أنصف لتعلم هذا من أهله كما تعلم غيره فكان متقدما في علمه اذ كان التعلم غير محظور على أحد ولا مخصوص به أحد . وقد قال ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب : « أنا أعاشر الكتاب كثيرا وخاصة ابا العباس ابن ثوابة واكثر ما يجري في مجالسهم شعر أبي تمام ولست أعلمه فاختاروا لي منه شيئا » . واختاروا منه له ودفعوه اليه فمضى به الى ابن ثوابة فاستحسنه فقال له : انه ليس مما اخترت وانما اختاره لي بنو نوبخت وكان ينشد البيت من شعره ثم يقول : « ما أراد بهذا » فيشرح له فيقول : « أحسن والله وأجاد » . قال الصولي : « فهذه قصة امام من ائمة الطاعنين عليه عندهم » [1] .

وهذا تعليل ربما لا يكون حقاً لان معظم الذين وقفوا من أبي تمام موقف المزري لم يكونوا جهلة أو من الغافلين كابن الاعرابي والاصمعي والمبرد وثعلب ودعبل وأبي سعيد الضرير ، ولكنهم كانوا يرون في شعره خروجا على أساليب العرب . وكان معظمهم ممن يعنيهم أمر اللغة والحفاظ عليها . واذا كانت في بعض أحكامهم قسوة فليس مَردُّه الى الجهل وانما الى موقفهم من الأدب عامة ، يضاف الى ذلك ان اختلاف الرأي ليس مرده الجهل كما قال الصولي ، وانما مرده في الغالب الى اجتهاد قد يكون مصيبا . وقد لا يكون كذلك .

الثاني : هم المعاندون الذين اتخذوا من تجريحه سبيلاً إلى المجد ، قال : « فأما الصنف الثاني ممن يعيب أبا تمام فمن يجعل ذلك سبباً لنباهة واستجلاباً لمعرفة اذ كان ساقطاً خاملاً فألّف في الطعن عليه كتباً واستغوى عليه قوماً ليعرف بخلاف الناس وليجري له ذكر في النقص إذْ لم يقع له حظ في الزيادة ومكسب بالخطأ إذ حرمه من جهة الصواب وقد قيل : « خالف تذكر » . ولعله ظن ان هذا مثل قول الشاعر وهو عبد الاعلى بن عبدالله بن عامر : .

إذا أنت لم تَنْفَع فَضُرَّ فإنما … يُرَجَّى الفَتى كيما يَضُرَّ وينفعا

---

(١) أخبار أبي تمام ص ١٦ .

وقال آخر : « ان فاتك الخير فارفع علما في الشر » ، واحتج آخر في قوله الشعر الرديء بانه انما أراد ان يذكر به فقال :

سوف أهجوك إنْ بقيت بشعـــرٍ ليس إنْ قَوَّموه فـلسين يَسْـوَى
ويقولــون ذا رديءٌ وحَسبـــي أنْ يقولوا له رديءٌ ويُرْوَى (١)

وهذا مما يقع في كل زمان ويحدث في كل مكان ، فكثيرا ما يكون الحسد أو الشهرة دافعا الى اتخاذ موقف معاد ، وقد حصل هذا للمتنبي حيث طعن فيه الكثيرون ممن أثارتهم شهرته وشعره الذي طبق الآفاق فانبرى له المغمورون يثلبونه ويعيبون شعره ويتسقطون سرقاته .

وعيوب أبي تمام كثيرة كما صورتها كتب الادب والنقد وقد ذكر الصولي بعضها وردَّ عليها ، ولكنه قبل ذلك تحدث عن شعر المحدثين وما فيه من تجديد وأصالة وتميّز على القديم ، ليصل الى هدفه في تفضيل أبي تمام والدفاع عنه . فألفاظ المحدثين منذ عهد بشار الى وقته كالمتنقلة الى معان أبدع وألفاظ أقرب وكلام أرق وان كان السبق للأوائل بحق الاختراع والابتداء والطبع والاكتفاء وانه لم ترأعينهم ما رآه المحدثون فشبهوه عيانا كما لم ير المحدثون ما وصفوه هم متاهدة وعانوه مدة دهرهم من ذكر الصحارى والبر والوحش والابل والاخبية فهم في هذه أبداً دون القدماء كما ان القدماء فيما لم يَروه أبداً دونهم ، ولان المتأخرين يجرون بريح المتقدمين ويصبون على قوالبهم وينتجعون كلامهم وقلما أخذ احد منهم معنى من تقدم الا اجاده . وفي شعر هؤلاء معان لم يتكلم القدماء بها ومعان أومأوا اليها فأتى بها هؤلاء وأحسنوا فيها ، وشعرهم مع ذلك أشبه بالزمان ، والناس له اكثر استعمالا في مجالسهم وكتبهم وتمثلهم ومطالبهم . وقد استحسن الناس لامرئ القيس تشبيهه شيئين بشيئين في بيت واحد وقالوا لا يقدر أحد بعده على أن يأتي بمثله وهوقوله في وصف عقاب :

كأنَّ قلوبَ الطيررطبـــاً ويـــاساً لَدَى وكرها العُنّابُ والحَشَفُ البالي

(١) اخبار أبي تمام ص ٢٨ .

ولقد أحسن فيه وأجمل فقال بشار :

كأَنَّ مُثارَ النقعِ فـوق رؤوسنـــا   وأَسيافَنا ليلٌ تهـاوت كواكِبُـه

فأحسن وأجمل وشبه شيئين بشيئين في بيت ، ونحا هذا المنحى منصور النمري فقـال :

ليلٌ من النَّقْعِ لا نَجْمٌ ولا قَمَـــرٌ   إلا جبينـك والمذروبـة الشرع

وقال العتابي :

تَبني سنابكها من فوق رُوسِهِـــمُ   سقفاً كواكبُه البيضُ المباتـيرُ

وأحسن ما قال الاوائل في الاوطان ومحبتها والتشوق اليها ما أنشده احمد بـن يحيى وغيره :

بلاد بها حَلَّ الشبابُ تمـائمـــي   وأَوَّلُ أرضٍ مَسَّ جلدي ترابهَا

وقال ابن ميَّادة :

أَلا ليتَ شعري هل أَبيتَنَّ ليلـــةً   بحرَّة ليلى حيث رَبَّتني أَهـــلي
بلادٌ بها نيطت عـليَّ قلائِـــدي   وقطعن عني حين أدركني عَقْلي
فان كُنْتَ عن تلك المواطن حابسي   فأفشِ عليَّ الرزق واجْمَع إذَنْ شَمْلي

فجاء ابن الرومي فذكر الاوطان وبين العلة التي لها يحب وجمع ما فرقوه في أبيات من قصيدة ، فقال :

ولي وَطَنٌ آليت أنْ لا أبيعَـــه   وأنْ لا أرى غَيري له الدَّهرَ مالِكا
عهدْتُ به شَرْخَ الشباب ونعمـةً   كنعمةِ قومٍ أصبحوا في ظلالكا
فقد أَلِفَتْهُ النفسُ حتى كـأَنَّـــه   لها جَسَدٌ إنْ غاب غُودِر هالِكـا
وَحَبَّبَ أوطانَ الرجـال اليهـــم   مآربُ قضَّاها الشبابُ هنـالكـا
إذا ذكروا أَوطانَهم ذَكَّرتْهُمُ   عهودَ الصبا فيها فحنُّوا لذلكـا

وأكثر الناس في ذكر الشيب من قدماء الجاهلية والاسلام وأجمع الحذاق بعلم الشعر وتمييز الفاظه انه لم يقل فيه أحسن من قول منصور النمري ووقع الاجماع عليه، فما ضره تأخره اذ وقع الأجود له وهو قوله :

ما تنقضي حَسرةٌ مني ولا جَـزَعُ	إذا ذكرت شباباً ليس يُرْتَجَعُ
بانَ الشبابُ وفـاتني بشرَّتِـه	صُروفُ دهرٍ وأيامٌ لها خُـدعُ
ما كنْتُ أعطي شبابي كُنْهَ غرَّتِـه	حتى مضى فـاذا الدنيا لـه تَبَعُ
إنْ كنْتَ لم تطعمَنْ ثكلَ الشباب ولم	تَشْجَ بغصَّته فالعُذْرُ لا يَقَـعُ
أبكي شباباً سُلبنـاه وكـان ولا	تُوفى بقيمته الدنيـا ومـا تَسعُ
ما واجه الشيب من عينٍ وإنْ وقعت	إلاّ لها نَبْوةٌ عنهـا ومُرْتَـدَعُ

واذا كان هذا موقفه من المحدثين فان موقفه من أبي تمام ليربو على ذلك ، فقد دافع عنه ورد ما اتهم به من عيوب في شعره واتخذ قاعدة في ذلك وهي ان القدماء قد عيبوا فما سقطت مراتبهم ولكن أبا تمام حين عيب ادعوا انه ليس بالشاعر الكبير ، ولو وهم في بعض شعره أو قصر في شيء منه لما كان ذلك مستحقا ان يبطل احسانه ، كما انه قد عاب العلماء على امرئ القيس ومن دونه من الشعراء القدماء والمحدثين اشياء كثيرة أخطأوا الوصف فيها فما سقطت بذلك مراتبهم فكيف خص أبو تمام وحده بذلك لولا شدة التعصب وغلبة الجهل ؟ وهذه ليست قاعدة تدفع العيب عن الشعراء وكان الاوفق ان يحلل شعر أبي تمام ويظهر ما فيه من ابداع ويقارنه بغيره لتتبين مزيته ويظهر فضله ، فذلك خير من قياسه بالشعراء الذين عيبوا . واتخذ هذه القاعدة أساسا لرده في معظم ما ذكر ، فهم قد عابوا مثلا قول أبي تمام واسقطوه عند أنفسهم :

ما زالَ يهذي بالمواهِب دائبـا ... حتى ظننا أنَّـه مَحْمُـومُ

فكيف لم يسقطوا أبا نواس بقوله في العباس بن عبيد الله بن جعفر :

جُدْتَ بالآمـالِ حتـى ... قيـل مـا هـذا صَحيـحُ

والمحموم أحسن حالا من المجنون،لأن هذا يبرأ فيعود صحيحا كما كان والمجنون قلما يتخلص. فأبو تمام في تشبيهه الافراط في العطاء والبذل باكثار المحموم أعذر من أبي نواس اذ شبهه بفعل المجنون. ولم يعيبوا قول الآخر:

بَطَلٌ تَناذره الكماةُ كأنَّه ... مما يدل على الفوارِس أَحْمَقُ

فصير افراطه في شجاعته كفعل الاحمق الذي لا يميز.

وانتهى الصولي بعد ان ذكر الامثلة الى ان هؤلاء لوعرفوا ما أنكره الناس على الشعراء الحذاق من القدماء والمحدثين لكثر حتى يقل عندهم ما عابوه على أبي تمام اذا اعتقدوا الانصاف ونظروا بعينه. قال: « ومنزلة عائب أبي تمام ـ وهو رأس في الشعر مبتدىء لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه فيه حتى قيل مذهب الطائي وكل حاذق بعده ينسب اليه ويقفي أثره ـ منزلة حقيرة يصان عن ذكرها الذم ويرتفع عنها الوهد. وقد كان الشعراء قبل أبي تمام يبدعون في البيت والبيتين من القصيدة فيعتد بذلك لهم من أجل الاحسان، وأبو تمام أُخذ نفسه وسام طبعه ان يبدع في اكثر شعره فلعمري لقد فعل وأحسن ولو قصر في قليل ـ وما قصر ـ لغرق ذلك في بحور احسانه، ومن الكاملُ في شيء حتى لا يجوز عليه خطأ فيه الا ما يتوهمه من لا عقل له » [1]. فلم هذا الاندفاع ولم قوله: « وليت أبا تمام مني بعيب من يجل في علم الشعر قدرُه اويحسن به علمه ولكنه مني بمن لا يعرف جيدا ولا ينكر رديئا الا بالادعاء » ولم هذه الابيات التي ذكرها في الهجاء كقول زياد ابن عبيدالله الحارثي:

فلوأني بُليت بهاشمي ... خؤولتُه بنو عَبْدِ المَدانِ
صَبَرْتُ على مقالته ولكِنْ ... تَعالَي وانظري بمن ابتلاني

ولم قوله: « وما ضرأبا تمام قول هؤلاء كما انه لا يضر البحر أن يقذف فيه حجر

---

(١) أخبار أبي تمام ص ٣٧ ـ ٣٨.

ولا ينقص البدر ان ينبحه الكلب » [1] . أما يكفي ان يتحدث عن شعر أبي تمام ويقارنه بغيره ويشير الى ما فيه من جديد ؟ لقد كان أبو تمام عظيما في شعره ومن كان كذلك فليس بحاجة الى الدفاع عنه بهذا الاسلوب ، وقد كان اسلوب الموازنة والتحليل والوقوف على البديع خيرا وأجدى كما فعل في المعاني التي أخذها الشاعر وأضفى عليها حسنا وجمالا كقول اوس بن حجر :

أقولُ بما صبَّتْ عليَّ غمائمي ... وجهدي في حبل العشيرة أحطبُ

فقال ابو تمام :

فلو كانَ يَفْنَى الشعرُ أفنته ما قَرَت ... حياضُك منه في العصور الذواهبِ
ولكنّه صوبُ العقول إذا انثَنَتْ ... سحائبُ منها أعقبَتْ بسحائبِ [2]

وكحديثه عن المعاني التي أخذها البحتري من أبي تمام .

وفي كتاب « أخبار أبي تمام » بعض القضايا الاخرى منها موقفه من ثقافة الناقد فهو يرى ان لا يجسر في الحكم على الشعر وتمييز الالفاظ والحكم بالجيد والرديء من لم يكن اعلم الناس بالكلام منظومه ومنثوره ، وأقدر الناس على شيء متى أراده منه ، وأحفظهم لاخذ الشعراء واعلمهم بمقاصد الشعراء . قال وهو يدافع عن أبي تمام . « فاما من لا يحسن أن يعمل بيتا جيدا ولا يكتب رقعة بليغة ولا ينال حفظه ما قالته الشعراء في عشرة معان من عشرة آلاف معنى قد قالت فيه فكيف يجسر على ادعاء هذا وكيف يسوغه اياه من سمعه منه » [3] .

وموقفه من الشعر المكشوف فقد تحدث عنه وذكر أمثلة له استجادها ووازن بينها وفضل بعضها على البعض الآخر [4] .

---

(١) أخبار أبي تمام ص ٣٨ ، ٤٦ .
(٢) أخبار أبي تمام ص ٥٤ .
(٣) أخبار أبي تمام ص ٣٨ .
(٤) أخبار أبي تمام ص ٢٦ ، ١٩٥

وموقفه من الشعر والدين ، فهو يرى أنَّ الكفر لا ينقص من رتبة الشعر ولا يذهب بجودته ، قال معلقا على رواية تتصل بسيرة أبي تمام الدينية وعدم اكتراثه باتمام صلاته في أوقاتها والعناية بالفروض كعنايته بشعره : « وقد ادَّعى قوم عليه الكفر بل حققوه وجعلوا ذلك عيبا للطعن على شعره وتقبيح حسنه وما ظننت ان كفرا ينقص من شعر ولا ان ايمانا يزيد فيه » (١) .

وملاحظاته في السرقات ، فالشاعر اذا أخذ معنى وزاد عليه ووشحه ببديعه وتمم معناه كان أحق به ، والشاعر ان اذا تعاورا معنى ولفظا أو جمعاهما ان يجعل السبق لاقدمهما سنا واولهما موتا وينسب الأخذ الى المتأخر لان الاكثر كذا يقع وان كانا في عصر واحد ألحق باشبههما كلاما فان أشكل ذلك تركوه لهما . وفطن الى ثلاثة أنواع من السرقات :

١ ـ سرقة اللفظ .

٢ ـ سرقة المعنى .

٣ ـ سرقة اللفظ والمعنى .

ومن سرقة اللفظ التي عدها نسخا ان أبا تمام قال :

بُخْلٌ تدينُ بحلوِه وبمُـرِّه ... فكأنَّه جزءٌ من التوحيدِ

فقال البحتري :

وَتَدَيُّنٌ بالبُخل حتى خِلْتَـهُ ... فَرْضاً يُدانُ به الالـهُ ويُعْبَد

ومن سرقة المعني ما ذكره من ان بعض من يتعصب على أبي تمام بالتقليد لا الفهم جاذبه يوما وقدم غيره بلا دراية فقال : أيحسن أبو تمام ان يقول كما قال البحتري :

---

(١) أخبار أبي تمام ص ١٧٢ .

تَسَرَّعَ حتى قال مَنْ شَهِد الوغـى		لقاءُ أعـادٍ أم لقـاءُ حبيبِ

فقال الصولي : وهل افتض هذا المعنى قبل أبي تمام أحد في قوله :

حَنَّ الى الموتِ حتى ظن جاهِلُـه		بأنَّه حَنَّ مشتاقاً الى وَطَـنِ

ومن سرقة اللفظ والمعنى أنَّ ابا تمام قال في وصف شعره :

منزهـةٌ عـن السَّرَقِ المُـوَرَّى		مكرَّمَـةٌ عـن المعنى المعـادِ

فنقله البحتري نقلا فأخذ اللفظ والمعنى في قوله يصف بلاغة :

لا يعملُ المعنى المكرَّرَ فيه واللفظ المردد (١) .

وتحدث الصولي عن أبي تمام وفضله في كتابه الآخر « أخبار البحتري » الذي جمع فيه ما يتصل بالبحتري كما فعل باخبار أبي تمام . واسلوبه في هذا الكتاب يكشف عن تعصبه لابي تمام ولكنه يخفي هذا التعصب بالنقل عن البحتري ، من ذلك قوله في أبي تمام : « جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه » ، قال الصولي : « وقد صدق البحتري في هذا ، جيد أبي تمام لا يتعلق به أحد من أهل زمانه وانما يختل في بعض قصائده لفظه لا معناه ، والبحتري لا يختل في لفظ ولا معنى الا اختلالا قريبا » (٢) . وقول البحتري : « ما أكلت الخبز الا به ولوددت ان الامر كما قالوا ولكني والله تابع له لائذ به آخذ منه ، نسيمي يركد عند هوائه وارضي تنخفض عند سمائه » ، وقال الصولي : « وهذا من فضل البحتري ان يعرف الحق ويقر به ويذعن له ، واني لأراه يتبع أبا تمام ومعانيه حتى يستعير مع ذلك بعض لفظه فلا يقع الا دونه ويعود في بعضها طبعه تكلفا وسهله صعبا ، من ذلك قول أبي تمام :

يَسْتنزِلَ الأمـلَ البعيـدَ ببـشره		بشرى المخيلة بالربيع المُغْـدِقِ

---

(١) أخبار أبي تمام ص ٣ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ١٠٠ – ١٠١ .

(٢) أخبار البحتري ص ٥٧ .

وكـــذا السحائـبُ قلَّما تدعـــوالى   معروفها الروادَ مـا لم تَـبْرُقِ

فقال البحتري :

كانت بشاشَتُك الاولى التي ابتـدأت   بالبشرِ ثُمَّ اقتبلنا بعدها النِّعَمـا
كالمزنِة استوبقـت أولى مخيلتهـــا   ثم استهلَّت بغَزْرٍ تابـع الدِّيَمـا

فاحتذى معانيه واقتصها فجذبته المعاني واضطرته الى ان حكى لفظه في هذا فصار يشبه لفظ أبي تمام ، ولفظ البحتري في اكثر هذه أسهل . فسبحان الـذي حول تكلف أبي تمام الى البحتري وطبع البحتري الى أبي تمام » [١] .

هذه جهود الصولي في الصراع الذي قام بين انصار البحتري وأبي تمام ، وقد اتضح بجلاء وقوفه الى جانب شاعره المفضل أبي تمام بل تعصَّب له وتهجم على خصومه ووصفهم بما لا يحسن صدوره من شاعر ناقد مثله . وبانتهاء الكلام عليه ينتهي الحديث عن الدراسات التي أثارتها الخصومة بين أنصار الشاعرين في القرن الرابع . ويبدو واضحاً ان نظرات أصحاب هذه الدراسات كانت جزئية تُعْنَى بالبيت الواحد او البيتين ولم تضع قواعد دقيقة أو تفصل القول في هذه القضية . وحينما ظهر كتاب « الموازنة » للآمدي بعد ان هدأت الخصومة واستقرت الاحوال طفر النقد الادبي طفرة واسعة . وكان هذا الكتاب صورة للموازنات لا نجدها مـن قبل إلاّ في نطاق ضيق لا يكوِّن نظريةً أو يحدّد هَدفا .

---

(١) أخبار البحتري ص ٦٠ .

الموازنة

جاء أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (ـ ٣٧٠ هـ) ليوازن بين الطائيين بعد ان احتدم الصراع بين أنصارهما وتعالت الاصوات في المجالس ومعاهد الدرس . ووفق الآمدي في موازنته الى حدّ كبير فقد كان « حسن الفهم جيد الدراية والرواية سريع الادراك » (١) واسع الثقافة ، درس علوم عصره واتقن العربية واساليبها واطلع على تراث الامم الاخرى كاليونانية والفارسية . وفي كتابه « الموازنة » نقل عن فلاسفة اليونان وحكماء الفرس ولا يستبعد ان يكون قد درس علم الكلام غير انه لم يتأثر به في النقد ، ولذلك لا يمكن وصفه بانه « رجل جدلي كثيرا ما يقيس الشعر على أقيسة من المنطق حتى يذهب لدرجة التعسف » (٢) لان الذوق كان عمدته في نقده الى جانب الاصول التي حفل بها عمود الشعر العربي . قال موضحا مذهبه وفهمه للشعر والنقد : « قالوا واذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة وكانت عبارته مقصرة عنها ولسانه غير مدرك لها حتى يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان او حكمة الهند او أدب الفرس ويكون اكثر ما يورده منها بألفاظ متعسفة ونسج مضطرب وان اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليم النظر قلنا له : قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة فان شئت دعوناك حكيما او سميناك فيلسوفا ولكن لا نسميك شاعراً ولا ندعوك بليغا لان طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم . فان سميناك بذلك لم نلحقك بدرجة البلغاء ولا المحسنين الفصحاء » (٣) . وردّ على قدامة بن جعفر الذي جعل البلاغة والنقد قواعد جافة وأخذ عليه مخالفته لابن المعتز في وضع المصطلحات فقال في الكلام على المطابق : « وهو مقابلة الحرف بضده أو ما يقارب الضد ... لقبه

---

(١) معجم الادباء ج ٨ ص ٧٥ .

(٢) مقدمة ديوان أبي تمام ج ١ ص ٢٣ .

(٣) الموازنة ج ١ ص ٤٠١ .

أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب في كتابه المؤلف في نقد الشعر « المتكافىء » وسمى ضربا من المتجانس المطابق ... وما علمت أن أحدا فعل هذا غير ابي الفرج فانه وان كان هذا اللقب يصح لموافقته معنى الملقبات وكانت الالقاب غير محظورة فاني لم اكن أحب له ان يخالف من تقدمه مثل أبي العباس عبدالله بن المعتز وغيره ممن تكلم في هذه الانواع وألف فيها اذ قد سبقوا الى التلقيب وكفوه المؤونة » (١) ، وقال وهو يتحدث عن المعاظلة : « ثم مثلوا له أمثلة تزيد ما قاله عمر ـ رضي الله عنه ـ وضوحا وبيانا الا أبو الفرج قدامة بن جعفر فانه ذكر ذلك في كتابه المؤلف في نقد الشعر وتمثل له أمثلة فغلط في أمثلة المعاضلة غلطا قبيحا. وقد ذكرت ذلك في كتاب بينت فيه جميع ما وقفت عليه من سهوه وغلطه » (٢) . وردَّ عليه ما زعمه من ان المدح لا يكون الا بالفضائل النفسية وان المدح بالحسن والجمال عيب في الشعر ، قال : « فأمَّا الجلال والبهاء والهيبة وسائر ما مضى من ذلك في هذا الباب فانه واجب في مدح الخلفاء والملوك والعظماء لانه من الاوصاف التي تخصهم ويحسن موقع ذكرها عندهم ، وكذلك جمال الوجه وحسنه مما يجب المدح به فان الوجه الجميل يزيد في الهيبة ويتيمن به العرب لانه يدل على الخصال المحمودة ، كما ان قبح الوجه والدمامة يسقط الهيبة ويدل على الخصال المذمومة وذلك ما تكرهه العرب وتتشاءم به ، لان اول ما تلقاه من الانسان وتعاينه وجهه ... وقد غَلِطَ بعضِ المتأخرين في هذا الباب ممن أَلَّفَ في « نقد الشعر » كتابا ، غلطاً فاحشا فذكر أنَّ المدح بالحسن والجمال والذم والقبح والدمامة ليس بمدح على الحقيقة ولا ذم على الصحة وخطأ كل من يمدح بهذا أو يذم بذاك فعدل بهذا المعنى عن مذاهب الامم كلها عربيها وعجميها وأسقط أكثر مدح العرب وهجائها » (٣) . ويكفي تعقب الآمدي لقدامة دليلا على انه ابتعد عن اساليب الجدل والمنطق وعلم الكلام وانه نظر الى الشعر من خلال فهم العرب له ، ويشهد اسلوبه في معالجة موضوعات البلاغة والنقد على ذلك ، فهو لم يتبع اسلوب

(١) الموازنة ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) الموازنة ج ١ ص ٢٧٧ .

(٣) الموازنة ج ٢ ص ٣٦٨ .

الفلاسفة او الذين يعنون بالقاعدة ، ولو سار على منهجهم لنبا ذوقه واختل كتابه وأصبح هيكلا لا روح فيه . والناظر في كتبه يحس انه كان بعيدا عن هذا الاسلوب ، ومعظمها في الشعر واللغة والنقد وهي موضوعات لا تحتمل الخوض في جدل لا يوصل الى غاية ولا يحقق هدفا . لقد الف كتاب « الموازنة » وكتاب « في ان الشاعرين لا تتفق خواطرهما » وكتاب « نثر المنظوم » وكتاب « ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ » وكتاب « تبيين غلط قدامة بن جعفر في نقد الشعر » وكتاب « تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين » وكتاب « معاني شعر البحتري » وكتاب « الرد على ابن عمار فيما خَطَّأَ فيه أبا تمام » وكتاب « فعلت وافعلت في النحو » وكتاب « من الاصول في الاضداد » وكتاب « المؤتلف والمختلف » وكتاب « معجم الشعراء » وغيرها من الكتب الادبية واللغوية (1) . وهذه المؤلفات توحي باتجاهه النقدي وتوضح ذوقه في معرفة الشعر وفهم كلام العرب ، ولو وصلت الينا جميعها لرسمت اتجاهه بدقة ، ولكن كتابه « الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري » الذي يعد أضخم عمل نقدي في القديم يصور لنا ذلك ويحدد كثيرا من معالم نقده .

كان الآمدي مولعا بشعر الطائيين منذ عهد مبكر ، وكان ينظر فيه ويتلقط محاسنهما ، قال : « نظرت في شعر أبي تمام والبحتري في سنة سبع عشرة وثلثمائة واخترت جيدهما وتلقطت محاسنهما ثم تصفحت شعريهما بعد ذلك على مر الاوقات » (2) . وحينما رأى الخصومة بين انصار الشاعرين بلغت مداها وأخذت مستقرها أراد ان يوازن بينهما ليظهر محاسن كل شاعر ومساوئه فوضع كتابه « الموازنة » الذي كان عشرة أجزاء كما ذكر ياقوت الحموي (3) ، ولكن بعض هذه الاجزاء لم يصل كبابي التشبيه والامثال في أكمل مخطوطاته .

---

(1) تنظر كتبه في معجم الادباء ج ٨ ص ٧٥ وما بعدها ، وابو القاسم الآمدي وكتابه الموازنة ص ٣١ وما بعدها ، وتأريخ النقد الادبي عند العرب للدكتور احسان عباس ص ١٥٤ .

(2) الموازنة ج ١ ص ٥٢ .

(3) معجم الادباء ج ٨ ص ٨٧ ، وينظر الحديث عن هذه الاجزاء في النقد المنهجي عند العرب ١٤٩ ـ ١٥٥ والنقد الادبي حول أبي تمام والبحتري ص ٦٣ ـ ٦٨ .

أوضح الآمدي في مقدمة كتابه هدفه العام فقال : « هذا ما حثثت ـ أدام الله لك العز والتأييد والتوفيق والتسديد ـ على تقديمه من الموازنة بين أبي تمام حبيب ابن أوس الطائي وأبي عبادة الوليد بن عبيدالله البحتري في شعريهما . وقد رسمت من ذلك ما أرجوان يكون الله عز وجل قد وهب فيه السلامة واحسن في اعتماد الحق وتجنب الهوى المعونة بمنه ورحمته » (١) .

وتكلم بعد ذلك على مذهبيهما في الشعر ، فوجد في اكثر ما سمعه ورآه من رواة أشعار المتأخرين أنَّ شعر أبي تمام لا يتعلق بجيده جيد أمثاله ورديئه مطرح ولهذا كان مختلفا لا يتشابه ، وان شعر البحتري صحيح السبك حسن الديباجة ليس فيه سفساف ولا رديء مطروح ولهذا صار مستويا يشبه بعضه بعضا . ولم يتفقوا على ايهما أشعر ، كما لم يتفقوا على أحد ممن وقع التفضيل بينهم من شعراء الجاهلية والاسلام المتأخرين وذلك كمن فضل البحتري ونسبه الى حلاوة النفس وحسن التخلص ووضع الكلام في مواضعه وصحة العبارة وقرب المأتى وانكشاف المعاني .. وهم الكتاب والاعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة ، ومثل من فضل أبا تمام ونسبه الى غموض المعاني ودقتها وكثرة ما يورده مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج ، وهؤلاء أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل الى التدقيق وفلسفي الكلام ، وان كان كثير من الناس قد جعلهما طبقة وذهب الى المساواة بينهما . ورأى الآمدي ان الامر ليس كذلك بل « انهما لمختلفان لان البحتري أعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الاوائل وما فارق عمود الشعر المعروف وكان يتجنب التعقيد ومستكره الالفاظ ووحشي الكلام فهو بأن يقاس باشجع السلمي ومنصور النمري وابي يعقوب الخريمي المكفوف وأمثالهم من المطبوعين اولى ، ولان ابا تمام شديد التكلف صاحب صنعة ويستكره الالفاظ والمعاني وشعره لا يشبه أشعار الاوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة فهوبان يكون في حيز مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه أحق وأشبه ، وعلى أني لا أجد من أقرنه به لانه ينحط عن درجة مسلم لسلامة شعر

(١) الموازنة ج ١ ص ٥ .

مسلم وحسن سبكه وصحة معانيه ، ويرتفع عن سائر من ذهب هذا المذهب وسلك هذا الاسلوب لكثرة محاسنه وبدائعه واختراعاته » (١) . وبعد ان أوضح مذهب كل من الشاعرين قال : « ولست أحب أن اطلق القول بايهما أشعر عندي لتباين الناس في العلم واختلاف مذاهبهم في الشعر ولا أرى لأحد ان يفعل ذلك فيستهدف لذم أحد الفريقين ، لان الناس لم يتفقوا على أي الاربعة أشعر في امرئ القيس والنابغة وزهير والاعشى ولا في جرير والفرزدق والاخطل ولا في بشار ومروان والسيد ولا في ابي نواس وابي العتاهية ومسلم والعباس بن الاحنف لاختلاف آراء الناس في الشعر وتباين مذاهبهم فيه . فان كنت ـ أدام الله سلامتك ـ ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق فالبحتري أشعر عندك ضرورة . وان كنت تميل الى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوي على ما سوى ذلك فأبو تمام عندك أشعر لا محالة .

فأما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ولكني أقارن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما اذا اتفقتا في الوزن والقافية واعراب القافية ، وبين معنى ومعنى ثم أقول ايهما اشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ثم احكم انت حينئذ ان شئت على جملة ما لكل واحد منهما اذا أحطت علما بالجيد والرديء » .

ويقوم منهجه في « الموازنة » على عرض احتجاج أصحاب الشاعرين عند تخاصمهم في تفضيل أحدهما على الآخر وما نعاه بعض على بعض ليتأمل القارىء ذلك ويزداد بصيرة وقوة في حكمه .

وتتضح في هذا القسم مقدرته على تلخيص الآراء وايراد الحجج ومناقضتها ، وهو يذكّر بما كان الجاحظ يفعله في كتبه حينما يدير نقاشا بين خصمين اومتحاجين ، ولذلك يقول الدكتور احسان عباس انه صاغ هذه المقدمة « على شكل حوار كلامي جدلي بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتري » (٢) .

(١) الموازنة ج ١ ص ٦ .

(٢) تأريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٧٢ .

وتحدث عن مساوىء الشاعرين ، وأوضح منهجه بقوله : « وأنا ابتدىء بذكر مساوىء هذين الشاعرين لاختم محاسنهما ، واذكر طرفا من سرقات أبي تمام واحالاته وغلطه وساقط شعره ومساوىء البحتري في أخذ ما أخذه من معاني ابي تمام وغير ذلك من غلطه في بعض معانيه . ثم أوازن من شعريهما بين قصيدة وقصيدة اذا اتفقتا في الوزن والقافية واعراب القافية ثم بين معنى ومعنى فان محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك وتنكشف . ثم اذكر ما انفرد به كل واحد منهما فجوده من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه . وأفرد بابا لما وقع في شعريهما من التشبيه وبابا للامثال اختم بهما الرسالة . ثم اتبع ذلك بالاختيار المجرد من شعريهما واجعله على حروف المعجم ليقرب تناوله ويسهل حفظه وتقع الاحاطة به » (1) .

وبعد هذا التحديد لمنهجه بدأ بسرقات أبي تمام كما ذكرها السابقون ثم ذكر السرق الذي يراه صحيحا وتحدث عن اغلاط أبي تمام في المعاني والالفاظ وقبيح استعاراته وتجنيسه وطباقه وسوء نسجه وتعقيده ووحشي ألفاظه وما في شعره من زحاف واضطراب في الوزن . ثم انتقل الى الحديث عن سرقات البحتري من معاني أبي تمام خاصة ، ورد ما قاله ابو الضياء فيها لانها مشتركة عامة ، وتكلم على ما أخطأ فيه البحتري من المعاني واضطرابه في الوزن . وانتقل بعد ذلك الى فضل أبي تمام وفضل البحتري ، ووازن بين الشاعرين في مختلف الاغراض والفنون . وهذا القسم هو عمدة كتابه وفيه تتضح قدرته على التحليل والموازنة والوقوف على ما في الشعر من معان دقيقة ولمحات فنية .

وقد حدد منهجه في هذه الموازنة بقوله : « وأنا اذكر باذن الله في هذا الجزء أنواع المعاني التي يتفق فيها الطائيان وأوازن بين معنى ومعنى وأقول ايهما أشعر في ذلك المعنى بعينه فلا تطلبني ان أتعدى هذا الى ان أفصح لك بايهما أشعر عندي على الاطلاق فاني غير فاعل ذلك ، لانك ان قلدتني بشيء لم تحصل لك الفائدة بالتقليد وان طالبت بالعلل والاسباب التي أوجبت التفضيل فقد أخبرتك فيما تقدم بما أحاط به علمي من نعت مذهبيهما وذكر مساويهما في سرقة المعاني من الناس

(1) الموازنة ج ١ ص ٥٤ .

وانتحالها وغلطهما في المعاني والالفاظ واساءة من أساء منهما في الطباق والتجنيس والاستعارة ورداءة النظم واضطراب الوزن وغير ذلك مما أوضحته في مواضعه وبينته ، وما سيعود ذكره في الموازنة من هذه الانواع على ما يقوده القول وتقتضيه الحجة وما ستراه من محاسنهما وبدائعهما وعجيب اختراعهما . فاني أوقع الكلام على جميع ذلك وعلى سائر أغراضهما ومعانيهما في الاشعار التي ارتبها في الابواب وانص على الجيد وأفضله وعلى الرديء وارذله . وأذكر من علل الجميع ما ينتهي اليه التخليص وتحيط به العبارة ويبقى ما لا يمكن اخراجه الى البيان ولا اظهاره الى الاحتجاج وهو علة ما لا يعرف الا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة . وبهذا يفضل أهل الحذق بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت قريحته وقلت دربته بعد ان يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الصناعة وامتزاج بها والا لا يتم ذلك . وأكلك بعد ذلك الى اختيارك وما تقضي عليه فطنتك وتمييزك فينبغي ان تنعم النظر فيما يرد عليك ولن ينتفع بالنظر الا من يحسن ان يتأمل ومن اذا تأمل علم ومن اذا علم أنصف » (١) .

ولكنه عدل عن هذا المنهج في الموازنة بعد ذلك وقال : « وقد انتهيت الآن الى الموازنة وكان الاحسن ان اوازن بين البيتين او القطعتين اذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية ولكن هذا لا يكاد يتفق مع اتفاق المعاني التي اليها المقصد وهي المرمى والغرض . وبالله استعين على مجاهدة النفس ومخالفة الهوى وترك التحامل فانه جل اسمهحسبي ونعم الوكيل » (٢) . وذكر منهجا آخر في الموازنة فقال : « وليس تكاد في القطعة التي تشتمل على عدة أبيات ان تكون سائر أبياتها موافقة في معانيها لسائر أبيات القطعة الاخرى ، وانما يوازن بين بيت وبيت اذا اتفقا اوبين غرض وغرض اذا تقاربا » (٣) .

لقد رسم الآمدي في هذه النصوص منهجه في الموازنة ، ويتلخص ذلك في أخذ معنيين في موقعين متشابهين وتبيان الجيد والرديء مع التعليل او بغيره ان لم

(١) الموازنة ج ١ ص ٣٨٨ .

(٢) الموازنة ج ١ ص ٤٠٥ .

(٣) الموازنة ج ١ ص ٤٨١ .

يجد علة ثم اصدار الحكم بان هذا اشعر من ذاك في هذا المعنى من غير ان يطلق الحكم الاخير لانه يرى ان ذلك صعب والأحسن ان يوضح المحاسن والمساوىء وللقارىء ان يحكم ويتخذ الرأي الذي يراه .

اما أسلوبه في الموازنة فقد كان علمياً يتخذ من المراجع وتوثيقها وتثبيت النصوص وتحقيقها أساسا . وقد راجع أقوال السابقين وآراءهم وعرضها قبل ان يبدأ بنقده وتلك سمة العلماء الذين لا يقولون الرأي قبل عرض الموضوع وما قيل فيه . وأوضح مثال على ذلك عرضه لحجج صاحب البحتري وصاحب أبي تمام ، والرجوع الى نسخ ديواني الشاعرين وتوثيق نصوصهما ، وهوحينما يعطي حكما يقول بعد ان يتأكد من الرواية : « ولولا ان سائر النسخ « ان هزل الهوى » لظننته ما قال الا « هزل النوى » لانهم ابدا ينعمون بالرحيل ولا يعزمون » (١) ويقول في بيت أبي تمام :

إذا عَمَدْتُ لتأوخلتُ أبيَ قــــــد أدْركْتُه ـ أدركتني حرفةُ العَـربِ

« وما زال الناس ينكرون هذا المعنى عليه ويعيبونه ولوكان قال : « حرفة الادب » كان أولى بالصواب وبما يستعمله الناس ولانه أديب غير مدفوع وليس في القصيدة أيضا ذكر للادب . وقد رواه قوم « الادب » انكارا لذكر العرب ههنا وغيره في عدة من النسخ القديمة . والذي في نسخة أبي سعيد السكري وأبي العلاء محمد بن العلاء وغيرهما : « العرب » (٢) .

ومصادره كثيرة وأولها الروايات التي ينقلها عن الآخرين ولا سيما اهــل التخصص منهم ، وثانيها الكتب التي رجع اليها ونقل منها ككتاب طبقات الشعراء لابن سلاّم الجمحي ، وأخبار الشعراء لابي عبدالله محمد بن داود بن الجراح وكتابه الورقة وكتابه في السرقات وكتاب الشعراء لابي علي دعبل الخزاعي ، وكتاب البديع لعبدالله بن المعتز وكتابه سرقات الشعراء وكتاب ابن أبي طاهر في السرقات وكتاب القطربلي في أبي تمام وكتب الانواء مثل كتاب الانواء لابي حنيفة

(١) الموازنة ج ٢، ص ٤٦ .

(٢) الموازنة ج ٢ ص ٢٥٧ .

الدينوري ، وكتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر وكتاب الخيل لابي عبيدة وغيرها من الكتب التي أشار الى اسمائها أولم يشر. والآمدي عند الرجوع الى هذه الكتب لا ينقل منها لأجل النقل وانما لتأييد رأي أورَدّ قولٍ كما فعل بكتاب قدامة وبكتاب أبي الضياء .

وفي كتاب « الموازنة » كثير من القضايا النقدية أهمها :

عمود الشعر :

الآمدي ممن التزم في نقده بعمود الشعر العربي وتقاليد العرب المعروفه . وقد انطلق من هذه النقطة في موازنته والحديث عن أبي تمام والبحتري . وكان يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع ويعيب على الشعراء الاغراق والابداع والميل الى وحشي الالفاظ والمعاني . ويتضح ذلك في مقدمة كتابه حينما اشار الى أنَّ الذين يفضلون البحتري هم الكتّاب والأعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة ، وان الذين يفضلون أبا تمام هم أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل الى التدقيق وفلسفي الكلام . وقد قال في البحتري إنّه « أعرابي التشعر مطبوع وعلى مذهب الاوائل وما فارق عمود الشعر المعروف » وقال في أبي تمام إنّه « شديد التكلف صاحب صنعة ويستكره الالفاظ والمعاني ، وشعره لا يشبه أشعار الاوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة » . وعلى هذا الاساس سار في كتابه ورجع الى أساليب العرب في نقد الشاعرين ، ورأى أنَّ صحة التأليف هي الدعامة بعد صحة المعنى ، قال : « فصحة التأليف في الشعر وفي كل صناعة هي أقوى دعائمه بعد صحة المعنى ، فكل من كان أصح تأليفا كان أقوم بتلك الصناعة ممن اضطرب تأليفه » [1] . وردد كثيرا مثل هذه العبارات : « فهذه هي الطريقة المعروفة في كلام العرب » ، و « هذا خلاف ما عليه العرب وضد ما يعرف من معانيها » ، و « لكنه استعمل الاغراب فخرج الى ما لا يعرف في كلام العرب ولا مذاهب سائر الامم » ، و « هذا جهل مما قاله بمعاني كلام العرب » [2] ، وغيرها من العبارات التي تدل على تمسكه بعمود الشعر ، ولكنه

(١) الموازنة ج ١ ص ٤٠٥ .

(٢) الموازنة ج ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٣٦٢ .

لم يضع قواعد هذا العمود في مقدمة كتابه ليسير عليها وانما اشار اليها في اثناء نقده وتعليقه على الأبيات . وتتلخص أسسه في هذا الموضوع بان يكون المعنى شريفا صحيحا ، واللفظ جزلا ، والوصف مصيباً ، والتشبيه مقاربا ، واجزاء النظم ملتحمة متلائمة ، والاستعارة متناسبة ، واللفظ مشاكلا للمعنى . وقد حدد المرزوقي هذا العمود بقوله : « انهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والاصابة في الوصف ـ ومن اجتماع هذه الاسباب الثلاثة كثرت سوائر الامثال وشوارد الأبيات ـ والمقاربة في التشبيه والتحام اجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ومناسبة المستعار منه للمستعار له ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقافية حتى لا منافرة بينهما . فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر »[1] . واذا كان الوقوف عند هذا العمود قد ضيّق مجال الآمدي في النقد الا انه كان امرا ضروريا ، وهو انه لا بد ان يضع امامه مقياسا اويتخذ منهجا يسير عليه وكان هذا المقياس او المنهج عمود الشعر ، ولولا ذلك لما استطاع ان يسير في نقده وان يوازن بين الشاعرين بل لأفلت منه زمام النقد وتخبط في متاهات لا تفضي الى رأي اوحكم . ولا يمكن ان يتخذ هذا المنهج مطعنا عليه بل كان خطوة عظيمة في النقد ، وهو التزامه بمقاييس واضحة وسعيه الى اهداف مرسومة. ولم يكن النقاد من قبله يلزمون أنفسهم هذا الالزام لذلك جاءت كثير من أحكامهم عامة تعوزها الدقة والنظرة العلمية .

الشعر :

الشعر عنده صناعة ، « فكما ان المعرفة بكل جنس من هذه صناعة فكذلك المعرفة بكل جنس من أجناس الكلام من الشعر والخطابة صناعة »[2] وهوما أشار اليه السابقون وعلى رأسهم ابن سلام في مقدمة طبقاته .

والشعر غير العلم ، وفي محاجة أنصار الشاعرين ما يوضح ذلك ، « قال

(١) شرح ديوان الحماسة ج ١ ص ٩ .

(٢) الموازنة ج ١ ص ٣٩٤ .

صاحب أبي تمام : فقد أقررتم لابي تمام بالعلم والشعر والرواية ولا محالة ان العلم في شعره أظهر منه في شعر البحتري ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

قال صاحب البحتري : قد كان الخليل بن احمد عالما شاعرا وكان الاصمعي عالما شاعرا وكان الكسائي كذلك وكان خلف بن حيان الاحمر أشعر العلماء وما بلغ بهم العلم طبقة من كان في زمانهم من الشعراء غير العلماء فقد صار التجويد في الشعر ليست علته العلم ولو كانت علته العلم لكان من يتعاطاه من العلماء أشعر ممن ليس بعالم . فقد سقط فضل أبي تمام من هذا الوجه على البحتري وصار البحتري اولى بالفضل اذ كان معلوما شائعا ان شعر العلماء دون شعر الشعراء » [1] .

ومما له صلة بعمود الشعر عند الآمدي ابتعاد الشعر عن الفلسفة والسير في اتجاه آخر رسمه بقوله : « وليس الشعر عند أهل العلم به إلاّ حُسْن التأتي وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الالفاظ في مواضعها ، وان يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله ، وان تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه فان الكلام لا يكتسي البهاء والرونق الا اذا كان بهذا الوصف ، وتلك طريقة البحتري .

قالوا : وهذا أصل يحتاج اليه الشاعر والخطيب صاحب النثر ، لأن الشعر أجوده أبلغه والبلاغة انما هي اصابة المعنى وادراك الغرض بالفاظ سهلة عذبة مستعملة سليمة من التكلف كافية لا تبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة ولا تنقص نقصانا يقف دون الغاية ، وذلك كما قال البحتري :

والشِّعْرُ لَمْحٌ تكفي إشارتُه ... وليس بالهَذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُهْ

فان اتفق ـ مع هذا ـ معنى لطيف اوحكمة غريبة اوأدب حسن فذاك زائد في بهاء الكلم ، وان لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه . قالوا : واذا كانت

(١) الموازنة ج ١ ص ٢٤ .

طريقة الشاعر غير هذه الطريقة وكانت عبارته مقصرة عنها ولسانه غير مدرك لها حتى يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان أو حكمة الهند أو أدب الفرس ويكون اكثر ما يورده منها بالفاظ متعسفة ونسج مضطرب وان اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليم النظر ، قلنا له : قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة فان شئت دعوناك حكيما اوسميناك فيلسوفا ولكن لا نسميك شاعرا ولا ندعوك بليغاً ، لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم فان سميناك بذلك لم نلحقك بدرجة البلغاء ولا المحسنين البلغاء »(١) . ويؤكد هذه الفكرة في كتابه فيقول معلقا على بيتي أبي تمام :

مِنْ سجايا الطلولِ أَنْ لا تُجيبا ... فصوابٌ من مُقْلَةٍ أَنْ تصوبا
فاسْأَلَنْها واجعلْ بكاك جوابـاً ... تَجِدِ الشوقَ سائلاً ومُجيبا

« وقوله : « فاسألنها واجعل بكاك جوابا » لانه قال : من سجاياها ان لا تجيب فليكن بكاؤك الجواب لانها لو أجابت أجابت بما يبكيك أو لانها لما لم تجب علمت ان من كان يجيب قد رحل عنها فأوجب ذلك بكاءك . وقوله : « تجد الشوق سائلا ومجيبا » أي انك وقفت على الدار وسألتها لشدة شوقك الى من كان بها ثم بكيت شوقا ايضا اليهم فكان الشوق سببا للسؤال وسببا للبكاء .

وهذه فلسفة حسنة ومذهب من مذاهب أبي تمام ليس على مذاهب الشعراء ولا طريقتهم »(٢) .

النقد :

والنقد كالشعر صناعة تحتاج الى ذوق وممارسة ودربة وليس لمن لم يعد نفسه لذلك ان يخوض في نقد الشعر واصدار الحكم عليه . وقد صوَّر الآمدي جانبا من الجنوح عن هذا الاساس وأشار الى الذين يدّعون العلم ولكن اذا حُقق الامر كانوا

(١) الموازنة ح ١ ص ٤٠٠ .
(٢) الموازنة ج ١ ص ٤٧١ .

من الجاهلين ، قال : « ثم ان العلم بالشعر قد خص بان يدعيه كل احد وان يتعاطاه من ليس من أهله فلم لا يدعي احد هؤلاء المعرفة بالعين والورق والخيل والسلاح والرقيق والبز والطيب وانواعه ؟ ولعله قد لابس من أمر الخيل وركوبها والسلاح والعمل بها او الرقيق واقتنائه او الثياب ولبسها او الطيب واستعماله اكثر مما عاناه من امر الشعر وروايته فلا يتهم نفسه في المعرفة بالشعر تهمته اياها بالمعرفة ببعض هذه الاشياء مما عاناه وزاوله ، وما باله ـ وقد ركب الخيل كثيرا ـ لما راقه من الفرس ملاحة سبيبه [1] واستدارة كفله وبريق شعره وحسن اشراقه وجودة خصره ـ توقف عن ابتياعه حتى يشاور من يجير أمره في جنسه وعتقه وموضع نتاجه وصحة قوائمه وسلامة أعضائه وبراءته من العيوب الظاهرة والباطنة . ... فكيف لم يفعل ذلك في الشعر لما راقه حسن وزنه وقوافيه ودقيق معانيه وما يشتمل عليه من مواعظ وأدب وحكم وامثال فلم يتوقف عن الحكم له على ما سواه حتى يرجع الى من هو أعلم منه بألفاظه واستواء نظمه وصحة سبكه ووضع الكلام منه في مواضعه وكثرة مائه ورونقه ، اذ كان الشعر لا يحكم له بالجودة الا بان تجتمع هذه الخلال فيه » . ثم قال : « فمن سبيل من عرف بكثرة النظر في الشعر والارتياض فيه وطول الملابسة له ان يقضى له بالعلم بالشعر والمعرفة باغراضه وان يسلم له الحكم فيه ويقبل ما يقوله ويعمل على ما يمثله ولا ينازع في شيء من ذلك ، اذ كان الواجب ان يسلم لاهل كل صناعة صناعتهم ولا يخاصمهم فيها ولا ينازعهم الا من كان مثلهم نظيرا في الخبرة وطول الدربة والملابسة » [2] .

وتحدث عن السبيل التي تبصر بالنقد وتدفع اليه فقال : « فاني ادلك على ما ينتهي بك الى البصيرة والعلم بأمر نفسك في معرفتك بهذه الصناعة او الجهل بها ، وهو ان تنظر ما أجمع عليه الائمة في علم الشعر من تفضيل بعض الشعراء على بعض فان عرفت علة ذلك فقد علمت وان لم تعرفها فقد جهلت ، وذلك بأن تتأمل شعر أوس بن حجر والنابغة الجعدي فتنظر من أين فضلوا أوساً وتنظر في شعري بشر بن أبي خازم وتميم بن أبي بن مقبل فتنظر من اين فضلوا بشرا .

(١) السبيب من الفرس : شعر الذنب والعرف والناصية .

(٢) الموازنة ج ١ ص ٣٨٩ وما بعدها .

وأخبرني بعض الشيوخ عن أبي العباس ثعلب عن ابن الأعرابي عن المفضل ان سائلا سأله عن الراعي وذي الرُمَّة أيهما أشعر؟ فصاح عليه صيحة منكرة ، أي لا يقاس ذو الرمة بالراعي وكذلك غير المفضل لا يقيسه به ولا يقارب بينهما . فتأمل ايضا شعري هذين فانظر من اين وقع التفضيل فهذا الباب أقرب الاشياء لك الى ان تعلم حالك في العلم بالشعر ونقده . فان علمت من ذلك ما علموه ولاح لك الطريق التي بها قدموا من قدموه وأخروا من أخروه فتق حينئذ بنفسك واحكم يسمع حكمك . وان لم ينته بك التأمل الى علم ذلك فاعلم انك بمعزل عن الصناعة » (1) . ولا يقبل الاستحسان او الاستهجان من غير تعليل ، ولذلك قال : « فان قلت انه قد انتهى بك التأمل الى علم ما علموه لم يقبل ذلك منك حتى تذكر العلل والاسباب ، فان لم تقدر على تلخيص العبارة عن ذلك فامسك حتى تعلم شواهده من فهمك ودلائله من اختياراتك وتمييزك بين الجيد والرديء » .

وليس في تقسيمات المنطق وحفظ اللغة ومقاييسها كل ما يعين الناقد ، وقد يظن أحدهم انه باطلاعه عليها ومعرفته لها يستطيع ان يكون ناقدا ، ولكن الآمدي يرد ذلك قائلا : « ثم اني اقول بعد ذلك : لعلك ـ اكرمك الله ـ اغتررت بان شارفت شيئا من تقسيمات المنطق او جملا من الكلام والجدل او علمت ابوابا من الحلال والحرام او حفظت صدرا من اللغة او اطلعت على بعض مقاييس العربية ، وانك لما أخذت بطرف نوع من هذه الانواع بمعاناة ومزاولة ومتصل عناية فتوجهت فيه ومهرت ظننت ان كل ما لم تلابسه من العلوم ولم تزاوله يجري ذلك المجرى ، وانك متى تعرضت له وأمررت قريحتك عليه نفذت فيه وكشفت عن معانيه . هيهات لقد ظننت باطلا ورمت عسيرا ، لأن العلم من أي نوع كان لا يدركه طالبه الا بالانقطاع اليه والاكباب عليه والجد فيه والحرص على معرفة أسراره وغوامضه ثم قد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويتسهل ويمتنع عليه جنس آخر ويتعذر لان كل امرئ انما يتيسر له ما في طبعه قبوله وما في طاقته

---

(1) الموازنة ج ١ ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ .

تعلمه فينبغي ـ أصلحك الله ـ ان تقف حيث وقف بك وتقنع بما قسم لك ولا تتعدى الى ما ليس من شأنك ولا من صناعتك » [١] .

إنَّ العلم والموهبة أساس النقد ، واذا توفر الذوق الرفيع والطبع السليم تمت أركانه وأصبح نقداً موضوعياً قوامه المعرفة والذوق ، ولذلك يلح الآمدي على هذه الاسس ويتخذ منها وسيلة في نقده وموازنته . وكان ذوقه صافيا صقلته المعرفة الواسعة بالشعر والدربة في فهمه والنظر فيه .

ومن أمثلة أحكامه الذوقية قوله في بيت منصور النمري في مدح الرشيد :

وعينٍ محيط بالبريَّةِ طَرْفُها   سواء عليه قُرْبُها وبعيدُها

اخذه أبو تمام فقال :

أَطَلَّ على كُلَى الآفاق حتى   كأَنَّ الارضَ في عينيه دارُ

وفضل بيت النمري وقال : « وبيت النمري أحب اليَّ ؛ لان معناه أشرح » [٢] .
وقال عن بيت مرار الفقعسي في وصف الاثافي :

أَثَرُ الوقودِ على جَوانِبها   بخدودهِنَّ كأَنَّه لَطْمُ

وقد أخذه أبو تمام فقال :

أَثافٍ كالخدودِ لطمن حزناً   ونؤيٌ مثلما انفصم السِّوارُ

الا ان بيت مرار أشرح واظهر معنى لقوله : « اثر الوقود على جوانبها » فابان المعنى الذي من أجله شبهت بالخدود الملطومة » [٣] . ومن استحسانه قوله بعد ان ذكر ابياتا للبحتري : « فهذا والله هو الشعر لا تعليلات أبي تمام بطباقه وتجنيسه

---

(١) الموازنة ج ١ ص ٣٩٦ .
(٢) الموازنة ج ١ ص ٦٤
(٣) الموازنة ج ١ ص ٦٥ .

وفرط تقعره » [1] . وقوله : « وهذا والله الكلام العربي والمذهب الذي يبعد على غيره ان يأتي بمثله » [2] . وقوله : « وهذا هو الذي يأخذ بمجامع القلب ويستولي على النفس . ومن حذق الشاعر ان يصور لك الاشياء بصورها ويعبر عنها بالفاظها المستعملة فيها واللائقة بها . وذلك مذهب البحتري وصناعته ، ولهذا كثر الماء والرونق في شعره وقالوا : لشعره ديباجة » [3] .

وذكر الدكتور إحسان عباس السبب الذي دفع الآمدي الى مثل هذه الاحكام وقال إنّها نتيجة نشأته التأثرية التي ظلت تلاحقه بآثارها القديمة ، ولذلك كان كثيراً ما يضيق ذرعا بالموضوعية المتزمتة ويثور ذوقه عليها ويستسلم الى تعليقات تأثرية فيها الكثير من الاسراف في الحمل على الشاهد وفيها التجني وفيها الى ذلك طرافة ساخرة [4] . ومن هذه التعليقات الساخرة قوله في بيتي أبي تمام :

لما استحرَّ الوداعُ المَحْضُ وانصرمَتْ	أواخرُ الصبر إلاّ كاظماً وجما
رأيت أحْسَنَ مرئي وأقْبَحَه	مستجمعين لي التوديعَ والعَنَما

« وأبو تمام استحسن اصبعها واستقبح اشارتها مودعة ، ولعمري إنَّ منظر الفراق منظر قبيح ولكن اشارة المحبوبة بالتوديع لا يستقبحها الا أجهل الناس بالحب واقلهم معرفة بالغزل وأغلظهم طبعا وابعدهم فهماً » [5] .

وقوله في بيت أبي تمام :

جارَى اليه البينُ وَصْلَ خريدةٍ	ماشَتْ اليه المَطْلَ مَشْيَ الأكْبدِ

« فيا معشر الشعراء والبلغاء ويا أهل اللغة العربية : خبرونا كيف يجاري البين وصلها وكيف تماشي هي مطلها ؟ ألا تسمعون ؟ ألا تضحكون ؟ » [6] .

---

(١) الموازنة ج ٢ ص ١١٨ .

(٢) الموازنة ج ٢ ص ١٧٧ .

(٣) الموازنة ج ٢ ص ١٩٩

(٤) تأريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٧٤ .

(٥) الموازنة ج ١ ص ٢١٩ .

(٦) الموازنة ح ١ ص ٢٦٤

وقوله في بيت أبي تمام :

ملطومَةٌ بالوَرْدِ أُطْلِقَ طَرْفُها   في الخَلْقِ فهو مع المنون مُحَكَّمُ

« وقوله : « ملطومة بالورد » يريد حمرة خدها فلم لم يقل مصفوعة بالقار ويريد سواد شعرها ومخبوطة بالشحم يريد امتلاء جسمها ومضروبة بالقطن يريد بياضها ؟ ان هذا لأحمق ما يكون من اللفظ وأسخفه وأوسخه » [1] .

وليست تعليقاته الذوقية كلها من هذا اللون بل الكثير منها يدل على فهم وادراك عميقين . ولذلك ينبغي أنْ لا يتخذ اعتماده على الذوق سبيلا الى الطعن فيه . بل يعتبر ذلك من السمات الحسنة التي تعين الناقد وتفتح الطريق له ما دام يتخذ وسائل اخرى في النقد لا تخرجه عن الطريق .

واعتمد على وسائل غير الذوق هي :

الرواية :

كانت ثقافة الآمدي واسعة ، وكان حفظه كثيرا ، لذلك نراه يرجع الى ما رُوي عن العرب في الموازنة والنقد ويقيس عليه ، ومن هنا كان ملتزما بعمود الشعر أو بطريقة العرب . قال بعد ان ذكر ما قاله أبو تمام والبحتري في سؤال الديار واستعجامها عن الجواب والبكاء عليها ، « فهذا ما وجدته لهما في هذا الباب ، وهما عندي فيه متكافئان وأجود من كل ما قالاه من ذلك قول جميل :

أصبح الرَّبْع من بُثينَة فَيَّا   زاده طُولُ ما تأبَّدَ عِيَّا
وإن ما يبينُ رَجْع سؤالٍ   ولقد يَسَمَعُ السؤالَ الخفيَّا

وقال المخبل :

وكأنَّما أَثَرُ النعاجِ بجوِّها   بمدافِعِ الرُكنين وَدْعُ جَوارِ

---

(١) الموازنة ج ٢ ص ٩٤ .

وسألتها عن أهلهـا فوجدتهـــــا　　　عميـاءَ جافيةً عـن الاخبـارِ

وهذا كلام حلو جدا »[1] .

وهذا الجانب واضح في كتابه بل هو عمدته في نقد الشعر وتوجيهه .

اللغة والنحو :

أولَى الآمدي اللغة والنحو عناية كبيرة ، وتدلّ ملاحظاته وتعليقاته على ثقافة واسعة . وقد وضع قاعدة هي : « اللغة لا يقاس عليها »[2] وفي ضوء هذه القاعدة نقد أبا تمام لاستعماله اللغة فيما لم يستعمله العرب وتشدد في كل ما رآه خارجا على طريقة العرب ورفضه وان كان يراها اهون من اخطاء المعاني ولا يكاد يخلو منها متقدم او متأخر . والكلمة اذا لم يؤت بها على لفظها المعتاد هجنت وقبحت ، قال في شرح بيت أبي تمام :

عَفَتْ أَرْبُعُ الحِلاَّتِ للأَرْبَعِ المُلْـــدِ　　　لِكُلٍّ هضيمِ الكَشْحِ مُغْرِبَةَ القَدِّ

الحلات : جمع حلة ، وهو الموضع الذي يحلونه ، يقال : حلة ومحلة . والاربع الملد : يريد أربع نسوة ملد من قولهم غصن املود وهو الغصن الناعم ، واملود لا يجمع على ملد ، وملد هو جمع أملد . وهضيم الكشح : يريد ضامرة البطن . وقوله : « مغربة القد » يريد أغرب قدها أي : لها قد غريب في الحسن . وانما اراد عفت أربع حلال اي مواطن لاربع نسوة ، وهذه تكلفة شديدة جاءت بلفظ غير حسن ولا جميل . وكذلك « مغربة القد » من قول الشعراء المتأخرين : غريب الحسن وغريب القد »[3] .

ولا يقبل حوشي الكلام وما يستكره من الالفاظ ، ونقد أبا تمام لتعمده ادخال الغريب في شعره بينما تعمد البحتري حذف الغريب والوحشي من شعره

---

(١) الموازنة ج ١ ص ٤٧٩ .

(٢) الموازنة ج ١ ص ٢١٦ .

(٣) الموازنة ج ١ ص ٤٢٣ – ٤٢٤ .

ليقربه الى الفهم ، الا ان يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة في موضعها من غير طلب لها [1] . والأعرابي قد يعذر في استعمال الوحشي والغريب لانه لا يقول الا على قريحته ولا يعتصم الا بخاطره ولا يستقي الا من قلبه ، أما الحضري المتأخر الذي يطبع على قوالب ويحذو على أمثلة ويتعلم الشعر تعلما ويأخذه تلقنا فمن شأنه ان يتجنب المذموم منه ولا يتبع من تقدمه الا فيما استحسن منهم واستجيد لهم [2] . بل يرى أنَّ الأعرابي قد يُلام اذا استعمله ، قال : « واذا كان هذا يستهجن من الاعرابي القح الذي لا يتعمل له ولا يطلبه وانما يأتي به على عادته وطبعه فهو من المحدث الذي ليس هو من لغته ولا من ألفاظه ولا من كلامه الذي تجري عادته به احرى ان يستهجن ، ولهذا أنكر الناس على رؤبة استعماله الغريب الوحشي وذلك لتأخره وقرب عهده حتى زهد كثير من الرواة شعره الا اصحاب اللغة والغريب » [3] .

ومن أمثلة تمسكه باللغة وتحقيقاته فيها تعليقه على لفظتي « الصبا » و« الدبور » في قول أبي تمام :

قَسَم الزمانُ ربوعَها بين الصَّبا ... وقَبولِها ودبورِها أَثْلاثا

لان الصبا هي القبول ، وليس بين أهل اللغة في ذلك خلاف ، ولا يصح تأويل ما ذكره أبو تمام [4] .

وتعليقه على « الأَيِّم » و « العَوان » و « البِكْر » وقوله بعد ان ذكر الوجه الصحيح : « فهذه طريقة الشعراء في العوان والبكر » [5] . وتحقيقه في لفظة « دون » ومعناها الذي هو عند أهل العربية : التقصير عن الغاية ، قال : « فمعنى قوله : « أنا أرضى بالقليل دون الكثير » أي أرضى بالقليل ولا انتهي الى الكثير أي

(١) الموازنة ج ١ ص ٢٥ .
(٢) الموازنة ج ١ ص ٢٤٣ .
(٣) الموازنة ج ١ ص ٢٨٦ .
(٤) الموازنة ح ١ ص ١٥٢ .
(٥) الموازنة ج ١ ص ١٦٦ ، ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

لا أطمح اليه واقنع بقرص من شعير ولا انتهي الى ما سواه ، فهذه حقيقة معنى اللفظ » [١] .

وتبدو مقدرته في النحو وتوجيهه للابيات في نقده خروج الشعراء على اسلوب العرب في تركيب الكلام وما فيه من حذف او تقديم أو تأخير . قال في بيت أبي تمام :

يدي لمن شاء رَهْنٌ لم يَذُقْ جَرعـــاً   من راحتيه دَرى ما الصَّابُ والعَسَلُ

« لفظ هذا البيت مبني على فساد لكثرة ما فيه من الحذف ، لانه اراد بقوله « يدي لمن شاء رهن » أي أصافحه وأبايعه معاقدة أومراهنة ان كان لم يذق جرعا من راحتيك درى ما الصاب والعسل . ومثل هذا لا يسوغ لانه حذف « ان » التي تدخل للشرط ولا يجوز حذفها لانها اذا حذفت سقط معنى الشرط ، وحذف « من » وهي الاسم الذي صلته « لم يذق » فاختل البيت وأشكل معناه » [٢] .

ويرى الدكتور محمد مندور أنَّ تمسكه بقاعدته « اللغة لا يقاس عليها » أفسد بعض نقده وجعله لا يخرج على ما عرفه القدماء [٣] ، ويرى الدكتور إحسان عباس انه لا يخلو في تدقيقه اللغوي من التحكم فلفظة الأيِّم التي تحدث عنها طويلا قد تقبل دون ذلك الجدل الطويل الذي وضعه ، والمأخذ الكبير على الذاهبين مذهب الدقة هذا انهم يتقيدون بوجهة نظر واحدة ولا يصححون ما عداها ، فاذا روى أحد علماء اللغة تفسيرا للفظة لا يوافق المشهور لم يقبلوه وليس كذلك موقف الشاعر . ثم ان الالفاظ تنزلق احيانا انزلاقا يسيرا عما وضعت له بمرور الزمن ، وهذا مبدأ لا يحترمه أمثال الآمدي القائلون بالتدقيق [٤] .

وما قاله الدكتوران صحيح الى حد كبير ، ولكن اللغة لا يمكن أن تخرج

(١) الموازنة ج ١ ص ١٧٢ .
(٢) الموازنة ج ١ ص ١٨١ .
(٣) النقد المنهجي عند العرب ص ١٢٢ وما بعدها .
(٤) تأريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٧٩ .

عن إطارها العام وان لا تستعمل الالفاظ فيما يثير الالتباس والغموض . واذا أخذنا بمبدأ حرية الشاعر فان ذلك قد يؤدي الى الخروج عن اللغة بل الانفصال التام عنها . ان اللفظة قد تستعمل في غير ما وضعت له وقد تتطور بمرور الاجيال على ان لا تفقد صلتها بالمعنى الاول الذي يشترك في فهمه الناطقون بها لئلا تلتبس بغيرها وتضيع دلالتها ، واذا كانت لفظة « الأيّم » قد وضعت للدلالة على من لا زوج لها بكرا كانت او ثيبا ، فلماذا نستعملها بمعنى الثيب فقط . لقد كان الآمدي محافظاً على اللغة لا لأنه يحب التقليد ويأبى التجديد وإنما كان يخشى أن تخرج الالفاظ عن معانيها الدقيقة ويفضي الكلام الى التعقيد والابهام .

البديع :

البديع عند الآمدي هو صور البلاغة المختلفة ، ولم يبحثها كما بحثها البلاغيون وانما استعان بها في نقده ولا سيما حينما عرض حجة صاحب البحتري وذهابه الى ان ابا تمام لم يخترع مذهبه في البديع وانما سلك في ذلك سبيل مسلم ، واحتذى حذوه ، على ان مسلماً غير مبتدع لهذا المذهب ولا هو اول فيه ولكنه رأى هذه الانواع التي وقع عليها اسم البديع متفرقة في اشعار المتقدمين فقصدها واكثر في شعره منها كالاستعارة والجناس والطباق . وبذلك كانت البلاغة حية متطورة تأخذ مكانها في كتاب الموازنة كلما وجدت الى ذلك سبيلا . والفنون التي وردت فيه هي :

١ ـ **المجاز** : وهو من الفنون الاولى التي دارت في الكتب ، وقد قرر الآمدي كغيره انه « لا مجاز من غير حقيقة » وان له صورا معروفة والفاظا مألوفة لا يجوز الخروج عليها ، قال في بيت أبي تمام :

بيومٍ كطولِ الدَّهْرِ في عَرْضِ مثله ووجديَ من هذا وهذاك أَطْوَلُ

« فجعل للدهر ـ وهو الزمان ـ عرضا وذلك محض المحال ، وعلى انه ما كانت به اليه حاجة لانه قد استوفى المعنى بقوله : « كطول الدهر » فأتى على العرض في المبالغة .

فان قيل : فلم لا يكون سعة ومجازا ؟

قيل : هذه الالفاظ صيغتها صيغة الحقائق وهي بعيدة من المجاز ، لان المجاز في هذا له صورة معروفة وألفاظ مألوفة معتادة لا يتجاوز في النطق بها الى ما سواها » [1] .

ولم يتحدث عن أنواع المجاز لانها لم تتضح في زمنه ، ولكن الامثلة التي ذكرها وتعليقه عليها توحي بانه ميز بين انواع مختلفة منه وان لم يسمها باسمائها التي عرفتها كتب البلاغة المتأخرة كالمجاز العقلي الذي اشار اليه في قول الخنساء :

تَرْتَع ما رتَعَتْ حتى إذا ادَّكَـرَتْ ... فإنَّما هـي إقبـال وإدبـارْ

فجعلت الناقة هي الاقبال والادبار لان ذلك كثر منها ، وهذا هو التفسير المجازي للبيت . وقد فسره تفسيرا آخر وكان المعنى انها ذات اقبال وادبار ، على سبيل اقامة المضاف اليه مقام المضاف .

واشار اليه في قولهم : « ليل نائم » أي ينام فيه ، و « لمح باصر » أي يبصر فيه ، وقوله تعالى : « عِيشةٌ راضية » بمعنى مرضية [2] .

وأشار الى السببية والمجاورة وهي من علاقات المجاز المرسل [3] ، كقولهم للمطر : سماء ، وقولهم : ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم .

قال الشاعر :

إذا سقط السَّماءُ بارضِ قـومٍ ... رعيناه وإنْ كـانـوا غِضابـا

اراد اذا سقط المطر رعيناه ، أي رعينا النبت الذي يكون عنه ، ولهذا سمي

---

(١) الموازنة ج ١ ص ١٨٨ .
(٢) الموازنة ج ١ ص ١٦٥ ، ١٩١ ، ٢١٦ .
(٣) الموازنة ج ١ ص ٣٤ .

النت ندى لانه عن الندى يكون .

وقالوا : « ما به طِرْقٌ » إي ما به قوة ،والطِّرْق الشحم ،فوضعوه موضع القوة لان القوة عنه تكون . وقولهم للمزادة راوية وانما الراوية البعير الذي يسقى عليه الماء فسمي الوعاء الذي يحمله باسمه . ومن ذلك الحفض متاع البيت فسمي البعير الذي يحمله حفضا . وهذه بعض انواع المجاز المرسل التي تحدث عنها البلاغيون المتأخرون . وأشار الى استعمال الاضداد على سبيل المجاز ، قال : « والاضداد لا يستعمل أحد في موضع الآخر الا على سبيل المجاز» [1] ، والى مجاز التغليب كما في العمرين والقمرين [2] .

٢ ـ **الاستعارة** : وهي من البديع عنده ، وكانت من أسباب الخلاف بين القدماء والمحدثين ، فقد ذهب انصار القديم الى أنَّ أبا تمام أسرف فيها وخرج على عمود الشعر حينما جاء باستعارات غريبة ، وتبعهم الآمدي في ذلك وعقد فصلا في استعاراته القبيحة المستكرهة ، وأوضح رأيه في كثير من المناسبات فقال عن شروط استعارة اللفظة : « وانما تستعار اللفظة لغير ما هي له اذا احتملت معنى يصلح لذلك الشيء الذي استعيرت له ويليق به ، لان الكلام انما هو مبني على الفائدة في حقيقته ومجازه ، واذا لم تتعلق اللفظة المستعارة بفائدة في النطق فلا وجه لاستعارتها » ، وقال : « الاستعارة لا تستعمل الا فيما يليق بالمعاني ولا تكون المعاني به متضادة متنافية ، ولهذا حدود اذا خرجت عنها صارت إلى الخطأ والفساد »، وقال : « وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس هو له اذا كان يقاربه او يناسبه او يشبهه في بعض احواله او كان سببا من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه » ، وقال : « ان للاستعارة حدا تصلح فيه اذا جاوزته فسدت وقبحت » [3] .

---

(١) الموازنة ج ١ ص ٢٣٨

(٢) الموازنة ج ١ ص ٣٧٦ .

(٣) الموازنة ح ١ ص ١٩١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٠ ، ٢٥٩ .

ويبدو تمسكه باسلوب الاستعارة القديم واضحا ، ولذلك استحسن كثيرا من استعارات القدماء ووقف من استعارات أبي تمام موقفاً أملاه عليه عمود الشعر وهو ان يكون المستعار منه مناسبا للمستعار له ، وفي كثير من استعارات أبي تمام خروج على هذه القاعدة .

٣ ـ **التشبيه** : قال الآمدي : « فليس كل شيء يشبه بشيء يقع التشبيه فيه من جميع الجهات حتى لا يغادر منها شيئاً قد يكون ، انما شبه به ببعض ما فيه لا بكله » .[١] وهذا وجه الشبه الذي يقوم عليه الربط بين المشبه والمشبه به وهو ما اتفق عليه البلاغيون وكرروا ما قاله هو وغيره من المتقدمين . وقد اشار الى حذف المشبه وجعله في مكان المشبه به[٢] .

والآمدي في هذا الفن مرتبط بعمود الشعر وبطريقة العرب في التشبيه ، ولا يرى الخروج عليها لانه قد يفضي الى فساد المعنى . واستعمل مصطلح التمثيل ولكنه يريد به التشبيه لا معناه البلاغي المعروف عند المتأخرين .

٤ ـ **الكناية** : ذكر الكناية عن صفة وان لم يسمّها كذلك لانها من مصطلحات المتأخرين ، قال في بيت ذي الرمة :

والقُرْطُ في حُرَّةِ الذِفْرى مُعَلَّقـهُ   تباعَدَ الحَبْلُ منـه فهو يَضْطَرِبُ

« فهذه المبالغة لائقة مستحسنة ، لانه دل على الوصف بالشيء الذي يخص الموصوف لا بالشيء الذي يخص غيره »[٣] .

واستعمل الكناية بمعنى الضمير كما استعملها المتقدمون[٤] . ولعل عدم اتخاذ هذا الفن سبيلا للطعن على أبي تمام جعل الآمدي لا يخوض فيه

(١) الموازنة ج ١ ص ٣٨١ .
(٢) الموازنة ج ١ ص ١٥٦ .
(٣) الموازنة ج ١ ص ١٥٠ .
(٤) الموازنة ج ١ ص ٢٠٨ ، ٣٨٢ ، وج ٢ ص ١٧ .

كما خاض في الاستعارات التي كانت أساس الخلاف اوالخروج على تقاليد العرْب الشعرية .

٥ ـ **الجناس** : وهو من الفنون التي كثر الحديث عنها في شعر المحدثين . وقد عقد الآمدي فصلا عن قبيح تجنيس أبي تمام ، وقال : « ورأى ابو تمام ايضا المجانس من الالفاظ متفرقاً في أشعار الاوائل ، وهو ما اشتق بعضه من بعض ... ومثل هذا في أشعار الاوائل موجود لكن انما يأتي منه في القصيدة البيت الواحد والبيتان على حسب ما يتفق للشاعر ويحضر في خاطره وفي الاكثر لا يعتمده ، وربما خلا ديوان الشاعر المكثر منه فلا ترى له لفظة واحدة . فاعتمده الطائي وجعله غرضه وبنى اكثر شعره عليه فلو كان قلل منه واقتصر... لكان قد أتى على الغرض وتخلص من الهجنة والعيب » [(١)] .
وانما يحسن الجناس اذا جاء بلفظتين وقد جاء مثله في أشعار الناس ، اما ان يجيء في ثلاثة ألفاظ فلا يكون مقبولا جيدا ، كقول أبي تمام :

سَلَمٌ على الرَّبْعِ مِنْ سَلمى بذي سَلَمِ   عليه وَسْمٌ من الأيام والقِدَمِ [(٢)]

٦ ـ **الطباق** : وهو من الفنون التي عقد فيها فصلا وذكر ما يستكره لابي تمام منه . وهو « مقابلة الحرف بضده او ما يقارب الضد ، وانما قيل مطابق لمساواة أحد القسمين صاحبه وان تضادا أو اختلفا في المعنى » [(٣)] . ولو اقتصر ابو تمام على ما اتفق له من غير تكلف لجاء حسنا مقبولا ، ولتهذب معظم شعره وسقط اكثر ما عيب عليه .

هذه أهم الفنون التي كانت موضع الجدل والخصومة ، وهناك موضوعات بلاغية أخرى ذكرها الآمدي في أثناء حديثه عن الشعر أو تعليقه على بيت من الابيات .

---

(١) الموازنة ح ١ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٨ .
(٢) الموارنة ج ١ ص ٤١٧ .
(٣) الموارنة ج ١ ص ٢٧١ .

وهذه الفنون هي المبالغة [١] ، وحسن التقسيم وفساده [٢] ، والاستطراد [٣] ، والمعاظلة [٤] ، والتعقيد في اللفظ [٥] ، والحشو [٦] ، وخروج الاستفهام عن معناه الى الاغراض المجازية كالتقرير [٧] ، والحذف والاختصار [٨] ، والقلب الذي قال عنه : « المتأخر لا يرخص له في القلب ، لان القلب انما جاء في كلام العرب على السهو ، والمتأخر إنما يحتذي على أمثلتهم ويقتدي بهم وليس ينبغي له ان يتبعهم فيما سهوا فيه » [٩] ، وأنكر ان يكون في القرآن الكريم قلب .

واستعان بالعروض في نقده وعقد فصلين الأول فيما جاء من الزحاف واضطراب الوزن في شعر أبي تمام ، والثاني فيما جاء من اضطراب الأوزان في شعر البحتري .

هذه أهم الوسائل التي استخدمها في النقد وهي ، أدوات تقوم على العلم وتمييز الصحيح من الخطأ والجيد من الرديء ، وبذلك جمع النقد المعلل الى جانب النقد الذوقي .

السرقات :

ومن القضايا التي عالجها السرقات ، وهي من المسائل التي اهتم بها النقاد منذ عهد مبكر وألفت فيها كتب كثيرة . ويرى ان السرقة تكون في البديع الذي ليس للناس فيه اشتراك قال : « إنّ السرقة إنّما هي في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر لا في المعاني المشتركة بين الناس التي هي جارية في عاداتهم ومستعملة في امثالهم ومحاوراتهم مما ترتفع الظنة فيه عن الذي يورده ان يقال انه أخذه من

(١) الموازنة ج ١ ص ٣٢ ، ١٤٩ - ١٥٠ .
(٢) الموازنة ج ١ ص ٤٧ ، ٣٧٢ ، وج ٢ ص ١٣٥ .
(٣) الموازنة ج ٢ ص ٣٣٠ .
(٤) الموازنة ح ١ ص ٢٧٦ .
(٥) الموازنة ج ١ ص ٤٧ .
(٦) الموازنة ج ١ ص ٤١٨ .
(٧) الموازنة ج ١ ص ٢٠١ وما بعدها ، وج ٢ ص ٢٥٥ .
(٨) الموازنة ح ١ ص ١٨١ ، ٥٢٦ .
(٩) الموازنة ج ١ ص ٢٠٧ ، ٥٢٣ .

عيره » [١] ولذلك انتقد ابن أبي طاهر في تخريج سرقات أبي تمام الذي خلط الخاص من المعاني بالمشترك بين الناس مما لا يكون مثله مسروقا .

والسرقات باب ما يعرى منه أحد من الشعراء الا القليل وليست من كبير المساوىء ، ولا بأس ان يتفق شاعران ينشآن في بيئة واحدة ، قال : « اذ كان غير منكر لشاعرين متناسبين من أهل بلد متقاربين ان يتفقا في كثير من المعاني ولا سيما ما تقدم الناس فيه وتردد في الاشعار ذكره وجرى في الطباع والاعتياد من الشاعر وغير الشاعر استعماله » [٢] .

هذا رأي الآمدي في السرقات وهو رأي يجعل الموضوع محدودا لان الكثير من المعاني مشتركة بين الناس ، واذا توسع الناقد في بحث السرقات ووسع مفهومها لم يقف عندحد بل ربما لا يجعل للشاعر فضلاً ، ولو اتخذ النقاد رأيه اساسا لما أسرفوا في القول واتهموا الشعراء بالسرقة . ان الفكرة قد تكون عامة معروفة ولكن الشاعر المجيد يستطيع ان يعبر عنها تعبيرا جميلا ، وهذا ما فعله أبو تمام حينما صاغ الافكار وعبر عنها باسلوب جديد . ولم يكن اتفاقه في المعاني مع الآخرين عيباً ، لانه كما يقول الآمدي متحدثا عن بيت البحتري :

ويبيت يحلُم بالمكـارِمِ والعُـلى حتى يكونَ المجدُ جُلَّ منامِـه

« وهذا المعنى موجود في عادات الناس ومعروف في كلامهم وجار كالمثل على ألسنتهم بان يقولوا لمن أحب شيئا او استكثر منه : فلان لا يحلم الا بالطعام وفلان لا يحلم الا بفلانة من شدة وجده بها وهذا الزنجي ما حلمه الا بالتمر . ولا يقال لما كانت هذه سبيله : سرق ، وانما يقال له اتفق ، فان كل واحد سمع هذا المعنى او مثله من آخر واحتذاه فانما ذكر معنى قد عرفه واستعمله لا انه أخذه أخذ سرق » [٣] وينبغي ان لا يحتذي المتأخر الا ما كان مجيدا مختارا لسعة مجاله ولكثرة

---

(١) الموازنة ج ١ ص ٣٢٦ ، وتنظر ص ٥٢ – ٥٣ .
(٢) الموازنة ج ١ ص ٥٣ ، وتنظر ص ١٣٤ ، ٢٩١
(٣) الموازنة ج ١ ص ٣٢٧ .

أمثلته ، ولا يعد ذلك عيبا كبيرا ، اما اذا احتذى الرديء فذلك هو العيب الذي يمقت .

واذا كان هذا رأي الآمدي فلِمَ بحث السرقات في موازنته ؟ وقد أجاب عن هذا السؤال بنفسه قائلا : « وكان ينبغي ان لا اذكر السرقات فيما أخرجه من مساوىء هذين الشاعرين لانني قدمت القول في ان من ادركته من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوىء الشعراء وخاصة المتأخرين اذ كان هذا بابا ما تعرى منه متقدم ولا متأخر ، ولكن أصحاب أبي تمام ادعوا انه أول سابق وانه أصل في الابتداع والاختراع فوجب اخراج ما استعاره من معاني الناس ، فوجب من أجل ذلك اخراج ما أخذه البحتري أيضا من معاني الشعراء . ولم أستقصِ باب البحتري ولا صرفت الاهتمام الى تتبعه لان اصحاب البحتري ما ادعوا ما ادعاه أصحاب أبي تمام لابي تمام بل استقصيت ما أخذه من أبي تمام خاصة » (١) .

وكان موضوع السرقات من اول البحوث التي شغل الآمدي بها نفسه وقد بدأ كتابه بها فعقد فصلا طويلا في سرقات أبي تمام ، تحدث في مطلعه عن شيوع هذه الظاهرة في شعره . وقد عزاها الى اطلاعه الواسع على الشعر واهتمامه بـه ودراسته وجمعه في كتب مشهورة معروفة ، وهذه « الاختيارات تدل عـلى عنايته بالشعر وانه اشتغل به وجعله وكده واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه وانه ما فاته كثير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث الا قرأه وطالع فيه ، ولهذا ما أقول : ان الذي خفي من سرقاته اكثر مما ظهر منها على كثرتها » (٢) .

وقد ذكر ما وقع اليه في كتب الناس من سرقاته وما استنبطه واستخرجه ، وطريقته ان يذكر البيت القديم او الابيات ثم يردفهـا ببيت أبي تمام من غير ان يعلق عليها في كثير من الاحيان . وقد دافع عن أبي تمام ورد ما ذهب اليه ابن أبي

---

(١) الموازنة ج ١ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

(٢) الموازنة ج ١ ص ٥٦ .

طاهر الذي خرج سرقاته فاصاب في بعضها وأخطأ في البعض . وأشار إلى ان أبا تمام قد يجمع المعنى من عدة سرقات كما في قوله :

وركبٍ كأطرافِ الاسنَّة عَرَّسوا ... على مِثْلِها والليل تسطو غياهبُه
لأمرٍ عليهم أن تتم صدورُه ... وليس عليهم أنْ تتمَ عواقِبُه

أخذ صدر البيت الاول من قول كثيّر :

وركبٍ كأطراف الاسنَّةِ عَرَّجُوا ... قلائصَ في أصلابِهن نحولُ

ويشبه قول البعيث :

أطافَتْ بشُعْثٍ كالأسِنَّة هُجَّدٍ ... بخاشعةِ الأَصْواءِ غُبْرٍ صُحونُها

وأخذ معنى البيت الثاني من قول الآخر :

غلامٌ وغىً تَقَحَّمهَا فأَبلَى ... فخانَ بلاءه الزَّمَنُ الخَؤونُ
فكان على الفَتى الإقدامُ منهُ ... وليس عليه ما جَنَتِ المنونُ (١)

ويتردد احيانا في الحكم على سرقته ومن أين أخذها فقال في بيت مسلم بن الوليد في وصف الحمر :

قُتِلَتْ وعاجلَها المديرُ فلم تُقَدْ ... فإذا به قَدْ صَيَّرته قتيلا

فأخذه الطائي فأحسن الاخذ فقال :

إذا اليَدُ نالتها بِوِترٍ تَوقَّرَتْ ... على ضِغْنها ثم استقادَتْ من الرِجْلِ

فان كان اخذه من ديك الجن فلا احسان له فيه لانه أتى بالمعنى بعينه ، قال ديك الجن :

تَظَلُّ بأيدينا تَتَعْتعُ روحُها ... وتأخذ من أَقدامِنا الراحُ ثارَها

(١) الموازنة ج ١ ص ٥٨ ـ ٥٩ .

كذا وجدته فيما نقلت ، وليس ينبغي ان نقطع على أيهما أخذ من صاحبه لانهما كانا في عصر واحد »[1] .

ويعلل أحيانا عدم استحسان سرقة أبي تمام فيقول في مثل بيت مسلم بن الوليد يرثي :

فاذْهَب كما ذَهبَتْ غوادي مُزْنـةٍ　　　أَثنى عليها السهـلُ والاوعـارْ

أخذ أبو تمام المعنى وقصَّر في العبارة فقال :

وَقَفْنا فقلنا بعد أنْ أُفْرِدَ الثَّـــرى　　　به ما يُقالُ في السَّحابةِ تُقْلِـعُ

وتقصيره عن مسلم ان مسلما قال : « أثنى عليها السهل والاوعار » فاراد ان هذه السحابة عمت بنفعها . وفي قول أبي تمام : « ما يقال في السحابة تقلع » ابهام ، لانه لم يفصح بالثناء عليها وانها نفعت وقد يقال في السحابة اذا اقلعت ما هو غير المدح والثناء اذا أتت في غير حينها وفي غير وقت الحاجة اليها وكثيرا ما يضر المطر اذا كانت هذه حاله ، وان كان ابو تمام لم يرد هذا القسم وانما أراد القسم الآخر فقد قصر في العبارة والشرح ، ألا نرى الى قول الشاعر الاول ما أحسن ما شرط وهو طرفة :

فسقى ديـارَك غـير مفسدِهـــــا　　　صوبُ الربيـعِ وديمـةٌ تَهْمي

قال : « غير مفسدها » لما دعا لها بالسقيا الذي يدوم[2] .

ومثل هذا التعليل كثير في كتاب « الموازنة » ، وهو يدل على انه لا يريد ان يعرض السرقة من غير أن يلتمس الاسباب .

وعقد فصلاً في سرقات البحتري ، ولكنه لم يُطل الحديث فيها لأَنَّ أصحابه ما ادعوا ما ادعاه اصحاب أبي تمام ، وهي كثيرة ولو استقصاها لكانت نحو ما

(١) الموازنة ج ١ ص ٥٧ ـ ٥٨ .
(٢) الموازنة ج ١ ص ٧٠ ـ ٧١ .

خرجه من سرقات أبي تمام أو تزيد عليها . واهتم بما أخذه من معاني أبيات أبي تمام خاصة وهو مما نقله من صحيح ما خرجه أبو الضياء لانه استقصى ذلك استقصاءً بالغ فيه حتى تجاوزه الى ما ليس بمسروق . وختم الفصل بقوله : « ولعل قائلا يقول اني قد تجاوزت في هذا الباب وقصرت ولم أستقص جميع ما خرجه أبو أبو الضياء بشر بن يحيى من المسروق ، وليس الامر كذلك بل قد استوفيت جميعه فأوضحت وتسامحت بان ذكرت ما لعله لا يكون مسروقا وان اتفق المعنيان او تقاربا .غير اني اطرحت سائر ما ذكره ابو الضياء بعد ذلك لانه لم يقنع بالمسروق الذي يشهد التأمل الصحيح بصحته حتى تعدى ذلك الى التكثير والى ان ادخل في الباب ما ليس منه »(1) .

وليس ببعيد أن يأخذ البحتري من أبي تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمعه من شعر أبي تمام فيعلق شيئا من معانيه متعمدا للأخذ او غير متعمد ، وغير منكر لشاعرين متناسبين من أهل بلدين متقاربين ان يتفقا في كثير من المعاني ولا سيما ما تقدم الناس فيه وتردد في الاشعار.

تلك أسس الآمدي في النقد ، فماذا كان موقفه من الشاعرين ؟

الموازنة :

كانت الأسس التي أدار عليها نقده عمدته في الموازنة بين الطائيين ، وفي المقدمة التي ذكر فيها حجج الانصار كثير من هذه الاسس والاصول وقد انطلق في كثير من أحكامه منها ، وذكر من يفضل أبا تمام وهم اهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل الى التدقيق وفلسفي الكلام ، ويرون ان شعره لا يتعلق بجيده جيد ، وأعرض عنه من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور علمه عنه وفهمته العلماء وأهل النفاذ في علم الشعر(2) . وهذا شبيه بما قاله الصولي في مقدمة كتابه « أخبار أبي تمام » حين أرجع هذا الاعراض الى الجهل وابتغاء الشهرة . اما الذين

(1) الموازنة ج ١ ص ٣٢٥ .
(2) الموازنة ج ١ ص ٥ ، ١٩ .

ذموه فهم الكتاب والاعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة ، وهؤلاء أقرب الى البحتري وألصق بطريقته لانه لم يخرج على عمود الشعر كما خرج ابو تمام . وعلة ذمهم لابي تمام انه كان يسعى الى البديع فيخرج الى المحال ، وان استكثاره منه من أعظم ذنوبه . ونقدوه في استعاراته وتجنيسه وطباقه واوزان شعره والفاظه ومعانيه ولكن خطأه في المعاني واحالاته وبعد استعاراته وكثرة ما يورده من الساقط والغث البارد مع سوء سبكه من أعظم عيوبه .

اما البحتري فقد فضّله الكُتّاب والأعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة ، ولم يذكر الآمدي كثيرا من عيوبه لانه كما يرى التزم بطريقة العرب . ولم يعط الرأي القاطع في أيهما أشعر ، وذكر ان النقاد لم يتفقوا كما لم يتفقوا على أحد ممن وقع التفضيل بينهم من شعراء الجاهلية والاسلام والمتأخرين ، وقال : « ولست أحب ان اطلق القول بايهما أشعر عندي لتباين الناس في العلم واختلاف مذاهبهم في الشعر ، ولا أرى لاحد ان يفعل ذلك فيستهدف لذم أحد الفريقين لان الناس لم يتفقوا على أي الاربعة أشعر . في امرئ القيس والنابغة وزهير والاعشى ولا في جرير والفرزدق والاخطل ولا في بشار ومروان والسيد ولا في أبي نواس وأبي العتاهية ومسلم والعباس بن الاحنف لاختلاف آراء الناس في الشعر وتباين مذاهبهم فيه . فان كنت ـ أدام الله سلامتك ـ ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق فالبحتري أشعر عندك ضرورة . وان كنت تميل الى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوي على ما سوى ذلك فأبو تمام عندك أشعر لا محالة .

فأمّا أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ، ولكني اقارن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما اذا اتفقتا في الوزن والقافية واعراب القافية وبين معنى ومعنى ثم أقول ايهما أشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ثم احكم انت حينئذ ان شئت على جملة ما لكل واحد منهما اذا أحطت علما بالجيد والرديء »[1] . وقال : « وأنا اذكر باذن الله الآن في هذا الجزء انواع المعاني

(١) الموازنة ج ١ ص ٦ ـ ٧ .

التي يتفق فيها الطائيان وأوازن بين معنى ومعنى وأقول أيهما أشعر في ذلك المعنى بعينه ، فلا تطلبني ان اتعدى هذا الى ان أفصح لك بأيهما أشعر عندي على الاطلاق فاني غير فاعل ذلك ، لانك ان قلدتني بشيء لم تحصل لك الفائدة بالتقليد وان طالبت بالعلل والاسباب التي أوجبت التفضيل فقد أخبرتك فيما تقدم بما أحاط به علمي من نعت مذهبيهما »، ثم قال بعد أن أوضح طريقته في الموازنة : « وأكِلك بعد ذلك الى اختيارك وما تقضي عليه فطنتك وتمييزك فينبغي ان تنعم النظر فيما يرد عليك ولن ينتفع بالنظر الا من يحسن أن يتأمل ومن اذا تأمل علم ومن اذا علمَ أنصف » وأوضح مذهب الشاعرين بعد ذلك فقال : « وينبغي ان تعلم ان سوء التأليف ورداءة اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه حتى يحوج مستمعه الى طول تأمل ، وهذا مذهب أبي تمام في عظم شعره . وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاءً وحسناً ورونقاً حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تعهد ، وذلك مذهب البحتري ، ولهذا قال الناس : لشعره ديباجة ولم يقولوا ذلك في شعر أبي تمام » (١) .

فالشاعران مختلفان ، وقد صرَّح الآمدي بذلك فقال : « وانهما لمختلفان لأن البحتري أعرابي الشعر مطبوع ، ... ولان أبا تمام شديد التكلف صاحب صنعة » (٢) ، ولكن لم الموازنة ؟ وقد أجاب الدكتور احسان عباس انها ذات مظهر علمي موهم باستغلال الاحصاء ، وانها نظرياً نقطة التقاء المنصفين وعملياً توقع الآمدي في التناقض (٣) . ولعل الآمدي لم يقصد الى هذا بل اراد ان يعرض حجج الانصار والخصوم ويدلي برأيه في مسألة شغلت النقاد زمناً طويلا ، وهذا من حق أي ناقد له فكرة واضحة وهدف نبيل .

واتهم الآمدي بانه تحامل على أبي تمام ، قال ابو الفرج منصور بن بشر النصراني الكاتب : « كان الآمدي النحوي صاحب كتاب الموازنة يدعي هذه

(١) الموازنة ج ١ ص ٣٨٨ ، ٤٠٢ .
(٢) الموازنة ج ١ ص ٦ .
(٣) تأريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٥٨ وما بعدها .

المبالغات على أبي تمام ويجعلها استطرادا لعيبه اذا ضاق عليه المجال في ذمه» [1]

وقال ياقوت الحموي : «كتاب الموازنة بين البحتري وأبي تمام عشرة اجزاء وهوكتاب حسن وان كان قد عيب عليه في مواضع منه ونسب الى الميل مع البحتري فيما أورده والتعصب على أبي تمام فيما ذكره . والناس بعد فيه على فريقين : فرقة قالت برأيه حسب رأيهم في البحتري وغلبة حبهم لشعره وطائفة أسرفت في التقبيح لتعصبه ، فانه جد واجتهد في طمس محاسن أبي تمام وتزيين مرذول البحتري . ولعمري ان الامركذلك وحسبك انه بلغ في كتابه الى قول أبي تمام : «أصم بك الناعي وان كان أسمعا» وشرع في اقامة البراهين على تزييف هذا الجوهر الثمين فتارة يقول : هو مسروق وتارة يقول هو مرذول ولا يحتاج المتعصب الى اكثر من ذلك ، الى غير ذلك من تعصباته . ولو أنصف وقال في كل واحد بقدر فضائله لكان في محاسن البحتري كفاية عن التعصب بالوضع من أبي تمام» [2] .

وقال المرحوم احمد أمين انه مفضل للبحتري متعصب له من وراء حجاب [3] ، وقال مثل ذلك الدكاترة محمد عبده عزام ، وشوقي ضيف واحسان عباس [4] .

وقال المرحوم طه احمد ابراهيم بعد ان عرض للمسألة : «وبعد ، فهل نوافق القدماء في رميهم الآمدي بالتعصب على أبي تمام ؟ ولعلنا اذا لحظنا ذوق الآمدي ولحظنا ان الناقد لا يمكن ان يتخلص من نفسه ولحظنا لهجة النقد في بعض حالاته وان الآمدي أنصف أبا تمام في بعض المواطن المهمة ، لعلنا اذا لحظنا ذلك نتردد في هذا الحكم ونجد فيه بعض الجور» [5] .

---

(١) معجم الادباء ج ٨ ص ٨٤ .

(٢) معجم الادباء ج ٨ ص ٨٧ - ٨٨ .

(٣) تقديم أخبار أبي تمام ص ٨ ، والنقد الادبي ص ٤٤٦ .

(٤) مقدمة ديوان أبي تمام ج ١ ص ٢١ ، والبلاغة تطور وتأريخ ص ١١٩ ، وتأريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٦١ .

(٥) تأريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٧٩ .

وقال الدكتور محمد مندور إنه ليس متعصباً مع ما وصفه به القدماء كياقوت ، وهي تهمة اتهمه بها النقاد اللاحقون عندما فسد الذوق وغلبت الصنعة والتكلف على الادب العربي [1] .

وقال الاستاذ محمد علي ابو حمدة ان تهمة التعصب عند الآمدي باطلة من أساسها وما كان من غبن لأبي تمام وشعره فهو من قصور بمبدأ الآمدي النقدي وطريقته في الموازنة ، وهذا القصور جاء من موازنته بين الشاعرين على أساس موازين عمود الشعر فحرم نفسه تذوق الكثير من العناصر المتألقة في شعر أبي تمام [2] .

والأمر كما ذهب اليه الدكتور مندور والاستاذ ابو حمدة ، لان الآمدي اعتمد على ذوقه في النقد وسار على عمود الشعر ، ومن هنا جاءت احكامه على الشاعرين . واذا كانت تلك أصوله في النقد فليس معناه انه متعصب على أبي تمام وانما كان مخلصاً في تطبيق مقاييسه فكانت ثمرة ذلك كتابه « الموازنة » الذي قالوا عنه انه انتصار للبحتري .

واذا رجعنا الى الكتاب ودققنا هذه المسألة وجدناه يعرض ما للشاعرين من حسنات ومساوىء ويوازن بينهما فيفضل تارة البحتري وتارة أبا تمام . وقد دافع عن أبي تمام حينما رد على ابن أبي طاهر والسجستاني والقطربلي وما قالوا في سرقات أبي تمام ، وليس الامر كما ذكر السجستاني من انه لا ينفرد الا بثلاثة معان بل له مخترعات كثيرة وبدائع مشهورة مع كثرة ما اخذه من أشعار الناس ومعانيهم وفضله فيها على الآخرين ، وعقد فصلا في فضله وقال : « ووجدت أهل النصفة من اصحاب البحتري ومن يقدم مطبوع الشعر دون متكلفه لا يدفعون أبا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها والابداع والاغراب فيها والاستنباط لها ويقولون : انه وان اختل في بعض ما يورده منها فان الذي يوجد فيها من النادر المستحسن اكثر مما يوجد من السخيف المسترذل، وان اهتمامه بمعانيه اكثر من

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ٩٦ .

(٢) النقد الادبي حول أبي تمام ص ٩٢ ، وابو القاسم الآمدي وكتابه الموازنة ص ١٣١ .

اهتمامه بتقويم الفاظه على شدة غرامه بالطباق والتجنيس والمماثلة ، وانه اذا لاح له أخرجه بأي لفظ استوى في ضعيف اوقوي . وهذا من اعدل ما سمعته من القول فيه » [1] . ولم يكن موقفه من البحتري موقف المدافع عنه بل تحدث عن سرقاته واخطائه في المعاني وخروجه على المتعارف واضطرابه في الوزن قال : « وقد جاء في شعر البحتري بيت هوعندي أقبح من كل ما عيب به ابو تمام في هذا الباب » [2] .

واذا نظرنا في القسم الأخير من « الموازنة » وهو أهم ما في الكتاب من نقد تطبيقي لرأينا الآمدي يفضّل البحتري تارة وأبا تمام تارة ويجعلهما متكافئين في بعض الاحيان ... ومعنى ذلك انه لم يوقف نفسه للدفاع عن البحتري وانما درس الشاعرين وأبدى ما رآه صوابا .

والمواضع التي فضل فيها البحتري هي : تفضيله في ابتداء تعفية الدهور والازمان والدينار ، وهوفيه « أشعر من أبي تمام » [3] . وقال عن بيت أبي تمام :

عَفَتْ أَرْبُعُ الحِلاَّتِ للأَرْبَعِ المُلْـــدِ لكل هضيمِ الكشحِ مُغْرِبَةِ القَدِّ

« ولا اعرف لابي تمام ابتداءً ذكر فيه الرياح غير هذا البيت ، وهو رديء اللفظ قبيح النسج » . وقال في بيت البحتري :

أَصَبا الاصائِلِ إنَّ بُرْقَةَ مُنْشِـــــدِ تشكو اختلافَكَ بالهُبوب السَّرْمدِ

« ما زلت أسمع الشيوخ من أهل العلم بالشعر يقولون : انهم ما سمعوا لمتقدم ولا متأخر في هذا المعنى أحسن من هذا البيت ولا أبرع لفظا ولا اكثر ماءً ولا رونقاً ولا ألطف معنى » [4] .

---

(١) الموازنة ج ١ ص ٣٩٧ .
(٢) الموازنة ج ١ ص ٣٨٦ .
(٣) الموازنة ج ١ ص ٤٢١ .
(٤) الموازنة ج ١ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥ .

وتفضيله في البكاء على الديار وهو في « هذا الباب أشعر » (١) وفي ما يخلف الظاعنين في الديار وهو « في أبياته أشعر من أبي تمام » . وتأنيب العذال « ولا خفاء بفضل البحتري على أبي تمام في هذا الباب » (٢) .

وفي طروق الخيال وهذا « باب الفضل فيه للبحتري على أبي تمام ، وما زلت اسمع الشيوخ من أهل العلم بالشعر يقولون : هو أشعر الناس ، ولم يأت عن أبي تمام فيه الا أبيات يسيرة ... فأما البحتري فانه اولع بذكر الخيال فقال فيه وأكثر وأجاد وأبدع وتصرف في معان لم يأت أحد بمثلها » (٣) .

وفي الخروج « ولا خفاء بفضل البحتري في سائر ما أوردته على أبيات أبي تمام » والخروج الى المدح بذكر الغيث « ولا محالة ان البحتري أيضا في هذا الباب يتقدم أبا تمام » ، و « هذا الباب في الخروج من النسيب الى المديح مما لا خفاء بفضل البحتري فيه على أبي تمام » (٤) .

والمواضع التي فضل فيها أبا تمام هي في تسليمه على الديار في قوله : .

دِمَنٌ أَلَمَّ بها فقال سلامُ   كم حَلَّ عقدةَ صبره الالمامُ

« وأبو تمام عندي في قوله : « دمن ألم بها فقال سلام » أشعر عندي من البحتري في سائر أبياته » (٥) .

وفي زوال الصبر « وأبو تمام في أبياته مع ما فيها من السرق أشعر من البحتري في أبياته » (٦) .

وفي وصف الايام « بيت أبي تمام الاول أجود من الابيات الثلاثة ، ولفظ

---

(١) الموازنة ج ١ ص ٤٢٨ .
(٢) الموازنة ج ١ ص ٤٣٥ ، ٤٤٦
(٣) الموازنة ح ٢ ص ١٦٧ – ١٧٠ .
(٤) الموازنة ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣٢٨ .
(٥) الموازنة ج ١ ص ٤٢٠ .
(٦) الموازنة ج ٢ ص ٥٠ .

البحتري لا زيادة على حسنه وجودته » [(1)] .

وفي مدح الخلفاء « فأبو تمام على اساءته في الابيات المتقدمة أشعر من البحتري » . وباب المجد والسؤدد ، « وهو في هذا الباب أشعر من البحتري » [(2)] .

وقد يكون الشاعران عنده متكافئين وذلك في سؤال الديار ولم يجد لهما بيتا بارعاً في ثمانية أبيات عرضها وقال : « والجيد لأبي تمام بيتاه الأولان ومعناهما غير معنى هذين البيتين وألطف ، وبيتا البحتري أجود لفظاً وأصح بسطا فاجعلهما في هذا الباب متكافئين » [(3)] . وفي طريقتهما في الوقوف على الديار وهي طريقة القدماء ما عدلا عنها ولا خرجا الى غيرها [(4)] .

وفي الابتداءات بذكر الوقوف على الاطلال ، وقد قال بعد أن وازن بينهما : « فهذا ما ابتدآ به من ذكر الوقوف واجعلهما متكافئين ، من أجل براعة بيتي البحتري الاولين وانهما أجود من سائر أبيات أبي تمام ، ولأن للبحتري في الباب التقصير الذي ذكرته وليس لأبي تمام مثله » [(5)] .

وفي إقواء الديار ، « وهذه كلها ابتداءات جيدة بارعة اللفظ صحيحة المعنى ، وأبيات أبي تمام أيضا رائعة » [(6)] .

وفيما تهيجه الديار ، « وهذه كلها أبيات جياد وهي مع بيت أبي تمام متكافئة » . وفي الدعاء للدار بالسقيا : « وهما عندي متكافئان » . وفي سؤال الديار : « وهما عندي متكافئان » ، ولكنه يفضل عليهما قول جميل :

أصبح الرَّبْعُ من بُثينَـة قَيَّـــا زاده طولُ ما تأبـد عِيَّـــا

(1) الموازنة ج ٢ ص ١٥٨ .
(2) الموازنة ج ٢ ص ٣٤٢ ، ٣٥٨ .
(3) الموازنة ج ١ ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣ .
(4) الموازنة ج ١ ص ٤١١ .
(5) الموازنة ج ١ ص ٤١٦ .
(6) الموازنة ج ١ ص ٤٢٣ .

وإن مـا يبين رجـع ســــؤالٍ   ولقـد يسمـع السؤال الخفيـا

وقول المخبل وعوف بن عطية وذي الرُمَّة . وفي وصف الديار وساكنيها : « ان أهل الصنعة يفضلون كل ما قاله أبو تمام على اكثر ما قاله البحتري في هذا الباب ويقولون : ان أبا تمام استقصى الوصف في نعوت النساء وأحسن وأجاد . وقد كان ذلك لعمري مع ما فيه من الاساءات والالفاظ الرديئة التي ذكرتها .

والمطبوعون وأهل البلاغة لا يكون الفضل عندهم من جهة استقصاء المعاني والاغراق في الوصف ، وانما يكون الفضل عندهم في الالمام بالمعاني وأخذ العفو منها كما كانت الاوائل تفعل مع جودة السبك وقرب المأتى .

والقول في هذا قولهم واليه أذهب إلا اني أجعلهما في هذا الباب متكافئين لكثرة احسان أبي تمام فيه »[(١)] .

وفي ذكر الثغور : « فاجعلهما في البيتين متكافئين وسائر أبيات البحتري أفضل » [(٢)] . وفي ذم ذوي الغنى على البخل : « فأقول في الموازنة بينهما انهما أحسنا جميعاً في هذا الباب واجعلهما متكافئين مع ما فيه لأبي تمام من الاساءة » .

وفي ما لاقاه في طلب الرزق والنهوض اليه : « ولولا ان محاسن أبي تمام في هذا الباب هي أبياته الاربعة والجميع من معانيها مسروقة لفضلته على البحتري الا في بيت الطحلب فانه معنى ما علمت أحدا سبق اليه ولا قيل في وضوح الصبح أبرع منه فاجعلهما متكافئين » .

وفي سرى الابل : « فاقول انهما في الباب متكافئان » .

وفي الخروج الى المدح : « وهما في هذا الباب متكافئان » .

---

(١) الموازنة ج ١ ص ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٧٩ ، ٤٩٦ .

(٢) الموازنة ج ٢ ص ٦٥ .

وفيما يجب في مدح الخلفاء : « وليس لاحدهما فضل في هذا الباب على صاحبه » (١) .

إنَّ الناقد الذي له مثل هذه النظرات لا يمكن أنْ يكون متعصبا ، ولو انه مال الى ذلك لطمس محاسن أبي تمام كما فعل غيره في طمس محاسن البحتري واظهار مساوئه ، وبذلك كان كتاب « الموازنة » خطوة واسعة في النقد لانه يقوم على منهج واضح المعالم ، ولانه نظر الى مجموع شعر أبي تمام والبحتري ووازن بينهما على هذا الاساس . واذا كان هذا الكتاب يمثل بلاغة العرب وعمودهم في الشعر فانه يظل أعظم ما انتجه النقد العربي في القرن الرابع وما بعده ، وكان له تأثير عظيم في البلاغيين والنقاد المتأخرين كالقاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري والشريف المُرْتضى والحسن بن رشيق القيرواني وابن سنان الخفاجي وعبد القاهر الجرجاني والخطيب التبريزي وابن المستوفي وابن الأثير وغيرهم .

وصفوة القول إنَّ الآمدي كان ناقداً ذا منهج واضح ، وقد استطاع بثقافته الواسعة وذوقه الرفيع أنْ يوازن بين الطائيين ويتوصل الى نتائج رائعة . ولا يقلل من قيمته ميله الى مذهب البحتري في الشعر ، لان ذلك لم يجعله متعصبا على أبي تمام ، بل كان عَدْلاً منصفاً . وهذا ليس قليلاً في زمن كانت الخصومات تصطرع فيه وكان النقد يميل الى الجزئيات والآراء الذاتية التي لا يخلو بعضها من هوى وجنوح .

---

(١) الموازنة ج ٢ ص ٢٦٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٣ ، ٣١٤ ، ٣٦١ .

اَلنَّقْدُ وَالمُتَنَبِّي

الاتِّجَاهُ الرَّابِعُ

الخصومة

ما إنِ انتهى الصراع بين أنصار أبي تمام والبحتري حتى قام صراع من نوع آخر ، وكان ميدانه شعر المتنبي الذي شغل الدنيا منذ ظهوره حتى هذا العصر . وكان القرن الرابع بداية ذلك الصراع أو تلك الخصومة ، فقد وقف بعضهم الى جانب المتنبي وفضّله على الشعراء ووقف البعض ينتقصه وينسب اليه كثيراً من العيوب . وكانت الخصومة من نوع يختلف عن تلك الخصومة بين أنصار البحتري وأبي تمام اللذين كانا يمثلان اتجاهين مختلفين في الشعر ، فالخصومة هنا ليست من أجل مذهب فني وانما هي في المتنبي وطبعه وشهرته في زمانه.وقد أشار القاضي الجرجاني الى ذلك فقال : « وما زلت أرى اهل الادب منذ ألحقتني الرغبة بجملتهم ووصلت العناية بيني وبينهم في أبي الطيب احمد بن الحسين المتنبي فئتين : من مطنب في تقريظه منقطع اليه بجملته منحط في هواه بلسانه وقلبه يلتقي مناقبه اذا ذكرت بالتعظيم ويشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم ويعجب ويعيد ويكرر ويميل على من عابه بالزراية والتقصير ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل ، فان عثر على بيت مختل او نبه على لفظ ناقص عن التمام التزم من نصرة خطئه وتحسين زلله ما يزيله عن موقف المعتذر ويتجاوز به مقام المنتصر . وعائب يروم ازالته عن رتبته فلم يسلم له فضله ويحاول حطه عن منزلة بوأه اياها ادبه ، فهو يجتهد في اخفاء فضائله واظهار معايبه وتتبع سقطاته واذاعة غفلاته . وكلا الفريقين اما ظالم له او للادب فيه ، وكما ان الانتصار جانب من العدل لا يسده الاعتذار ، فكذلك الاعتذار جانب هو اولى به من الانتصار . ومن لم يفرق بينهما وقفت به الملامة بين تفريط المقصر واسراف المفرط » (١) .

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٣ .

لقد كان المتنبي سبباً في خصومة عظيمة وهي خصومة أثارتها شخصيته القوية وطموحه الواسع ووقوفه شامخا كالطود أمام شعراء عصره ، ومن هنا كان له خصوم كثيرون اتخذوا من شخصه سبيلا للطعن في شعره . وقد بدأت الخصومة منذ اتصاله ببلاط سيف الدولة الذي كان يجمع الشعراء والنقاد ومحبي الادب ، قال الثعالبي عنه : « محط الرحال وموسم الادباء وحلبة الشعراء ، ويقال انه لم يجتمع قط بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر وانما السلطان سوق يجلب اليها ما ينفق لديها ، وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به » . (1)

وحضر المتنبي مجلس أبي أحمد بن نصر البازيار وزير سيف الدولة وهناك ابو عبد الله بن خالويه النحوي فتماريا في أشجع السُّلمي وأبي نواس فقال ابن خالويه : أشجعُ أشعر إذ قال في هارون الرشيد :

وعلى عدوِّكَ يا ابْنَ عمِّ محمــــدٍ	رَصَدان : ضوءُ الصُبْحِ والاظلامُ
فاذا تَنَبَّه رُعْتَهُ وإذا غَفَـــــا	سَلَّتْ عليه سيوفَكَ الاحــلامُ

فقال المتنبي : لأبي نواس ما هوأحسن في بني برمك :

لم يظلم الدهرُإذ توالـــــت	فيهم مصيباتُـــــه دراكـــا
كانوا يُجيرون من يعــــادي	منه فعاداهم لذاكـــــا (2)

وكان سيف الدولة نفسه كثيراً ما يعلق على القصائد ويبدي رأيه في شعر المتنبي كما كان غيره من كبار علماء اللغة والشعر يبدون رأيهم حتى وصل الأمر إلى رحيل المتنبي عن سيف الدولة واستقراره في مصر ، وهناك اثار حركة نقدية واسعة حينما وطئت قدمه ارض الكنانة واندفع الحاسدون يثيرون عليه الامراء والولاة فكان ما كان من رحيله عنها بعد ان يئس من كل شيء . وقامت عليه حملة في بغداد ، وقد تحدث الثعالبي عن اسبابها فقال : « لما قدم ابو الطيب من مصر بغداد وترفع عن

(1) يتيمة : الدهر ١ ص ٢٧ .

(2) الصبح المنبي ص ٨٦ .

مدح المهلبي الوزير ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك شق ذلك على المهلبي فأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه وتباروا في هجائه ومنهم ابن الحجاج وابن سكّرة الهاشمي والحاتمي وأسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادوا عليه فلم يجبهم ولم يفكر فيهم وقيل له في ذلك فقال : إني فرغت من إجابتهم بقولي لمن هم ارفع طبقة منهم في الشعراء :

أرى المتشاعرينَ قد غُـرّوا بذمـي ... ومَنْ ذا يحمـل الـداءَ العضالا
ومن يك ذا فمٍ مـر مـريـضٍ ... يجـد مُـرّاً بـه المـاءَ الزلالا

وقولي :

أفي كلِ يومٍ تحت ضِبْني شُويعـرٌ ... ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يطاولُ
لساني بنطقي صامِتٌ عنه عـادِلٌ ... وقلبي بصمتي ضاحكٌ منه هازِلُ
وأتعب من ناداك مَنْ لا تُجيبـه ... وأغيظُ من عاداك من لا تُشاكِلُ
وما التيهُ طبي فيهمُ غَيرأنني ... بغيضٌ اليَّ الجاهلُ المتعاقِـلُ

وقولي :

وإذا أتتك مذمتي من ناقـصٍ ... فهي الشهادةُ لي بأنيَ كامـلُ

ولما بلغ ابا الحسن بن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقيعة بغداد فيه واستحقاره لهم وكان حاسداً له طاعناً عليه هاجياً اياه زاعما ان اباه سقاء بالكوفة فشمت به وقال :

قولا لأهـلِ زمان لا خلاقَ لهـم ... ضلوا عن الرشد من جهلٍ بهم وعموا
أعطيتم المتنبي فَوْقَ مُنيتـه ... فزوّجوه برغمٍ أمهاتكمـو
لكنَّ بغدادَ جادَ الغيثُ ساكنَهـا ... نِعالُهم في قفا السقّاء تَزْدَحِـم (١)

والذين وقفوا يناوئون المتنبي كثيرون منهم أبوالعباس أحمد بن محمد الدارمي

---

(١) اليتيمة ج ١ ص ١٣٧ ، الصبح المنبي ص ١٤٤ .

المعروف بالنامي (ـ ٣٧١ هأو ٣٩٩ هـ) شاعر سيف الدولة المقدّم قبل ان يفد المتنبي على بلاطه ، فلما وفد ومال اليه الحمداني غاظ ذلك ابا العباس. فلما كان ذات يوم خلا به وعاتبه وقال : أيها الأمير لم تفضل علي ابن عيدان السقا ؟ فامسك سيف الدولة عن جوابه . فلج ولح وطالبه بالجواب فقال : لانك لا تحسن ان تقول كقوله :

يعودُ من كلِ فتحٍ غيرَ مفتخـــرٍ وقد أُغذَّ اليه غيرَ محتفـــل

فنهض من بين يديه مغضبا وعاهد نفسه ان لا يمدحه ابدا . وهو القائل : «كان قد بقي في الشعر زاوية دخلها المتنبي وكنت اشتهي ان اكون قد سبقته الى معنيين قالهما ما سبق اليهما ، اما أحدهما فقوله :

رماني الدهرُ بالأرزاء حـــتى فؤادي في غِشاء من نبـــالِ
فصرتُ إذا أصابتني سِهـــامٌ تكسرت النصالُ على النصـــالِ

والاخر قوله :

في جَحْفَلٍ سَتَرَ العيونَ غبـــارُه فكأنما يُبْصِرن بـــالآذانِ [(١)]

وللنامي رسالة تعقب فيها أخطاء المتنبي ، وقد أشار اليها ابن وكيع ونقل عنها في المنصف .

ولكنَّ أشهر الذين خاصموا المتنبي ووضعوا كتبا في نقده :

الصاحب بن عباد :

ألّف الوزير أبو القاسم اسماعيل بن عباد الصاحب (ـ ٣٨٥ هـ) رسالة «الكشف عن مساوىء المتنبي» وقيل إنّ سبب تأليفها ان الصاحب طمع في زيارة المتنبي له باصفهان فكتب يلاطفه في استدعائه فلم يقم له المتنبي وزنا ولم يجبه عن كتابه ، وقال لاصحابه : «إنَّ غُلَيِّماً معطاء بالريّ يريد ان ازوره وأمدحه ولا سبيل الى

(١) الصبح المنبي ص ٨١ .

ذلك » ، فصبرّه الصاحب غرضاً له وتتبّع سقطاته وهفواته في شعره وهو اعرف الناس بحسناته واحفظهم لها واكثرهم استعمالا اياها و تمثلا بها في محاضراته ومكاتباته [1] .

بدأها الصاحب بالدعوة الى رمي التعصب لأن تغليب الهوى يطمس أعين الآراء وان الميل مع الهوى عن الحق يبهم سبيل الصدق ، وذكر سبب تأليف هذه الرسالة وذلك ان بعض من له اهتمام بالادب والاشعار سأله عن المتنبي فقال له : « إنّه بعيد المرمى وشعره كثير الاصابة في نظمه ، إلاّ أنّه ربما أتى بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء » فهاج السائل وادعى ان شعره مستمر النظام متناسب الاقسام وتحدى الصاحب قائلا : « اذا كان الامر كما زعمت فأثبت في ورقة ما تنكره وقيد بالخط ما تذكره لتتصفحه العيون وتسبكه العقول » ففعل الصاحب ذلك وان لم يكن تطلب العثرات من شيمه ولا تتبع الزلات من طريقته .

وقبل ان يتحدث عن مساوىء المتنبي تكلم على استاذه ابن العميد وقال : « وهاانذا منذ عشرين سنة أُجالس الكبراء وأُكاثر الادباء وأُباحث العلماء واجاري الشعراء بالجبال تارة وبالعراق مرة وآخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد واكتب عن اصحاب احمد بن يحيى ثعلب فما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته وينقده حق نقده غير الاستاذ الرئيس أبي الفضل ابن العميد فانه يجاوز نقد الابيات الى نقد الحروف والكلمات فلا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن . وعن مجلسه اعلاه الله اخذت ما اتعاطى من هذا الفن وباطراف كلامه تعلقت فيما اتحلى به في هذا الجنس » [2] . وذكر شذوراً سمعها منه في نقد الشعر ، ورسم طريق وضع الشعر فقال : « وسمعته ـ ايده الله ـ يقول : ان اكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب ان يوضع الشعر ويبتدأ النسج ، لأن حق الشاعر ان يتأمل الغرض الذي قصده والمعنى الذي اعتمده وينظر في اي الاوزان يكون احسن استمرارا ومع اي القوافي يحصل احمد اطرادا ، فيركب مركبا لا يخشى انقطاعه به والتياثة عليه .

(١) ينظر اليتيمة ج ١ ص ١٣٩ وما بعدها ، والصبح المنبي ص ٢٧٠ .

(٢) الكشف عن مساويء المتنبي ص ٣٢٢ .

فقلت : لو مثل سيدنا هذا لكان اقرب الى القلب واوقع الى النفس » وذكر بعض الامثلة . . .

ولم يبيّن هدفه من هذه المقدمة ولعله يريد ان يقول ان نقد الشعر لا يحسنه الا من تهيأ له وانه لا يتعصب على المتنبي ، فالبحتري الذي مال اليه نقاد عصره لم يسلم من الخطأ والزلل والفساد واللحن . اما نقده للمتنبي فليس فيه التفصيل الوافي لان الغرض اظهار بعض عيوبه الواضحة ليعرفها السائل وغيره ، وليظهر ان المتنبي لم يسلم من الزلل مع تجويده . والقضايا التي اشار اليها هي :

١ ـ الالفاظ ، فقد استعمل المتنبي كثيرا من الالفاظ البعيدة عن الشعر ، فلفظتا « احاد » و« سداس » في قوله .

أحاد أم سداس في أحـــــادٍ   لُليلتنا المنوطةُ بالتنـــــادي

مما لا يدرك بالارثماطيقي ولا بالاعداد الموضوعة للموسيقى . ولفظة « المتديريها » في قوله :

أُسائِلها عن المتديريهـــــا   فما تدري ولا تذْري دموعـــا

لو وقعت في بحر صاف لكدرته اوالقي ثقلها على جبل سام لهدته .

وادهى ما يتعاطاه التفاصح بالالفاظ النافرة والكلمات الشاذة حتى كأنه بدوي لم يطأ الحضر ، من ذلك قوله :

أيفطمه التُورابُ قبلَ فطامِـــه   ويأكُله قبلَ البلوغ الى الأكْـلِ

ومن الفاظه الغريبة النافرة كلمة « جفخت » في قوله :

جَفَخَتْ وهم لا يَجْفَخُون بها بهم   شِيَمٌ على الحَسَبِ الأَغرِّ دلائلُ

ولو قال : « فخرت » لكان احسن .

٢ ـ والتكرار الممل كما في قوله :

ولا الضَّعْفُ حتى يتبع الضعف ضعفه
ولا ضعف ضعف الضعف بل مِثْله أَلْفُ

وهو بيت حشا تضاعيفه بالضعف .

٣ ـ ومن مؤاخذاته عليه جمعه الاحسان والاساءة في بيت واحد كقوله : « بليت بلى الاطلال ان لم اقف بها » وهذا كلام مستقيم لولم يعاقبه ويعقبه بقوله : « وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه » فان الكلام اذا استشف جيده ووسطه ورديئه كان هذا الكلام من ارذل ما يقع لصبيان الشعراء وولدان الادباء .

٤ ـ ومن شعره الذي يتباهى به بالسلاسة وخلوه من الشراسة الموجودة في طبعه بيت رقية العقرب اقرب الى الافهام منه وهو :

نحن مَنْ ضايقَ الزمان له فيك وخانته قربَكَ الأفهامُ

فان قوله : « له فيك » لو وقع في عبارات الجنيد والشبلي لنازعته المتصوفة دهراً بعيداً .

٥ ـ وفي مرثيته لأمّ سيف الدولة ما يدل على فساد الحس وسوءادب النفس فما ظنك بمن يخاطب ملكا في رزية امه بقوله :

رواقُ العزّ حولَك مُسْبَطِـــرٌّ ومُلْكُ عليٍ ابنِك في كَمـــالِ

ولعل لفظة « الاسبطرار» في مراثي النساء من الخذلان الصفيق . ولما ابدع في هذه المرثية واخترع قال :

صلاةُ اللهِ خالقنا حنـــوطٌ على الوجه المكفَّنِ بالجَمـــالِ

وقد قال بعض من يغلو فيه : « هذه استعارة ، ولكنها استعارة حداد في عرس » .

٦ ـ ومن اساليبه في التسلية عن المصيبة قوله :

لا يُحْزِن اللهُ الاميرَ فانني ... لآخذ من حالاته بنصيبِ

قال الصاحب : « ولا ادري لم لا يحزن سيف الدولة اذا اخذ ابو الطيب بنصيب من القلق ، اترى هذه التسلية احسن عند الشعراء ام قول أوس :

أيَّتُها النَّفْسُ أجملي جَزَعاً ... إنَّ الذي تَحْذَرين قد وَقَعا [1]

٧ ـ ومن الموضوعات التي اشار اليها تعقيده وتكلفه وافتتاحياته التي تفتح طريق الكرب وتغلق ابواب القلب ، وزحافاته في بعض ابياته ، وركوبه القوافي الصعبة . ولم ينس وهويكشف عن هذه المساوىء الاشارة الى السرقات وقد قرر في اول رسالته ان السرقة لا يعاب بها لاتفاق شعر الجاهلية والاسلام عليها ولكن يعاب ان كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحتري وغيره جل المعاني ثم يقول : لا اعرفهم ولم اسمع بهم ، ثم ينشد اشعارهم فيقول : « هذا شعر عليه اثر التوليد » اويقول اذا انشد شعر ابي تمام : « هذا نسج مهلهل وشعر مولد وما اعرف طائيكم هذا » ، وهو دائب يسرق منه ويأخذ عنه ثم يخرج ما يسرقه في اقبح معرض . وسرقاته من المحدثين كبشار والبحتري وأبي تمام وغيرهم كثيرة ، ولذلك قال الصاحب : « ولو آتي على افراد سرقاته لاطلت في هذا الباب » [2] .

الحاتمي :

كان أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي (ـ ٣٨٨ هـ) من أشد نقاد المتنبي انفعالاً واكثرهم تعصبا عليه ، وله في النقد كتب كثيرة لم يصل الينا معظمها ، وله في هذه الكتب آراء طريفة ولو وصلت لاظهرت قيمة هذا الناقد ولكن ما بأيدينا يعطي صورة قد يعوزها الجلاء والوضوح .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٣

وألّف في نقد المتنبي رسالتين هما : الرسالة الموضحة ، وقد كتبها بعد أن جاء الشاعر الى بغداد واقام فيها بدار علي بن حمزة اللغوي البصري وزاره المهلب وزير معز الدولة وتطلع الى ان يمدحه او يمدح المعز ، ولكن المتنبي لم يفعل فاغريا به الشعراء والنقاد ، وكان الحاتمي احدهم فوضع رسالته « الموضحة » وذكر فيها ما دار في المجالس التي عقدت لمناقشة المتنبي ونقده . وذكر الدكتور محمد يوسف نجم ان تهجم الحاتمي على المتنبي ووقوفه هذا الموقف منه قد يعود الى عهد بعيد حينما كان يخدم سيف الدولة في شبابه ، وانه لا بدَّ اصيب باذى من الشاعر مما اوجده عليه ودفعه الى مناظرته في بغداد وتأليف الكتب في نقده [١] . وقد يكون هذا سببا وضعه الدكتور موضع الغرض حتى يتبين له اولغيره وجه الحق ، وذكر الحاتمي ان المتنبي لم يعرفه مع ما كان عليه من مخايل الشرف ، قال : « وهو يؤكد القسم انه لم يعرفني معرفة ينتهز معها الفرصة في قضاء حقي فأقول الم يستأذن عليك باسمي ونسبي ؟ اما كان في هذه الجماعة من كان يعرفني لو كنت تجهلني ؟ وهب ان ذلك كذلك الم ترشارتي ؟ اما شممت نشرعطري ؟ الم اتميز في نفسك عن غيري » [٢] . وقد يكون تجاهله للمتنبي اوعدم معرفته له بسبب تقادم العهد وبعد ما كان بينهما من لقاء في بلاط الحمدانيين .

بدأ الحاتمي رسالته بمقدمة تحدث فيها عن دوافع تأليفها ووصف ما دار في المجالس الاربعة التي عقدت في بغداد لمناقشة المتنبي ونقده والرد عليه ، وتحدث عن انكار المتنبي لأبي تمام والبحتري ونقده لشعر ابي تمام وجديده وما حدث من رد عليه في المجلس ودفاع عن ابي تمام وخروجه غاضبا لا يلوي على شيء بعد ان هزم . ويبدو انه كتبها بعد وفاة المتنبي وانها ليست ما دار في المناظرات فقط وانما رجع الى الكتب ليتحقق ويستدرك ما فات في المجلس ، وفي خاتمة المناظرة الاولى اشارة الى ذلك .

وللرسالة الموضحة صورتان مختصرتان ذكر إحداهما ابن خلكان في وفيات

(١) مقدمة الرسالة الموضحة ص (ي)

(٢) الرسالة الموضحة ص ١١ .

الاعيان ، وذكر الأخرى ياقوت الحموي في معجم الادباء ، وقد طبع الاخيرة الاستاذ ابراهيم الدسوقي في كتاب « الابانة عن سرقات المتنبي » وليس فيها المقدمة وانما هي جزء من المناظرة الاولى .

ويبدو في الرسالة الموضحة وما نقله منها ابن خلكان وياقوت والبديعي ان الهدف الاول منها تحطيم المتنبي والاساءة اليه لا نقد شعره ، واحس الحاتمي بذلك فقال : « وانا اشفع هذه الرسالة بما تتبعته من عواره ووقفت عليه من سرقه ومن سقط لفظه وسخيف معانيه واذكر ايضا من محاسن شعره ومن عيون مدائحه فان المدح كان طعمته وشوارد ابياته ما اجري في جميعه مع الحق الذي لا يسع تعديه منصفا ومنتصفا منه ، لا الته حقه ولا انحله ما ليس له وافرد بذلك كتابا واستقصيه وانتهي الى الغاية التي تبلغها القدرة فيه بحول الله وقوته وفضله ورأفته » (1) .

اما الرسالة الثانية فهي « الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام ارسطو في الحكمة » وفيها تغير موقفه السابق وحاول ان يتحدث عن الشاعر حديثا آخر فيه اظهار معرفته بالحكمة وفضله على غيره . وقد اشار الى غرضه في مقدمتها قائلا : « والذي بعثني على تصنيف هذه الالفاظ المنطقية والاراء الفلسفية التي اخذها ابو الطيب احمد بن الحسين المتنبي منافرة خصومي فيه لما رأيت من نفور عقولهم منه وتصغيرهم لقدره . . . ووجدنا ابا الطيب احمد بن الحسين ، المتنبي قد اتى في شعره بأغراض فلسفية ومعان منطقية فان كان ذلك منه عن فحص ونظر وبحث فقد اغرق في درس العلوم ، وان يك ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالايجاز والبلاغة والالفاظ الغريبة . وهو في الحالتين على غاية من الفضل وسبيل نهاية من النبل ، وقد اوردت من ذلك ما يستدل به على فضله في نفسه وفضل علمه وادبه واغراقه في طلب الحكمة مما اتى في شعره موافقا لقول ارسطا طاليس في حكمته » . (2) وكان قد قال في خاتمة رسالته الاولى : « ومن فضيلته

---

(1) الرسالة الموضحة ص ١٩٦ .

(2) الرسالة الحاتمية ص ٢٢ .

وصفاء ذهنه وجودة حذقه ما حداني الى عمل الحاتمية الثانية » . (1) وهذه النزعة غير ما الفناه في « الرسالة الموضحة » حيث حمل على الشاعر وابان عن جهله في اللغة وايراد المعاني والتفنن في القوافي والاوزان . ويمكن ان نوجز موقف الحاتمي من المتنبي في بعض المسائل اهمها :

١ ـ خروج المتنبي على اساليب القول ، ومن ذلك قوله :

فانْ كانَ بعضُ الناسِ سيفاً لدولةٍ   ففي الناس بوقاتٌ لها وطبولُ

وما هكذا تمدح الملوك . وقوله في هجاء ابن كيغلغ :

وإذا أشارَ مُحَدِّثاً فكأنَّــــــه   قِرْدٌ يقهقه أو عجوزٌ تلْطُــــمُ

٢ ـ استعماله الالفاظ الجافية كقوله :

أيفطمُه التُورابُ قبل فطامِـــــه   ويأكله قَبْلَ البلوغ الى الأكْلِ

والقلقة كقوله :

لم تَحْكِ نائلَك السحابُ وإنَّمــا   حُمَّتْ به فصبيبُها الرُّحَضَاءُ

والمكررة كقوله :

ذي المعالي فليعلوَنْ من تَعالَــى   هكذا هكذا وإلاَّ فَـــلا لا

وقوله :

جواب مسائلي أله نظـــــيرٌ   ولا لك في سؤالــك لا ألا لا

٣ ـ خروجه على اللغة ونحوها وصرفها كتشديده الياء في « البازي » تشديدا لا وجه له ، ووصل الف القطع في « الاشهب » في قوله :

وصلت اليك يد سواء عندها البازي الأشهب والغراب الأبقع

(1) الايانة ص ٢٦٩ ، وينظر الصبح المنبي ص ١٤٢ .

وخطؤه في اجراء المضمر في « انك » مجراه مع الظاهر في قوله :

وانك بالأمس كنت مُحتَلِمـــا   شيخ معد وأنت أمردُهـــا

وانما يحسن « انك » بمعنى « انك » مع الظاهر كقول الشاعر :

ويوماً توافينا بوجهٍ مقسَّـــمٍ   كأنْ ظبيةٌ تعطو الى وارق السَّلَم

ومنها « زهت » في قوله :

ملكٌ زهت بمكانه أيامُـــه   حتَّى افتخَرْنَ به على الأيّـامِ

والصواب ان يقول : « زهيت » .

وذكر الحاتمي كثيراً من هذا اللون الذي حمله بعض النقاد على غير ما حمله وبرأوا المتنبي من الخطأ والشذوذ لانه يتخذ من نحو الكوفة منطلقا له ، ولكن الحاتمي لا يرضى منه ذلك لانه ابو عذرة اللغة واولى الناس بالتحقق والتوسع في اشتقاقها والكلام على افانينها ، ولا يصح ان يخرج هذا الخروج .

٤ ـ غثاثة الكلام ومستكرهه كما في قوله :

فتى ألف جزءٍ رأيُه في زمانِـــه   أقلُّ جُزَيءٍ بعضه الرأي أجمعُ

٥ ـ الاستغلاق كقوله :

أرض لها شرفٌ سواها مِثْلُهـــا   لو كان مِثْلُك في سواها يُوْجَدُ

٦ ـ عدم التماثل والتناسق كقوله :

ما أَبْعَدَ العيبَ والنقصانَ من شيمي   أَنا الثُرَيّا وذانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ

وهذا كلام جار على غير مناسبة لان الثريا ليست من جنس الشيب والهرم ولا هما من جنسه . وكثيرا ما نجد ذلك في شعره وشعر غيره . وقد وضح الحاتمي هذه المسألة مخاطبا المتنبي : « ولكنك نحسن في البيت من القصيدة والابيات احسانا

لا يجهله نقاد الكلام وارباب البيان ايجازا في عبارته وابداعا في نظمه وصوابا في معناه وسلامة في لفظه ثم تشفع ذلك بالابيات السخيفة لفظا ومعنى وبالابيات التي تغير على معانيها وبعض الفاظها اغارة الذئاب المعط على سرح النقد فتأتي القصيدة بالشعر على غير مشاكلة ولا مشاكهة . ومن افحش المعايب ان لا تقع اللفظة مصاحبة اختها ولا مزاوجة ما جاورها » . (١)

٧ ـ عدم احسانه في بعض مبادىء قصائده او تخلصه من غرض الى آخر .

٨ ـ غلوه ومبالغته غير المحمودة واستعاراته وتشبيهاته القبيحة وطباقه الغث .

٩ ـ اعجابه بالتصغير .

١٠ ـ قلق قوافيه ونبوها .

هذه أهم المسائل التي تناثرت في رسائل الحاتمي ، ولكن الموضوع الاول هو سرقات المتنبي ، وهي نوعان :

الأول : سرقاته من كلام العرب واغارته على الشعر الجيد ، ولذلك لا يرى الحاتمي له فضلا وان جيد شعره مسروق والابيات غير الجيدة من خاطره ، ولذلك انكر عليه احسنه وبديعه وما اضافه الى الشعر العربي ، قال : « فقال ابو الطيب : اما يلهيك احساني في هذه الابيات عن اساءة ان كانت في غيرها فقلت : ما اعرف لك احسانا ولا اعترف لك باختراع اذ كانت هذه الابيات التي تتخيل انك السابق الى معانيها ورب الاحسان فيها مسترقة ملصقة فيما تقدم من نظمها وابتكره اصحابها من معانيها شاغل عن تكريرها وتبديل لالفاظها (٢) » . وعلل المتنبي ان ذلك لا بد ان يقع لان كلام العرب آخذ بعضه برقاب بعض وآخذ بعضه من بعض ، والمعاني تعتلج في الصدور وتخطر للمتقدم تارة وللمتأخر اخرى ، والالفاظ مشتركة مباحة . وهذا ابو عمرو بن العلاء سئل عن الشاعرين يتفقان في اللفظ والمعنى مع تباين ما

(١) الرسالة الموضحة ص ٢٢ .

(٢) الرسالة الموضحة ص ١٣٠ .

بينهما وتقاذف المسافة بين بلادهما فقال : تلك عقول رجال توافت على السنتها ، ومن هذا الذي تعرى من الاتباع وتفرد بالاختراع والابتداع ، وليس في الجاهلية او الاسلام شاعر الا وقد احتذى واقتفى . ولم يقنع هذا الكلام الحاتمي فرد عليه قائلا : « اما قولك ان المعنى يعتلج في الصدر فيخطر للمتقدم تارة وللمتأخر اخرى وان الالفاظ مشتركة فليس الامر كما تخيلته ولا الكلام كله مشترك ولا ان الاول ليس بأولى به من الاخر ولو كان كذلك لسقطت فضيلة السابق ولبطلت مهلة المتقدم ولما قدمت شعراء الجاهلية على شعراء الاسلام وقدم الصدر الاول من الاسلاميين على الصدر الاول من المحدثين وانما حكم لهم بالفضل وسلم اليهم خصلة من اجل ما ابتدعوه من المعاني وسبقوا اليه من الاستعارات وابتكروه من التشبيهات الواقعة والامثال الشاردة وذللوه من طرق الشعر الحزنة ولما تعايروا بالسرق والاجتلاب والنقل والاجتذاب . . . . . واما قولك : من هذا الذي تعرى من الاتباع والاحتذاء وسلوك الطريق التي تقدم اليها غيره من الشعراء ، فلعمري ان الامر على ما ذكرته الا انه لا يحمد من الكلام ما كان غابا ولا من المعاني ما كان مكررا مرددا فلا يتسمح الشاعر بأن يكون جمهور شعره عند التصفح مسترقا ملصقا ومجموعا ملفقا ولا ان يكثر الاعتماد في شعره ويتناصر السرق في كلامه . ومن سبيل المحتذي ان يأخذ المعنى دون اللفظ ثم ان يطويه ان كان مكشوفا ويكشفه ان كان مستورا ، ويحسن العبارة عنه ويختار الوزن العذب له حتى يكون بالاسماع عبقا وبالقلوب علقا » . (١)

وشغلته سرقات المتنبي من أبي تمام وذلك لانه انكر معرفته له كما انكر البحتري قال : « وقد اقسمت غير محرج في قسمي انني لم اقرأ شعرا قط لابي تمام هذا » وقال الحاتمي : « فقال ابو الطيب من ابو تمام والبحتري ؟ ما اعلم اني سمعت بذكرهما الا من هذه المحاضرة . فقلت : ابو تمام والبحتري اللذان اختلبت الفاظهما واستلحقت معانيهما ووقعت دونهما وقوع السهم المقصر عن رميته » . (٢)

---

(١) الرسالة الموضحة ١٤٩ وما بعدها .

(٢) الرسالة الموضحة ص ١٠٦ .

وكشف عن اطلاع المتنبي على شعر هذين الشاعرين وتتبعه لابي تمام وسرقاته ، ودافع عن ابي تمام وابان اخذ المتنبي لمعانيه الجيدة وتقصيره في الاخذ عنه وعن الآخرين .

والثاني : أَخْذُه من كلام أرسطو في الحكمة أو موافقته له ، وقد أوضح الحاتمي ذلك في رسالته الحاتمية وذكر مائة بيت وافقت كلام أرسطو . واختلف في هذه الرسالة فلم يتهمه بالسرقة وإنما ذكر قول أرسطو وما يقاربه من شعره وفي ذلك إنصاف للشاعر الذي أسرف النقاد في تجريحه واتهامه بالسرقة .

ومن أمثلة ذلك قول أرسطو : « وإذا كانت الشهوة فوق القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغها » وبيت المتنبي :

وإذا كـانَـتِ النفـوسُ كبـاراً ... تَعِبَتْ في مُـرادِهـا الأجسامُ

وقول أرسطو : « روم نقل الطباع عن ذوي الأطماع شديد الإقناع » وبيت المتنبي :

يُـراد مـن القَلْـبِ نسيـانُـكـم ... وتأبَى الطبـاعُ على الناقِـلِ

ولم تكن العبارات كلها لأرسطو بل ان بعضها لغيره من الفلاسفة (١) ، كما ان الكثير مما ذكره الحاتمي شائع بين الناس ، ولكن تتبعه ذلك واهتمامه بهذا اللون من الاتفاق يدل على جهد كبير . وقد أنصف الشاعر حينما قال في مقدمة الرسالة :

« وقد أوردت من ذلك ما يستدل به على فضله في نفسه وفضل علمه وأدبه » .

وبذلك خفف من حدة كلامه على سرقاته التي أسرف فيها وجرده من كل فضل ، وإن كانت هذه الرسالة تخفي غرضاً دفيناً سعى اليه وهو تجريد المتنبي من شعره في الحكمة وهو ما اشتهر به وذاع صيته في العالمين .

---

(١) ينظر المتنبي بين ناقديه ص ٢٤٠ وما بعدها وتاريخ النقد للدكتور احسان عباس ص ٢٤٥ .

ابن وكيع :

ألّف أبومحمد الحسن بن علي بن وكيع التنيسي (ـ ٣٩٣ هـ) كتاب « المنصف للسارق والمسروق في إظهار سرقات المتنبي » وذكر بلاشير أنه ألفه انتصاراً لابن حنزابة الذي كان مستاءاً من المتنبي لترفعه عن مدحه (١) . وقبل كلامه على سرقات المتنبي أفرد مقدمتين : الأولى تحدث فيها عن السرقات الشعرية عامة وقسمها إلى عشرة أنواع وجعل لكل نوع ضداً فاصبحت عشرين ، والثانية في فنون البديع . أما بحثه في سرقات المتنبي فقد وضع لدراستها خطة تتلخص في :

١ ـ انه لا يقف عند الأبيات الفارغات والمعاني المكررات المرددات إلا قليلاً لكي لا تظن به الغفلة عنها .
٢ ـ لا يذكر المعاني التي اكثرت الشعراء إستعمالها كتشبيه الوجه بالبدر والريق بالخمر .
٣ ـ يحكم عند كل سرقة إن كان المتنبي قصر في الأخذ أو ساوى فيها المأخوذ عنه أو استحق المعنى المسروق دون قائله الأول منبهاً على علة التقصير أو المساواة أو الزيادة .

ويبدو تعصبه على المتنبي في هذا الكتاب وقد أشار إلى ذلك القدماء فقال ابن رشيق : « واما ابن وكيع فقد قدم في صدر كتابه عن أبي الطيب مقدمة لا يصح لأحد معها شعر إلا الصدر الأول ان سلم ذلك لهم ، وسماه كتاب المنصف مثل ما سمي اللديغ سليماً وما أبعد الإنصاف منه » (٢) .

وذكر البديعي ما قاله ابن القارح وهو أن ابن وكيع التنيسي كان متأدباً ظريفاً يقول الشعر وعمل كتاباً في سرقات المتنبي وحاف عليه كثيراً ، قال :

---

(١) ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ص ٣١ .

(٢) العمدة ج ٢ ص ٢١٦ .

« وسألني يوماً أن أخرج معه وأستصحب مغنياً وآمره أن لا يغني إلا بشعره فغنى :

لـو كـان كُـلُّ عليـلٍ ... يـزداد مِثْـلَـك حُسْنَـا
لكـان كُـلٌّ صحيـح ... يـودُّ لـو كـان مُضْنَـى
يـا أَكْمَـلَ النـاسِ حُسْناً ... صِـلْ أَكمـلَ النـاسِ حُزْنَـا
غنيـت عـني ومـالـي ... وجـهٌ بـه عنـك أغْنَـى

فقلت له : هل تثقل عليك المؤاخذة؟ قال : لا . فقلت ان أبياتك مسروقة ، الأولى من قول بعضهم :

فلوكان المـريـضُ يَـزيـدُ حسنـاً ... كما تـزدادُ أنت عـلى السّقـامِ
لمـا عِيـدَ المـريـضُ إذَنْ وعُـدَّت ... شكايتُـه مـن النِعَـمِ الجسامِ

والثاني من قول رؤبة :

سلم مـا أنساك مـا حييـتُ ... لو أشْرَبُ السلـوانَ مـا سليـتُ
مالي غِنًى عنك ولو غنيتُ

فقال : والله ما سمعت بهذا . فقلت : إذا كان الأمر على هذا فاعذر المتنبي على مثله ولا تبادر إلى الحط عليه ولا المـؤاخذة له ، والمعاني يستدعي بعضها بعضاً » (١) .

العميدي :

اهتم أبو سعد محمد بن أحمد العميدي (ــ٤٣٣ هـ) بسرقات المتنبي فأوضحها في كتابه « الإبانة عن سرقات المتنبي » الذي ألّفه ليرد على المعجبين بالشاعر من غير ترو وروية وليظهر إن شعره ليس بالمعجزة وإنما فيه الغث الساقط والمبتذل والمسروق . ويبدأ العميدي رسالته في الكلام على التقليد في الرأي ليوضح ان

(١) الصبح المنبي ص ٢٦٥ .

المتعصبين للمتنبي ما هم إلا مقلدون لقلة بضاعتهم في العلم ولو كانوا على جانب من المعرفة لما قلدوا ووقعوا في خطأ عظيم . ويبدو في الرسالة تحامل المؤلف على المتنبي والتشفي منه فيما أورد من سرقاته التي لا يمكن أن تكون كلها حقاً لأن الإتفاق في المعنى والإشتراك في بعض الألفاظ لا يؤدي إلى إسقاط الشاعر . وقد أحس العميدي انه سيؤاخذ على ما قال ولذلك قدم القول في إعترافه بجيد الشاعر وصفاء طبعه وحلاوة كلامه وعذوبة الفاظه ورشاقة نظمه واهتدائه لاستكمال شروط الأخذ إذا لحظ المعنى البديع لحظاً ومعرفته بحفظ التقسيم الذي يعلق بالقلب موقعه وإيراد التجنيس الذي يملك النفس مسمعه ولكنه لا يجعله وأبا تمام الذي كان رب المعاني ومسلم بن الوليد وأشباههما في طبقة ولا يلحقه في عذوبة الالفاظ وسهولتها ورشاقة المعرض ومجانبة التصنع والتكلف بالبحتري ولا يقيسه في امتداد النفس وعلم اللغة والاقتدار على ضروب الكلام وتصور المعاني العجيبة والتشبيهات الغريبة والحكم البارعة والاداب الواسعة بابن الرومي ولا يتهالك في مدحه تهالك من يتعصب له تقليداً ويغلو فلا يجعل بينه وبين هؤلاء الفضلاء أمداً بعيداً ولا يطعن في دينه ونسبه ولا يذمه لاعتقاده مذهبه أو يعيبه لسقوط آبائه وأجداده . فالادب يجعل الوضيع في نسبه رفيعاً والمتنبي كان يفتخر بادبه لا بنسبه ويعتد بفضله لا بأهله ويتطاول على أهل زمانه بفصاحة لسانه وبضرابه وطعانه لا بتوحيده وإيمانه . ولو انه سكت عن إنكاره فضل السابقين لغض الناس عن معايبه وغطوا على مساويه ومثالبه وعدوه كسائر الشعراء الذين لا ينبش عظامهم إنسان ولكنه كان يجحد فضائل من تقدمه من الشعراء وينكر حتى أسماءهم في محافل الرؤساء ويزعم أنه لا يعرف الطائيين وعلى ديوانيهما يغير ولم يسمع بابن الرومي وهو من بعض أشعاره يمير ويسبهم ونظراءهم إذا قيل في أشعارهم ابداع ، ولذلك إنهال عليه النقاد وأظهروا سرقته من البحتري وأبي تمام وإبن الرومي وغيرهم من القدماء والمحدثين وقالوا إنه لما قتل وجد في خرج كان معه ديوانا الطائيين بخطه وعلى حواشي الأوراق علامة على كل بيت أخذ معناه وسلخه .

لقد أوضح العميدي في أول رسالته انه لن يتعصب على المتنبي وانه سينظر

إلى المسألة بعين الإنصاف ولكنه انساق باحثاً عن سرقاته رابطاً بين أبياته وأبيات غيره بحيث أفسد ما قاله وظهر تعصبه واضحاً وكلماته جارحة وإنفعاله عنيفاً ، ومن عباراته التي تظهر ذلك قوله : « هذه والله سرقة توجب على سائر مذاهب الشعراء قطع اللسان فضلاً عن اليد مع إنكار فضيلة غيره وادعائه الإعجاز في شعره » (١) .

وقوله : « بُكْمُ الخُرْسِ أحسن من هذا الكلام العامي الغث والنظام الفاسد الرث » (٢) .

ولاحظ القدماء ذلك فقال البديعي : « وكان الشيخ أبوسعد محمد بن أحمد العميدي صاحب كتاب الإبانة عن أبي الطيب في غاية الإنحراف حائداً في التمييز عن سنن الانصاف ، ونحن نورد كلامه ونرد في نحره سهامه فانه تجاوز الحد وأكثر الرد » (٣) .

والكتاب كله في السرقات وفيه بعض الإشارات إلى غيرها ولكنها قليلة لا تمثل رأياً أو ترسم منهجاً ، من ذلك تعليقه على بيت المتنبي :

أغــارُ مــن الـزجـاجةِ حين تَجْري   على شَفَــةِ الأمــير أبي الحسينِ

قال : « وهذا الكلام لا يخرج إلا من سوء أدب وقلة معرفة بخدمة الملوك لان الغيرة تكون من المحب على المحبوب فاما من المملوك على المالك ومن المادح على الممدوح فضرب من قلة التمييز لا غير » (٤) .

ومنها إشاراته إلى إعادته المعاني في أشعاره وإفساده لها عند أخذها وضعف بصيرته في السرقة وما في شعره من غموض يحتاج إلى كد الذهن من غير طائل لان معناه بارد . ولا يخلو الكتاب من عبارات فيها إطراء ، ولكن ذلك لا يخفف

(١) الابانة ص ١٧٣ .
(٢) الابانة ص ٦٣ .
(٣) الصبح المنبي ص ١٨١ .
(٤) الابانة ص ٣٩ .

من أسرافه في الإتهام وتقديم شعراء مغمورين على المتنبي العظيم .

هذه بعض الدراسات التي وقفت تناويء المتنبي وتشنع عليه ، ولكن هناك دراسات أخرى أنصفته فقد كان له أنصار وتلاميذ كثيرون ولكنهم لم يتركوا إلاّ آثاراً قليلة توضح مواقفهم بينما ترك خصومه الكثير من الرسائل والكتب ومن هؤلاء أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد المغربي تلميذه وراويته ، وقد الف كتابين في تفضيله وإظهار ميزته هما :

١ ـ الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي .
٢ ـ بقية الإنتصار المكثر من الإختصار .

وله كتاب ثالث هو « التنبيه المنبي في رذائل المتنبي » عرض فيه ما يستحق المؤاخذة في ديوانه (١) وهذا يدل على أن الرجل كان منصفاً لم يتعصب للمتنبي وإنما عرض محاسنه في الكتابين الأولين ونبه على معايبه في الكتاب الثالث .

واهتم أبو الفتح عثمان بن جني (ـ ٣٩٢ هـ) بشعر المتنبي ونقده ووضع شروحاً لديوانه أظهر فيها ما في شعره من مزية وأبان عما فيه من سهو أوسقط (٢) . وقد تجلت روح الإنصاف فيما كتب ودافع عما اتهم به الشاعر ووجه أبياته التي كانت موضع نقد عنيف . ولعل هذه الفقرة توضح موقفه منه قال : « وانني لم أر شاعراً كان في معناه ولا مجرياً إلى مداه ولقد كان من الجد فيما يعانيه ولزوم طريقة أهل العلم فيما يقوله ويحكيه على أسد وتيرة وأحسن سريرة وإن كان في بعض الفاظه تعسف عن القصد في صناعة الاعراب من إرتكاب شاذ وحمل على نادرة فعن غير جهل كان منه ولا قصور عن إختيار الوجه إلا عرف له ومن هنا تشبث قوم لا دربة لهم بالعربية بأشياء من ظاهر لفظه إذ لم تكن لهم خبرة

(١) معجم الادباء ج ١٧ ص ١٢٨ ، والصبح المنبي ص ٢٦٩ .
(٢) له ثلاثة كتب هي : تفسير ديوان المتنبي الكبير وتفسير معاني ديوان المتنبي والنقض على ابن وكيع في شعر المتنبي وتخطئته ، (معجم الادباء ج ١٢ ص ١١٠ ، والمتنبي بين ناقديه ص ٣٨ ، وديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ص ١٠) .

بدخيلة أمره . حقاً أقول لقد شاهدته على خلق قلما تكامل إلا لعالم موفق ، فاما اختراعه للمعاني وتغلغله فيها واستنقاؤه لها فما لا يدفعه إلا ضد ولا يستحسن معاندته إلا ند ، وما أحسبني رأيت أحداً يتناكر فضل هذا الرجل ردحاً من الزمان إلا وشاهدته بعد ذلك قد رجع عنه وعاد إلى تفضيله » (١) .

ووقف بعد ذلك أحد الأدباء إلى جانب المتنبي وأنصفه كما أنصفه ابن جني ، وذلك الأديب هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ـ ٤٢٩ هـ) الذي وجد الناس قد شرّقوا وغرّبوا في ذكره فمن مادح يرفعه إلى السماء وقادح ينزله إلى الحضيض . وقرأ ما كتب عن شعره ونقده فحاول أن يقف موقفاً وسطاً يوفق بين محاسنه ومساويه . وكانت دراسته في « يتيمة الدهر » من أروع ما كتب عن المتنبي وأكثر الدراسات تفصيلاً فقد جمع فيها أخباره ومحاسن شعره وما عيب عليه .

والطابع العام لدراسته الدقة في المنهج والعرض ، فقد فصل بين محاسنه ومساويه وأفرد لكل فصلاً أطال الوقوف فيه على تلك المحاسن والسقطات وهذا ما لا نجده في الكتب السابقة التي لم تعن مثل هذه العناية بالتنسيق وجمع الأشباه والنظائر . ومحاسن المتنبي التي تحدث عنها :

١ ـ حسن المطالع .
٢ ـ حسن الخروج والتخلص .
٣ ـ النسيب بالاعرابيات .
٤ ـ حسن التصرف في الغزل .
٥ ـ حسن التشبيه بغير أداة التشبيه .
٦ ـ الإبداع في سائر التشبيهات والتمثيلات .
٧ ـ التمثيل بما هو من جنس صناعته .
٨ ـ المدح الموجه .

(١) الفسر ج ١ ص ٢١ .

٩ ـ حسن التصرف في مدح سيف الدولة .
١٠ ـ الإبداع في سائر مدائحه .
١١ ـ مخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق مع الإحسان والإبداع .
١٢ ـ إستعمال الفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب والجد .
١٣ ـ حسن التقسيم .
١٤ ـ حسن سياقة الإعداد .
١٥ ـ إرسال المثل في انصاف الأبيات .
١٦ ـ إرسال المثلين في مصراعي البيت الواحد .
١٧ ـ إرسال المثل والإستملاء والموعظة وشكوى الدهر والدنيا والناس .
١٨ ـ معانيه الجديدة في المراثي والتعازي .
١٩ ـ الإيجاع في الهجاء .
٢٠ ـ إبراز المعاني اللطيفة في معارض الالفاظ الرشيقة الشريفة والرمز بالطرف والملح .
٢١ ـ حسن المقطع .

ومعايبه هي :

١ ـ قبح المطالع .
٢ ـ إتباع الفقرة الغراء بالكلمة العوراء .
٣ ـ إستكراه اللفظ وتعقيد المعنى .
٤ ـ عسف اللغة والإعراب .
٥ ـ الخروج عن الوزن .
٦ ـ إستعمال الغريب الوحشي .
٧ ـ الركاكة والسفسفة بالفاظ العامة والسوقة ومعانيهم .
٨ ـ الإبعاد في الإستعارة والخروج بها عن حدها .
٩ ـ الإستكثار من قول « ذا » .

١٠ ـ الإفراط في المبالغة والخروج فيه إلى الاحالة .
١١ ـ تكرير اللفظ في البيت الواحد من غير تحسين .
١٢ ـ إساءة الأدب بالأدب .
١٣ ـ الإيضاح عن ضعف العقيدة ورقة الدين .
١٤ ـ الغلط بوضع الكلام في غير موضعه .
١٥ ـ إمتثال الفاظ المتصوفة .
١٦ ـ الخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة .
١٧ ـ إستكراه التخلص .
١٨ ـ قبح المقاطع .

وتحدث عمّاً تكرر في شعر المتنبي من معانيه ، وعن سرقاته وسرقات الشعراء منه وحلّ الكتّاب كالصاحب لشعره وإدخاله في ترسلهم . وهو في نقده لم يصدر عن نظرية نقدية وإنما جمع ما قيل في شعر المتنبي ورتّبه ترتيباً بديعاً وأخرجه إخراجاً حسناً من غير أنْ يتحامل عليه أو يتعصب له وبذلك كان من المنصفين .

الوساطة

إستمر التأليف في نقد شعر المتنبي بعد القرن الرابع ، ولكنّ أبرزكتاب ظهر في هذا القرن « الوساطة بين المتنبي وخصومه » للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (ـ ٣٩٢ هـ) الذي أراد أن يقف بين المتنبي وخصومه موقف المنصف وان يزيح الركام عن تلك الخصومة ليظهر ما وراءها ويجلو ما كان في القرن الرابع من خصومات طمست المتنبي حقه وأظهرته شاعراً كثير السطو والإغارة على شعر الآخرين .

وقد أشار القدماء والمحدثون إلى الدافع الذي جعل القاضي يضع كتابه فقال الثعالبي : « ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة في إظهار مساويء المتنبي عمل القاضي أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره فأحسن وأبدع وأطال وأطاب وأصاب شاكلة الصواب واستولى على الأمد في فصل الخطاب وأعرب عن تبحره في الأدب وعلم العرب وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد فسار الكتاب مسير الرياح وطار في البلاد بغير جناح . وقال فيه بعض العصريين من أهل نيسابور :

أيا قاضياً قد دَنَتْ كُتْبُهُ ... وإنْ أصبَحَتْ دارُه شاحِطه
كتابُ الوساطةِ في حُسْنِه ... لعِقْدِ معاليك كالواسِطَه [1]

وإلى ذلك ذهب المعاصرون كالمستشرق بلاشير الذي قال : « فلكي يرد على ابن عباد ألف كتاباً سماه الوساطة بين المتنبي وخصومه حيث أراد أن يؤيدما

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٤ .

هو صحيح من الهجمات التي وجهت إلى الشاعر ويبين ايضا ما يستحقه بجدارة من مدح المعجبين به » [1] ، والدكتور أحمد بدوي [2] ، والدكتور احسان عباس الذي أضاف إلى ذلك ان الجو الذي عاش فيه القاضي كان مهيئاً لظهور كتاب الوساطة ليكون بمثابة التوفيق بين الطرفين [3] . وقال الدكتور محمود السمرة : « وفي رأينا ان الحياة النقدية في العصر كانت تدفع أبا الحسن إلى تأليف كتابه ، ولم يكن كتاب الصاحب سوى حافز من حوافز عدة » [4] .

ويبدو أنَّ القاضي ألَّف كتابه بعد وفاة المتنبي (ـ ٣٥٤ هـ) بمدة تزيد على عشر سنوات أي بعد سنة ٣٦٦ هـ التي تولى فيها القضاء مما جعل النيسابوري يخاطبه :

أيا قاضياً قد دنت كُتْبُه ... وإنْ أصبحت دارُه شاحِطه
كتابُ الوساطةِ في حُسْنِه ... لِعِقْدِ معاليك كالواسِطه

وهدف المؤلف من كتابه أن ينصف المتنبي ويضعه حيث ينبغي أن يوضع بين الشعراء الفحول فلا يتعصب له أو عليه وإنما يبين محاسنه الكثيرة ويشير إلى هفواته . وهذا الهدف واضح كل الوضوح في صفحات الكتاب ، وقد لخصه المؤلف بقوله : « وقد قدمنا لك في صدر هذه الرسالة من شعر أبي نواس وأبي تمام وغيرهما ما مهدنا به الطريق إلى هذا القول وأقمنا علماً يرجع اليه في هذا الحكم ، وأعلمناك أنه ليس بغيتنا الشهادة لأبي الطيب بالعصمة ولا مرادنا أن نبرئه من مقارفة زلة ، وإن غايتنا فيما قصدناه ان نلحقه بأهل طبقته ولا نقصر به عن رتبته وأن نجعله رجلاً من فحول الشعراء ونمنعك عن احباط حسناته بسيئاته ولا نسوغ لك التحامل على تقدمه في الأكثر بتقصيره في الأقل ، والغض من عام تبريزه » [5] .

وكتاب الوساطة رسالة واحدة مترابطة الأفكار في كثير من الأحيان ، ولكن

---

(١) ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ص ١١ ـ ١٢ .
(٢) القاضي الجرجاني ص ٤٤ .
(٣) تاريخ النقد الادبي عند العرب ص ٢٧٧ ، ٣١٣ .
(٤) القاضي الجرجاني الاديب الناقد ص ١١١ .
(٥) الوساطة ص ٤١٥ .

الباحث يستطيع أن يقسمها إلى ثلاثة أجزاء واضحة هي : المقدمة التي أوضح فيها منهجه وأسسه النقدية ، ودفاعه عن المتنبي ، ونقده التطبيقي . وهذا القسم الأخير هو الذي تصدق تسميته « الوساطة » ، لأن المؤلف تناول ما عبب على أبي الطيب في شعره وما أخذه عليه العلماء من مآخذ ، وناقشه وحلله وفصل القول فيه ، وهذا هو الجزء الذي يتضح فيه النقد الموضوعي الدقيق ، (١) وتبدو قدرة الجرجاني على النقد الصحيح .

ويقوم منهج القاضي العام على « المقايسة » أي : قياس الأشباه والنظائر ، وبذلك اختلف عن الآمدي الذي اتخذ الموازنة أساساً له في كتابه . ولكن المقايسة التي سار عليها لا تخلو من مزالق كالتعميم والإيهام المنطقي وعدم الوقوف على رأي قاطع لا سيما فيما لا يمكن الاتفاق عليه بين النقاد ذوي الأذواق المختلفة .

واتضح الاتجاه العلمي في الوساطة وبذلك مَهَّدَ السبيل لتحوّلِ النقد إلى بلاغة عند صاحب الصناعتين ، وكانت لغة الفقه والقضاء واضحة كل الوضوح ، وليس ذلك بغريب من ناقد اتخذ القضاء له مهنة ، ولذلك نجد الحذر فيما يعرض وفيما يحكم بين المتنبي وخصومه . يضاف إلى ذلك التواضع الذي يسم الكتاب ، فلم يدع المؤلف انه عالم ، ولـم يتسرع في الحكم إلا بعد أن يرجع إلى النصوص ويوازن بينها ويظهر ما فيها من محاسن أو مساوىء . قال موضحاً هذا الاتجاه : « وليس لك أن تلزمني تمييز ذلك وأفراده والتنبيه عليه باعيانه كما فعله كثير ممن استهدف للالسن ولم يحترز من جناية التهجم فقال : معنى فرد وبيت بديع ، ولم يسبق فلان إلى كذا أو انفرد فلان بكذا ، لأني لم أدع الإحاطة بشعر الأوائل والأواخر بل لم أزعم اني نصفته سماعاً وقراءة فدع الحفظ والرواية ولعل المعنى الذي أسمه بهذه السمة والبيت الذي أضيفه إلى هذه الجملة في صدر ديوان لم أتصفحه أو تصفحته ولم أعثر بذلك السطر منه ، أو عساني أن أكون رويته ثم نسيته أو حفظته لكني أغفلت وجه الأخذ منه وطريقة الاحتذاء به . وإنما أجسر في الوقت بعد

---

(١) ينظر النقد المنهجي عند العرب ص ٢٧١ ، والقاضي الجرجاني للسمرة ص ١١٤ .

الوقت فأقدم على هذا الحكم انقياداً للظن واستنامة إلى ما يغلب على النفس . فاما اليقين الثقة والعلم والإحاطة فمعاذ الله أن ادعيه ولو ادعيته لوجب أن لا تقبله مع علمك بكثرة الشعراء واختلاف الحظوظ وخمول أكثر ما قيل وضياع جل ما نقل . وأظنك قد سمعت أو انتهى اليك أن البحتري أسقط خمسمائة شاعر في عصره فما يؤمنني من وقوع بعض أشعارهم إلى غيري ؟ وما يدريني ما فيها ؟ وهل هذا هو المستغرب المستحسن منقول عنها ومقتبس منها ؟ وهؤلاء المحدثون الذين شاركونا في الدار والبلد وجاورونا في العصر والمولد فكيف بمن بعد عهده وقدم زمانه وتناسخت الأمم بيننا وبينه » [1] . وبعد أن تحدث عن ضياع كثير من الشعر واختلاف نسبته وما وقع فيه من اضطراب قال : « فاذا كان هذا الشعر عندهم اليوم ، وهذه عدة من يقرض منهم وينظم ، واللغة فاسدة واللسان مدخول والأمر مدبر وأكثر العرب مستعجم ، فما ظنك بهم والعرب عرب والدار خالصة لهم والحضر بعيد منهم وأسباب الفساد منقطعة عنهم ؟ وهل يمكن مع هذه الأحوال إحصاء المقرر المتوسع فضلاً عن المقل المتطرف ؟ افتستجيز لي على ما تراه ان أتسرع ولا أتحرز وأعجل ولا اتلبث ؟ كلا بل أفصل لك بين المراتب والمقادم وأعزل لك المقدم عن المؤخر ، وأميز ما يقرب عندي في الإبداع عما أشهد عليه بالأخذ . فإن الحقت به المأخوذ المسترق فلبعض الأغراض المتقدمة أو لزيادة فيه مستحسنة فاسلم من تورط المسترسل ولا أقف موقف المتكلف » .

هذا موقف القاضي من النقد والشعراء وهو يختلف كل الاختلاف عن موقف الآخرين الذين طعنوا في المتنبي وشعره وظهر التعصب عليهم واضحاً في كتبهم وأحكامهم . فالحاتمي يصرح أن الوزير المهلبي هو الذي حرضه على مهاجمة المتنبي ، ويقول : « سامني هتك حريمه وتمزيق أديمه ووكلني بتتبع عواره وتصفح أشعاره وأحواجه إلى مفارقة العراق » [2] . ويظهر علمه وقدرته على النقد والجدل ويتطاول على المتنبي وغيره . والفرق كبير بين هذه الروح وما اتسم به القاضي

(١) الوساطة ص ١٦٠ .

(٢) الموضحة ص ٣ .

في وساطته التي كانت معلماً في طريق النقد الموضوعي .

تلك نظرة عابرة في كتاب الوساطة تمهد السبيل للنظر في آراء القاضي النقدية والبلاغية وموقفه من المتنبي وخصومه . وأهم القضايا التي عالجها :

النقد :

يرى أنَّ النقد مهمة ليست باليسيرة ، فهي تحتاج إلى علم واسع وذوق رفيع وإنصاف . وقد أوضح شروط الناقد بقوله : « ولست تُعَدّ من جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتحيط علماً برتبه ومنازله فتفصل بين السرق والغصب وبين الاغارة والاختلاس وتعرف الإلمام من الملاحظة ، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز إدعاء السرق فيه والمبتذل الذي ليس أحد أولى به وبين المختص الذي حازه المبتدىء فملكه وأحياه السابق فاقتطعه فصار المعتدي مختلساً سارقاً والمشارك له محتذياً تابعاً وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه أخذ ونقل والكلمة التي يصح أن يقال فيها هي لفلان دون فلان » (١) .

إنَّ النقد مهمة عسيرة والناقد رجل جمع بين العلم والذوق ، وهذا العلم واسع لا يقف عند اللغة أوالوزن والإعراب وإنما يتجاوز إلى غير ذلك من قضايا حيوية . ولذلك قال عمن لا يحفل بكل هذه الألوان : « وأقل الناس حظاً في هذه الصناعة من اقتصر في اختياره ونفيه ، وفي استجادته واستسقاطه على سلامة الوزن وإقامة الإعراب وأداء اللغة ، ثم كان همه أن يجد لفظاً مُرَوَّقاً وكلاماً مزوقاً حتى حشي تجنيساً وترصيعاً وشحن مطابقة وبديعاً ، أومعنى غامضاً قد تعمق فيه مستخرجه وتغلغل اليه مستنبطه ثم لا يعبأ باختلاف الترتيب واضطراب النظم وسوء التأليف وهلهلة النسج ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها ولا يسبر ما بينهما من نسب ولا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب ولا يرى اللفظ إلا ما أدى اليه المعنى ولا الكلام إلا ما صور له الغرض ولا الحسن إلا ما أفاده البديع ولا الرونق إلا ما كساه

(١) الوساطة ص ١٨٣ .

التصنيع . وقد حملني حب الإفصاح عن هدا المعى على تكرير القول فيه وإعادة الذكر له ، ولو احتمل مقدار هذه الرسالة استقصاؤه واتسع حجمها للاستيفاء له لاسترسلت فيه ولأشرفت بك على معظمه » (١) .

وتحدَّث كثيراً عن التعصب وأثره في النقد وقال إنه « ليس من حكم مراعاة الأدب أن نعدل لأجله عن الانصاف أو نخرج في بابه إلى الاسراف بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك وتقف على رسمه كيف وقفك ، فتنتصف تارة وتعتذر أخرى وتجعل الاقرار بالحق عليك شاهداً لك إذا أنكرت وتقيم الاستسلام للحجة إذا قامت محتجاً عنك إذا خالفت فانه لا حال أشد استعطافاً للقلوب المنحرفة وأكثر استمالة للنفوس المشمئزة من توقفك عند الشبهة إذا عرضت واسترسالك للحجة إذا قهرت ، والحكم على نفسك إذا تحققت الدعوى عليها ، وتنبيه خصمك على مكامن حيلك إذا ذهب عنها . ومتى عرفت بذلك صار قولك برهاناً مُسَلَّما ورأيك دليلاً قاطعاً واتهم خصمك ما علمه وتيقنه وشك فيما حفظه واتقنه وارتاب بشهوده وان عدلتهم المحبة وجبن عن اظهار حججه وان لم تكن فيها غميزة وتحامتك الخواطر فلم تقدم عليك الا بعد الثقة وهابتك الالسن فلم تعرض لك الا في الفرط والندرة » . (٢) وإذا رأى الناقد هفوة أو زلة فعليه ان ينتحل لقائلها عذراً ، « وللفضل آثار ظاهرة وللتقدم شواهد صادقة فمتى وجدت تلك الآثار وشوهدت هذه الشواهد فصاحبها فاضل متقدم فان عثر له على زلة ووجدت له بعقب الاحسان هفوة انتحل له عذر صادق أو رخصة سائغة ، فان أعوز قيل : زلة عالم ، وقل من خلا منها وأي الرجال المهذب ؟ ولولا هذه الحكومة لبطل التفضيل ولزال الحرج ولم يكن لقولنا فاضل معنى يوجد أبداً ، ولم نسم به إذا أردنا حقيقة أحداً . وأي عالم سمعت به ولم يزل ويغلط ؟ وأي شاعر انتهى اليك ذكره لم يهف ولم يسقط ؟ » . (٣) ولكي يؤيـد هذا القول ذكر أمثلة من هفوات الشعراء في الجاهلية والاسلام وقال : « واشباه ذلك مما يكثر تعقبه ولم

(١) الوساطة ص ٤١٣ .

(٢) الوساطة ص ٢ .

(٣) الوساطة ص ٤ .

نذكر الا اليسير منه فيما نريده ، شككت في ان نفع هذا الحكم عام وجدواه شامل وان المتقدم يضرب فيه بسهم المتأخر والجاهلي يأخذ منه ما يأخذ الاسلامي وانه قول لاحظ له في العصبية ولا نسب بينه وبين التحامل » . (١)

وأوضح التحامل في النقد بقوله : «ولو أنصف أصحابنا هؤلاء لوجد يسيرهم أحق بالاستكثار وصغيرهم أولى بالاكبار لأن أحدهم يقف محصوراً بين لفظ قد ضيق مجاله وحذف أكثره وقل عدده وحظر معظمه . ومعان قد أخذ عفوها وسبق إلى جيدها فأفكاره تنبت في كل وجه وخواطره تستفتح كل باب فان وافق بعض ما قيل أو اجتاز منه بابعد طرف قيل : سرق بيته فلان وأغار على فلان ولعل ذلك البيت لم يقرع قط سمعه ولا مر بخلده كأن التوارد عندهم ممتنع واتفاق الهواجس غير ممكن وان افترع معنى بكرا أوافتتح طريقاً مبهماً لم يرض منه الا بأعذب لفظ وأقربه من القلب وألذه في السمع . فان دعاه حب الاغراب وشهوة التنوق إلى تزيين شعره وتحسين كلامه فوشحه بشيء من البديع وحلاه ببعض الاستعارة قيل هذا ظاهر التكلف بين التعسف ناشف الماء قليل الرونق . وان قال ما سمحت به النفس ورضي به الهاجس قيل : لفظ فارغ وكلام غسيل ، فاحسانه يتأول وعيوبه تتحمل وزلته تتضاعف وعذره يكذب فلا تشتغلن بهذه الطائفة ما دمت تنظر بين المتنبي وأهل عصره وآخر المنازعة في هذا الرأي وان كان الخلاف الأكبر فان لكل مقام مقالاً . وإنما خصمك الألد ومخالفك المعاند الذي صمدت لمحاكمته وابتدأت بمنازعته ومحاجته مس استحسن رأيك في إنصاف شاعر ثم الزمك الحيف على غيره وساعدك على تقديم رجل ثم كلفك تأخير مثله فهويسابقك إلى مدح أبي تمام والبحتري ويسوغ لك تقريظ ابن المعتز وابن الرومي حتى إذا ذكرت أبا الطيب ببعض فضائله واسميته في عداد من يقصر عن رتبته امتعض امتعاض الموتورونفر نفار المضيم فغض طرفه وثنى عطفه وصعر خده وأخذته العزة بالاثم وكأنما زوى بين عينيه عليك المحاجم .

---

(١) الوساطة ص ١٥

واقبل عليك أيها الراوي المتعتب فأقول لك : خبِّرني عمن تعظمه من أوائل الشعراء ومن تفتتح به طبقات المحدثين هل خلص لك شعر أحدهم من شائبة وصفا من كدر ومعابة ؟ فان ادعيت دلك وجدت العيان حجيجك والمشاهدة خصمك وعدنا بك إلى أضعاف ما صدرنا به مخاطبتك واستعرضنا الدواوين فأريناك فيها ما يحول بينك وبين دعواك ويحجزك ان كان بك أدنى مسكة عن قولك . فان قلت : قد أعثر بالبيت بعد البيت أنكره وأجد اللفظ بعد اللفظ لا استحسنه وليس كل معانيهم عندي مرضية ولا جميع مقاصدهم صحيحة مستقيمة . قلنا لك : فأبو الطيب واحد من الجملة فكيف خص بالظلم من بينها ؟ ورجل من الجماعة فلم أفرد بالحيف دونها ؟ فان قلت كثر زلله وقل إحسانه واتسعت معايبه وضاقت محاسنه قلنا : هذا ديوانه حاضراً وشعره موجوداً ممكناً هلم نستقرئه ونتصفحه ونقلبه ونمتحنه ثم لك بكل سيئة عشر حسنات وبكل نقيصة عشر فضائل ، فإذا أكملنا لك ذلك واستوفيته وقادك الاضطرار إلى القبول أو البهت ووقفت بعد التسليم والعناد عدنا بك إلى بقية شعره فحاججناك به وإلى ما فضل بعد المقاصة فحاكمناك اليه » . (1)

وفي هذه الكلمات كثير من الحقائق النقدية التي ينبغي أن يضعها الناقد أمامه قبل أن يندفع في نقده ويتحامل على الشعراء والكتاب ، لأن النقد ليس تعبيراً عن هوى أو رغبة وإنما هو اظهار للحق وكشف عن القيم الفنية والأدبية من غير تعصب واندفاع . وقد كان القاضي منصفاً كل الانصاف حينما قرر هذه الأسس قبل أن يخوض في شعر المتنبي وموازنته بشعر الآخرين ، والرد على خصومه المتألبين ، وقد كانت هذه الأسس نبراساً استضاء به وهو يطوف في شعر أبي الطيب ويعرض الآراء ويوضح الاهداف . وما أقبح الهوى حينما يعرض ويملك النفوس ، وما أحسن الانصاف حينما يجلو الحقيقة ويكشف الأمور ، وليس كالعصبية ما يعمي البصائر والأبصار وليس كالحيدة ما يظهر الحق ناصعاً جلياً . قال مصوراً أثر العصبية : « غير ان العصبية ربما كدرت صفو الطبع وفلت حد الذهن ولبست العلم بالشك

(1) الوساطة ص ٥٢ .

وحسنت للمنصف الميل ومتى استحكمت ورسخت صورت لك الشيء بغير صورته وحالت بينك وبين تأمله وتخطت بك الاحسان الظاهر إلى العيب الغامض . وما ملكت العصبية قلباً فتركت فيه للتثبت موضعاً أو أبقت منه للانصاف نصيباً » . (١)

وكان هذا ديدنه في كتابه وموقفه من المتنبي وخصومه والشعراء الآخرين . ومن أوضح مواقفه إنصافه للمتنبي ورأيه في القدماء والمحدثين ، فهو لم يتعصب على أحد أو ينكر فضل أحد وقد أنصف المحدثين من غير أن يبخس القدماء حقهم . قال موضحاً اتجاهه : « وليس يجب إذا رأيتني أمدح مُحْدَثاً أو أذكر محاسن حضري أنْ تظن بي الانحراف عن متقدم أو تنسبني إلى الغض من بدوي بل يجب أن تنظر مغزاي فيه أو تكشف عن مقصدي منه ثم تحكم علي حكم المنصف المتثبت وتقضي قضاء المقسط المتوقف » . (٢) ومما يظهر هذه النزعة بوضوح موقفه من الشعراء القدماء والمحدثين فهو يقف عند شعر أبي تمام مشيراً إلى ما فيه من جودة وروعة ثم ينتقل إلى شعر البحتري واصفاً ما فيه من رقة وعذوبة . وهو في الحالتين معجب بالجيد المطبوع الذي لا يفقده التكلف ماءه ورونقه ويحيله ألفاظاً لا رواء فيها ، وكثيراً ما يشير إلى موقف بعض النقاد الذين لا يرون للحديث قيمة ونفعاً ، وليس الأمر كما ذهبوا إليه وإنما الفضل للجيد الرائع حيثما كان وفي أي عهد ظهر . قال متحدثاً عن موقف القدماء من الشعر المحدث : « وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج ويعيب المتأخرين ، فإن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ونقض قوله ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً وأقل مرزأة من تسليم فضيلة لمحدث والإقرار بالإحسان لمولد » . (٣)

وكان موقفه من هذه المسألة طريقاً سار فيه للدفاع عن المتنبي فهو يرى أنه

(١) الوساطة ص ٤١٤ .

(٢) الوساطة ص ١٥ .

(٣) الوساطة ص ٥٠ .

إذا كان يؤخذ على هذا الشاعر وغيره من المحدثين أغلاط في النحو والمعاني فقد وقع القدماء في مثلها فامرؤ القيس سكن (أشرب) في قوله :

فاليومَ أشْرَبْ غيرَ مستحقبٍ   إثماً من اللهِ ولا واغلِ

ولبيد سكن « يرتبط » في قوله :

تَرّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرْضها   أو يرتبطْ بعضَ النفوس حِمامُهَا

مع أنه لا عمل فيه لـ « لم » . وقد علل دفاع النقاد عن القديم بقوله : « إن المحرك لها والباعث عليها شدة إعظام المتقدم والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد وألفته النفس » . (١)

والشعراء المحدثون جديرون بالإكبار لأن أحدهم يقف محصوراً بين لفظ قد ضيق مجاله وحذف أكثره وقل عدده وخطر معظمه ومعان قد أخذ عفوها وسبق إلى جيدها (٢) ومع ذلك جاء المحدثون بالشعر الرائع البديع .

هذا جانب من جوانب النقد عند القاضي وهو جانب يقوم على العلم والإنصاف وعدم التعصب ، أما الجانب الآخر فيقوم على الذوق والتأثر والانطباع وهو ركن أساسي في النقد لا يمكن إغفاله ، وقد اعتمد على هذا الركن كما اعتمد على الآخر وقاس الجودة بمقدار ما يحدثه الأثر الأدبي في النفس ، وقاس الرداءة بمدى نبو القلب ونفوره منه . وفي كتابه صفحة بديعة توضح هذا الموقف وتلقي عليه الضوء ، قال متحدثاً عن مواقع الكلام : « وهذا أمر تستخبر به النفوس المهذبة وتستشهد عليه الأذهان المثقفة وإنما الكلام أصوات محلها من الأسماع محل النواظر من الإبصار. وأنت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن وتستوفي أوصاف الكمال وتذهب في الأنفس كل مذهب وتقف من التمام بكل طريق ثم تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن والتئام الخلقة وتناصف الأجزاء وتقابل

---

(١) الوساطة ص ١٠ .

(٢) الوساطة ص ٥٢ .

الأقسام وهي أحظى بالحلاوة وأدنى إلى القبول وأعلق بالنفس وأسرع ممازجة للقلب ثم لا تعلم وإن قايست واعتبرت ونظرت وفكرت لهذه المزية سبباً ولما خصت به مقتضياً . ولو قيل لك : كيف صارت هذه الصورة وهي مقصورة عن الأولى في الأحكام والصنعة وفي الترتيب والصيغة وفيما يجمع أوصاف الكمال وينتظم أسباب الاختيار أحلى وأرشق وأحظى وأوقع ؟ لأقمت السائل مقام المتعنت المتجانف ورددته رد المستبهم الجاهل ولكان أقصى ما في وسعك وغاية ما عندك أن تقول : موقعه في القلب ألطف وهو بالطبع أليق . ولم تعدم مع هذه الحال معارضاً يقول لك : فما عبت من هذه الأخرى ؟ وأي وجه عدل بك عنها ؟ ألم يجتمع لها كيت وكيت وتتكامل فيها ذيه وذيه ؟ وهل للطاعن إليها طريق ؟ وهل فيها لغامز مغمز يحاجك بظاهر تحسه النواظر وأنت تحيله على باطن تحصله الضمائر .

كذلك الكلام منثوره ومنظومه ومجمله ومفصله تجد منه المحكم الوثيق والجزل القوي والمصنع المحكم والمنمق الموشح قد هذب كل التهذيب وثقف غاية التثقيف وجهد فيه الفكر وأتعب لأجله الخاطر حتى احتمى ببراءته عن المعائب واحتجر بصحته عن المطاعن ثم تجد لفؤادك عنه نبوة وترى بينه وبين ضميرك فجوة فإن خلص إليهما فبأن يسهل بعض الوسائل اذنه ويمهد عندهما حاله فأما بنفسه وجوهره وبمكانه وموقعه فلا .

هذا قولي فيما صفا وخلص وهذب ونقح فلم يوجد في معناه خلل ولا في لفظه دخل ، فإما المختل المعيب والفاسد المضطرب فله وجهان : أحدهما : ظاهر يشترك في معرفته ويقل التفاضل في علمه ، وهو ما كان اختلاله وفساده من باب اللحن والخطأ من ناحية الإعراب واللغة . وأظهر من هذا ما عرض له ذلك من قبل الوزن والذوق فإن العامي قد يميز بذوقه الأعاريض والأضرب ويفصل بطبعه بين الأجناس والأبحر ويظهر له الانكسار البين والزحاف السائغ .

والآخر : غامض يوصل إلى بعضه بالرواية ويوقف على بعضه بالدراية

ويحتاج في كثير منه إلى دقة الفطنة وصفاء القريحة ولطف الفكر وبعد الغوص وملاك ذلك كله وتمامه الجامع له والزمام عليه صحة الطبع وإدمان الرياضة فإنهما أمران ما اجتمعا في شخص فقصرا في إيصال صاحبهما عن غايته ورضيا له بدون نهايته » . (١)

وفي كتاب الوساطة كثير من النقد غير المعلل القائم على الذوق والتأثر ، من ذلك تعليقه على أبيات البحتري :

أجِـدَّك مـا ينفـك يَسْري لزينبـا ... خيـالٌ إذا آب الظلامُ تأوَّبَـا
سرى من أعالي الشَّام يجلُبـه الكَـرَى ... هبوبَ نسيم الروض تجلبه الصَّبا
ومـا زارنـي إلاَّ وَلِـهْـتُ صبـابـةً ... إليـه وإلاَّ قُلْـتُ : أهلاً ومرحبا
ولـيـلتنـا بالجَـزْعِ بـات مساعفـاً ... يُـريني أنـاةَ الخَطْـوِ ناعمةَ الصِّبا
أَضَرَّتْ بـضوءِ البـدْرِ والبـدْرُ طالـعٌ ... وقـامَتْ مقـامَ البـدر لَمّا تغيبا
ولـوكـان حقـاً مـا أتـاه لأَطفأتْ ... غليـلاً ولَافتكَّـتْ أسيراً مُعَذَّبـا
عَـلِمْتُـكِ إنْ مَنّيـتِ مَنّيـتِ مَوعداً ... جَهاماً وإنْ أبْرقْتِ أبْرقْتِ خُلَّبـا
وكنتُ أَرى أنَّ الصدودَ الذي مَضَى ... دَلالاً فما إنْ كـان إلا تَجنُّبـا
فـوا أسفـي حَتَّـام أسألُ مانعـاً ... وآمـنُ خوّانـاً وأعتِـبُ مُذْنِبَـا
سأثنـي فـؤادي عنك أو أتبع الهوى ... إليـك إن استعفـى فؤاديَ أو أبَـى

قال : « ثم انظر هل تجد معنى مبتذلاً ولفظاً مشتهراً مستعملاً ؟ وهل ترى صنعة وإبداعاً أو تدقيقاً أو إغراباً ؟ ثم تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده وتفقد ما يتداخلك من الارتياح ويستخفك من الطرب إذا سمعته وتذكر صبوة إن كانت لك تراها ممثلة لضميرك ومصورة تلقاء ناظرك . فإن قلت : هذا نسيب والنفس تهش له والقلب يعلق به والهوى يسرع إليه فانشد له في المديح قوله :

بلـونـا ضرائِـبَ مَـنْ قَـدْ نَـرى ... فما إنْ وَجَدْنـا لفتـحٍ ضريبا (٢)

(١) الوساطة ص ٤١٢ .
(٢) الوساطة ص ٢٧ .

ووازن بين أبيات لأبي تمام وأخرى لبعض الأعراب ، فرأى أنّ في أبيات الأول صنعة لطيفة وفي أبيات الثاني طبعاً وسلاسة ورقة تفضي إلى سورة الطرب وراحة النفس (١) . وقال عن أبيات للسري الموصلي : « فقد جاءك الحسن والإحسان وقد أصبت ما أردت من احكام الصنعة وعذوبة اللفظ » وعن أبيات أبي تمام « فإذا سمعت بقول أبي تمام . . . فاسدد مسامعك واستغش ثيابك وإياك والإصغاء إليه واحذر الالتفات نحوه ، فإنه مما يصدىء القلب ويعميه ويطمس البصيرة ويكد القريحة » . (٢) وقال عن أبيات لأبي نواس : « ومن سلك هذا المسلك من شعره فقد صافح السماء وتناول النجوم » . (٣)

وقرر بعد أن ذكر كثيراً من الأمثلة أن « الشعر لا يحبب إلى النفوس بالنظر والمحاجة ولا يحلى في الصدور بالجدال والمقايسة وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ويقربه منها الرونق والحلاوة ، وقد يكون الشيء متقناً محكماً ولا يكون حلواً مقبولاً ويكون جيداً وثيقاً وإن لم يكن لطيفاً رشيقاً . وقد يجد الصورة الحسنة والخلقة التامة مقلية ممقوتة وأخرى دونها مستحلاة موموقة ولكل صناعة أهل يرجع إليهم في خصائصها ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها » . (٤)

وقال : « حدثني جماعة من أهل العلم عن أبي طاهر الحازمي وغيره من شيوخ المصريين عن يونس بن عبد الأعلى قال : « سألت الشافعي ــ رضي الله عنه ــ عن مسألة فقال : إني لأجد بيانها في قلبي ولكن ليس ينطلق به لساني . وما أقرب ما قاله من الصواب وأخلقه بالسداد » . (٥)

وفي هذه الأقوال والأمثلة التي ضربها وعلق عليها توضيح لمسألة مهمة في النقد وهي أن حكم الذوق المصقول المدرب قد لا يعلل وإنما يكون الذوق نفسه

---

(١) الوساطة ص ٣٣ .

(٢) الوساطة ص ٣٩ ــ ٤١ .

(٣) الوساطة ص ٥٨ .

(٤) الوساطة ص ١٠٠ .

(٥) الوساطة ص ٤٣٠ .

مرجعاً في تمييز الجيد من الرديء والصحيح من المنحول .

وقد روى أبياتاً للأُقيشر هي :

جَـرَيْـتُ مـع الصِّبا طَلْـقَ العتيـقِ ... وهـانَ عـليَّ مأثورُ الـفسوقِ
وَجَـدْتُ أَلَـذَّ عـاريةِ الليالـي ... قـرانَ النَّغْـمِ بـالوَتَرِ الخَفوقِ
ومُسْمِعـة إذا مـا شئـتُ غَنَّـتْ ... متـى نـزل الأحبـةُ بالعقيـقِ
تَمَتَّـع مـنْ شبـابٍ لـيس يَبْقَـى ... وَصِلْ بعُرى الصَّبُوحِ عُرى الغبوقِ

وقال : « وأنا أرتاب في أبيات الاقيشر فإنها لا تشبه شعره ولم أرها في ديوانه » (١) . وفي هذه العبارة إشارة إلى الذوق الذي صقلته الدربة ، وإلى النظر في الكتب وآثار السابقين ، وبذلك جمع العلم والذوف في هذا الحكم .

عمود الشعر :

كان القاضي كالآمدي في فهم الشعر لا يخرج على عموده كثيراً . وإذا كان الآمدي قد حام حول هذا العمود وحدده بالصفات السلبية حينما نقد شعر أبي تمام وتكلم على ما فيه من التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام واستكراه المعاني والإبعاد في الاستعارة فإن القاضي حدده ووضعه في صورة إيجابية نقله عنه من جاء بعده كالمرزوقي في مقدمة شرحه للحماسة .

حدد القاضي هذا العمود حينما وازن بين أبيات لأبي تمام وأخرى لبعض الإعراب ، فقد تغزل أبو تمام فقال :

دعني وشُرْبَ الهوى يا شاربَ الكاسِ ... فإننـي للـذي حَسَّيته حـاسِ
لا يوحشنَّكَ ما استعجمت من سَقَمي ... فـإنَّ منزلـه مـن أحسن الناسِ
من قَطْعِ ألفـاظه توصيـلُ مهلكتي ... ووصل ألحاظه تقطيعُ أنفاسي
متـى أعيش بتـأميـلِ الرجـاء إذا ... ماكـان قطع رجائي في يدي ياسي

---

(١) الوساطة ص ١٩٨ .

قال : « فلم يخل بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة طابق وجانس واستعار فأحسن وهي معدودة في المختار من غزله وحق لها ، فقد جمعت على قصرها فنوناً من الحسن وأصنافاً من البديع ، ثم فيها من الاحكام والمتانة والقوة ما تراه ولكنني ما أظنك تجد له من سورة الطرب وارتياح النفس ما تجده لقول بعض الأعراب :

أقول لصاحبي والعيسُ تهوي	بنا بين المنيفةِ فالضمارِ
تَمتَّع من شميم عَرارِ نجدٍ	فما بعد العَشيَّة من عَرار
ألا يا حبَّذا نفحاتُ نَجْدٍ	وريَّا رَوْضِهِ غِبَّ القطارِ
وعيشك إذ يَحُلُّ القومُ نجداً	وأنت على زمانك غيرُ زارِ
شهورٌ يَنْقضين وما شَعَرنا	بأنصافٍ لهنَّ ولا سِرارِ
فأمَّا ليلُهُنَّ فخيرُ ليلٍ	وأقصر ما يكونُ من النَّهارِ

فهو كما تراه بعيد عن الصنعة ، فارغ الألفاظ ، سهل المأخذ ، قريب التناول » .

ثم حدد عمود الشعر بقوله : « وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبده فأغزر ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض » . (١) ولذلك رأى في أبيات الاعرابي ما لم يره في أبيات أبي تمام لأنها أصابت وتراً من أوتار قلبه وهزته هزاً .

عناصر الإبداع :

من القضايا المهمة التي عالجها عناصر الإبداع الفني وهي عنده أربعة : اثنان يولدان مع الأديب هما الطبع والذكاء ، واثنان يكتسبان هما الرواية والدربة .

---

(١) الوساطة ص ٣٢ ـ ٣٤ .

وقد حددهما بقوله : « أنا أقول ـ أيدك الله ـ إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان . ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد ، إلا أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر . فإذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية ولا طريق للرواية إلا السمع ، وملاك الرواية الحفظ وقد كانت العرب تروي وتحفظ ويعرف بعضها برواية شعر بعض . كما قيل : أن زهيراً كان راوية أوس وان الحطيئة راوية زهير وان أبا ذُؤيب راوية ساعدة بن جويرية . فبلغ هؤلاء في الشعر حيث تراهم وكان عبيد راوية الأعشى ولم تسمع له كلمة تامة كما لم يسمع لحسين راوية جرير ، ومحمد بن سهل راوية الكميت ، والسائب راوية كثير . غير أنها كانت بالطبع أشد ثقة وإليه أكثر استئناساً وأنت تعلم أن العرب مشتركة في اللغة واللسان وإنها سواء في المنطق والعبارة وإنما تفضل القبيلة أختها بشيء من الفصاحة ثم تجد الرجل منها شاعراً مفلقاً وابن عمه وجار جنابه ولصيق طنبه مفحماً ، وتجد فيها الشاعر أشعر من الشاعر والخطيب أبلغ من الخطيب فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحدة القريحة والفطنة ؟ وهذه أمور عامة في جنس البشر لا تخصيص لها بالأعصار ولا يتصف بها دهر دون دهر » . (١)

وملاك الأمر عنده في الشعر « ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به » ولا يعنى بهذا كل طبع « بل المهذب الذي قد صقله الأدب وشحذته الرواية وجلته الفطنة وأُلهم الفصل بين الرديء والجيد وتصور أمثلة الحسن والقبح » . (٢)

ويرى الأستاذ خلف الله أن بناء الجمال الشعري على عنصر الطبع وتحكيم

(١) الوساطة ص ١٥ ـ ١٦ .
(٢) الوساطة ص ٢٥ .

هده الفكرة في الفصل بين الشعراء لا يتنفي غلة الباحث الحديث في الموضوع . فإن من الشعر ما يجيء نتيجة جهد عقلي وذهني ويكون له على قدر هذا الجهد وقع خاص في بعض النفوس على الأقل على شريطة أن لا يثقل الجهد كأهل الصياغة فلا تنكشف ملاحتها لسامعها أو قارئها إلا بعد عناء في الفهم كبير . (١)

وهذا صحيح ولكن القاضي الجرجاني بنى أحكامه النقدية على عمود الشعر الذي كان الطبع أعظم أركانه .

الشعر ·

تحدث القاضي عن رقة الشعر وصلابته وأرجع ذلك إلى ثلاثة أمور : اختلاف الطبائع . والبيئة . والعرض أو الموضوع .

ويريد بالطبائع المزاج النفسي ، وقد لاحظ ان القوم كانوا يختلفون في دلك وتتباين فيه أحوالهم فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق « فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة . وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافي الجلف منهم كز الألفاظ معقد الكلام وعر الخطاب حتى انك ربما وجدت الفاظه في صوته ونغمته وفي جرسه ولهجته . ومن شأن البداوة ان تحدث بعض ذلك ولأجله قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من بدا جفا » ولذلك تجد شعر عدي وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان لملازمة عدي الحاضرة وايطانه الريف وبعده عن جلافة البدو وجفاء الاعراب . وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم والغزل المتهالك فان اتفقت لك الدماثة والصبابة وانضاف الطبع إلى الغزل فقد جمعت لك الرقة من أطرافها » . (٢)

وللبيئة وتطور الزمن أثر في الشعر فنرى البداوة تضفي على اللغة خشونة كما

(١) الادب الاسلامي ص ١٥٢ .

(٢) الوساطة ص ١٨ .

حدث للشعراء الذين سكنوا البادية ولبعضهم ممن جاور البدو والاعراب . ونرى الحضارة ترققها وتجعلها سلسة يقبلها ذوق الحضري . وقد حدث هذا للغة العربية بعد أن دخلت الحضارة والترف مجتمعهم وإلى ذلك أشار القاضي بقوله : « فلما ضرب الإسلام بجرانه واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت البوادي إلى القرى وفشا التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة واختاروا أحسنها سمعاً وألطفها من القلب موقعاً وإلى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها واشرفها كما رأيتهم يختصرون الفاظ الطويل فانهم وجدوا للعرب فيه نحواً من ستين لفظة وأكثرها بشع شنع كالعشنط والعنطنط والعنشق والجسرب والشوقب والسلهب والشوذب والطاط والطوط والقاق والقوق فنبذوا جميع ذلك وتركوه واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان وقلة نبو السمع عنه وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل حتى تسمحوا ببعض اللحن وحتى خالطتهم الركاكة والعجمة وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق فانتقلت العادة وتغير الرسم وانتسخت هذه السنة واحتذوا بشعرهم هذا المثال وترققوا ما أمكن وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللين فيظن ضعفاً فإذا أفرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقاً وصار ما تخيلته ضعفاً رشاقة ولطفاً فإن رام أحدهم الاغراب والاقتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما يرومه الا بأشد تكلف وأتم تصنع . ومع التكلف المقت وللنفس عن التصنع نفرة وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق واخلاق الديباجة » . (١)

والغرض أو الموضوع يحدد لغة الشعر ، ولذلك نرى الفاظ الغزل تختلف عن الفاظ الحماسة ، والفاظ العتاب تختلف عن الفاظ الهجاء وغير ذلك . وقد أوضح القاضي ذلك بقوله : « ومتى سمعتني اختار للمحدث هذا الاختيار وابعثه على الطبع وأحسن له التسهيل فلا تظنن اني أريد بالسمح السهل الضعيف الركيك ولا باللطيف الرشيق الخنث المؤنث بل أريد النمط الأوسط ما ارتفع عن الساقط

(١) الوساطة ص ١٨ .

السوقي وانحط عن البدوي الوحشي وما جاوز سفسفة نصر ونظرائه ولم يبلغ تعجرف هميان بن فحافة وأضرابه . نعم ولا آمرك باجراء أنواع الشعر كله مجرى واحداً ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه . بل أرى لك ان تقسم الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك ولا مديحك كوعيدك ولا هجاؤك كاستبطائك ولا هزلك بمنزلة جدك ولا تعريضك مثل تصريحك . بل ترتب كلا مرتبته وتوفيه حقه فتلطف إذا تغزلت وتفخم إذا افتخرت وتتصرف للمديح تصرف مواقعه . فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به وطريق لا يشاركه الآخر فيه . وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة ولا بمختص بالنظم دون النثر بل ـ يجب ان يكون كتابك في الفتح أو الوعيد خلاف كتابك في التشوق والتهنئة واقتضاء المواصلة وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنيت . فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت . وما اعترض بين التصريح والتعريض وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس فأما القذف والافحاش فسباب محض وليس للشاعر فيه الا إقامة الوزن وتصحيح النظم » . (١)

واهتم بدراسة الألفاظ وأثرها في النفس فقال : « وإذا أردْتَ أنْ تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب وعظم غنائه في تحسين الشعر فتصفح شعر جرير وذي الرمة في القدماء والبحتري في المتأخرين وتتبع نسيب متيمي العرب ومتغزلي أهل الحجاز كعمر وكثير وجميل ونصيب واضرابهم وقسهم بمن هو أجود منهم شعراً وأفصح لفظاً وسبكاً ثم انظر واحكم وأنصف ودعني من قولك « هل زاد على كذا « و » هل قال الا ما قاله فلان « فان روعة اللفظ تسبق بك إلى الحكم وإنما تفضي إلى المعنى عند التفتيش والكشف . » (٢) إنَّ الشعر الحسن عنده ما خلا من المعاني المبتذلة واللفظ المستعمل والصنعة والبديع والتدقيق والاغراب وما بعت

(١) الوساطة ص ٢٤ .
(٢) الوساطة ص ٢٥ .

في النفس عند انشاده ارتياحاً وطرباً . أمّا ما يكرهه في الشعر فالتكلف والتصنع فان « مع التكلف المقت وللنفس عن التصنع نفرة . وفي مفارقة الطبع فلة الحلاوة وذهاب الرونق واخلاق الديباجة » . [1] وربما كان ذلك سبباً لطمس المحاسن كالذي نجده كثيراً في شعر أبي تمام فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالاوائل في كثير من الفاظه فحصل منه على توعير اللفظ فقبح في غير موضع من شعره فقال :

فكأنّمـا هي في السماع جنـادِلٌ   وكأنّما هي في القلـوب كواكِبُ

فتعسف ما أمكن وتغلغل في التصعب كيف قدر ثم لم يرض بذلك حتى أضاف اليه طلب البديع فتحمله من كل وجه وتوصل اليه بكل سبب ولم يرضَ بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعاني الغامضة وقصد الأغراض الخفية فاحتمل فيها كل غث ثقيل وأرصد لها الأفكار بكل سبيل فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد اتعاب الفكر وكد الخاطر والحمل على القريحة فان ظفر به فذلك من بعد العناء والمشقة وحين حسره الأعياء وأوهن قوته الكلال وتلك حال لا تهش فيها النفس للاستماع بحسن أو الالتذاذ بمستظرف وهذه جريرة التكلف. وأحس القاضي بأنه أسرف في نقد الشاعر فقال : « ولست أقول هذا غضاً من أبي تمام ولا تهجينا لشعره ولا عصبية عليه لغيره ، فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديمه وانتحل موالاته وتعظيمه وأراه قبلة أصحاب المعاني وقدوة أهل البديع ، لكن ما سمعتني اشترطه في صدر هذه الرسالة انه يحظر إلا اتباع الحق وتحري العدل والحكم به لي أو علي » . [2]

وتحدث عن التعقيد والغموض في الشعر ، وفرّق بين ضربين من الغموض ، غموض سببه غرابة اللفظ بسبب بعد العهد به كاختلاف الناس في قول تميم بن مقبل :

يـا دارَ سلمى خـلاءً لا أكلّفهـا   إلا المـرانةَ حتى تَعْـرِف الدينـا

(1) الوساطة ص ١٩ .

(2) الوساطة ص ١٩ .

فإن الذي خالف بين أقاويلهم فيها هو انهم لم يعرفوا المرانة فقال قائل هي ناتئه وقال آخر هي موضع دار صاحبته وقال آخر إنما أراد الدوام والمرونة . وهذا الضرب من الغموض خارج عن هذا الباب وليس هو المقصود .

وغموض هو المقصود وذلك ما كان في المعنى نفسه مع وضوح الألفاظ كقول الأعشى :

إذا كان هـادي الفتى في البـلا دِ صَدْرُ القنـاة أطـاع الأمـير

فإن هذا البيت كما تراه سليم النظر من التعقيد بعيد اللفظ عن الاستكراه لا تشكل كل كلمة بانفرادها على أدنى العامة . فاذا أردت الوقوف على مراد الشاعر فمن المحال عندي والممتنع في رأيي ان تصل اليه إلا من شاهد الأعشى بقوله فاستدل بشاهد الحال وفحوى الخطاب . فأمّا أهل زماننا فلا أجيز ان يعرفوه إلا سماعاً إذا اقتصر بهم من الانشاد على هذا البيت المفرد فان تقدموه أو تأخروا عنه بأبيات لم أبعد أن يستدل ببعض الكلام على بعض وإلا فمن يسمع بهذا البيت فيعلم انه يريد : ان الفتى اذا كبر فاحتاج إلى لزوم العصا أطاع لمن يأمره وينهاه واستلم لقائده وذهبت شرته . (١) وليس في شعر المتنبي غموض يزيد على هذا الغموض .

ومما يفسد الشعر أيضاً الحشو كقول امرىء القيس :

تُصِدُّ وتُبْـدي عن أسيل وتتقـي بنـاظرةٍ من وَحْشِ وَجْرَةَ مُطفِلِ

وقول عَدي بن الرقاع :

وكـأنَّها بين النسـاء أعـارهـا عينيـه احـور مـن جآذرِ جاسِمِ

وهما بيتان جميلان ولكن أفسدهما ما تخلل كل واحد منهما من حشو الكلام ما لو حذف لاستغني عنه وما لا فائدة في ذكره ، لأن امرأ القيس قال « من وحش

(١) الوساطة ص ٤١٧ ـ ٤١٨ .

وجرة » وعدياً قال : « من جآذر جاسم » ولم يذكرا هذين الموضعين الا استعانة بهما في إتمام النظم وإقامة الوزن [١] .

البديع :

كان القاضي الجرجاني حريصاً على روح البلاغة حينما تحدث عن شعر المتنبي ، ولكنه لم يؤرخ لكل فن من فنونها وإنما تحدث عن البديع عامة في أول كتابه فقال : « وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا موقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن وتميزها عن اخواتها في الرشاقة واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع ، فمن محسن ومسيء ومحمود ومذموم ومقتصد ومفرط » . [٢]

والبديع عنده ليس غاية وإنما وسيلة الى فهم الشعر ونقده ولذلك لم يتحدث عن فنونه طويلا كما فعل البلاغيون ، واعتذر عن ذلك بمثل قوله عندما تحدث عن المطابقة : « ولاستقصائها موضع هو أملك به . ولم نفتح هذا الكلام وقصدنا ما جرى بنا القول اليه لكن الحديث شجون وربما احتاج الشيء إلى غيره فذكر لأجله وربما اتصل بما هو أجنبي منه فاستصحبه » . [٣] وقال : « وقد يمتنع بعض الأدباء من تسمية بعض ما ذكرناه بديعاً ، لكنه أحد أبواب الصنعة ومعدود في حلى الشعر وله أشباه تجري مجراه وتذكر معه كالالتفات والتوصل وغيرهما ولو أقبلنا على استيعابها وتمييز ضروبها وأصنافها لاحتجنا إلى اتباع كل ما يقتضيه من شاهد وبيان ومثال . لو فعلنا ذلك لبخسنا أبا الطيب حقه وافتتحنا الكتاب بذكره ثم شغلنا معظمه بغيره . وإنما قدمنا هذا النبذ توطئة لما نذكره على أثره وتدريجاً إلى ما بعده ليكون كالشاهد المقبول قوله وبمنزلة المسلم أمره » . [٤]

(١) الوساطة ص ٣٢ .
(٢) الوساطة ص ٣٤ .
(٣) الوساطة ص ٤٤ .
(٤) الوساطة ص ٤٨ .

ويتضح من تعليقه على الشعر وكلامه على الصنعة والتكلف والطبع أنه لا يميل إلى البديع . ولذلك يفضل الشعر المطبوع على المصنوع كما في تعليقه على أبيات أبي تمام :

دَعْني وشُرْبَ الهوى يا شارب الكاسِ فـانّني للـذي حَسَّيتـه حاسـي

وأبيات بعض الاعراب :

أقـول لصـاحبي والعيسُ تَهْـوي بنـا بين المُنيفـةِ فـالضمـارِ

فأبيات أبي تمام مع ما فيها من جودة غير ان البديع والتصنع سمتها ، في حين أنَّ الأبيات الأخرى بعيدة عن الصنعة ، ومن هنا وجد لها من سورة الطرب وارتياح النفس ما لم يجده في أبيات أبي تمام التي أعجب بها إعجاباً عقلياً .

والفنون البلاغية التي ذكرها في كتابه واستعان بها في نقده :

١ ــ الاستعارة :

الاستعارة عنده « أحد أعمدة الكلام وعليها المعول في التوسع والتصرف وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر » . [(١)] وعرفها بقوله : « وإنما الاستعارة ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها . وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ولا يتبين في أحدهما اعراض عن الآخر » . [(٢)] وهذا هو الفرق بينها وبين التشبيه الذي يقوم على ربط شيء بشيء كبيت أبي نواس :

والحُبُّ ظَهْـرٌ أنـت راكبُـه فـإذا صَرَفْـتَ عنـانَـه انصرفَـا

ولا يرى هذا وما أشبهه استعارة ، لأن معناه ان الحب مثل ظهر أو الحب

---

(١) الوساطة ص ٤٢٨ .

(٢) الوساطة ص ٤١ .

كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ، فهواما ضرب مثل أوتشبيه شيء بشيء .

ومن الاستعارة الحسن كقول زهير :

صحا القَلْبُ عن سَلمى وأقصر باطِلُه ... وعُرّي أفراسُ الصِّبا ورواحِلُه

وقول لبيد :

وغداة ريح قد وَزَعت وقَرّةٍ ... إذ أصبحت بيدِ الشمال زمامُها

وقول ابن الطثرية :

أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا ... وسالت بأعناقِ المَطيّ الأباطحُ

ومنها السيىء كقول أبي تمام :

باشرت أسباب الغنى بمدائِحٍ ... ضَرَبَتْ بأبواب الملوك طبولا

وقوله :

يا دَهْرُ قَوِّمْ مِن أخدعيك فقد ... أضججْتَ هذا الأنامَ من خُرُقِك

وقول أبي نواس :

يا عمرو أضحت مبيضة كبدي ... فاصبغ بياضاً بعصفر العنب

فإذا سمعت هذا « فاسدد مسامعك واستغش ثيابك واياك والاصغاء اليه واحذر الالتفات نحوه فإنه مما يصدىء القلب ويعميه ويطمس البصيرة ويكد القريحة » . (١)

وتحدث عن الافراط في الاستعارة التي استرسل فيها أبو تمام ومال إلى الرخصة فأخرجه إلى التعدي وتبعه أكثر المُحْدَثين فوقفوا عند مراتبهم من الإحسان والاساءة

(١) الوساطة ص ٤١ .

والتقصير والاصابة . وعلق على بعض الإستعارات التي فيها افراط بقوله : «وهذه أمور قد حملت على التحقيق وطلب فيها محض التقويم أخرجت عن طريقة الشعر ، ومتى أتبع فيها الرخص وأجريت على المسامحة أدت إلى فساد اللغة واختلاط الكلام وإنما القصد فيها التوسط والاجتزاء بما قرب وعرف والاقتصار على ما ظهر ووضح » . (١)

وكلام القاضي على الاستعارة فيه تفصيل وإيضاح ، ومما دفعه إلى ذلك أنها فن أصيل في شعر المتنبي إلى جانب أنها أحد أعمدة الكلام وعليها المعـول في التوسع والتصرف ، وبهـا يتوصل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر .

٢ ـ التشبيه :

تحدث عنه حينما تكلم على بعض تشبيهات المتنبي وغيره وأشار إلى أدواته وإلى مذاهب العرب في استعماله كضرب المثل أوتشبيه شيء بشيء أوجعل أحد الشيئين هو الآخر (٢) ، ودكر صوره وقال : « إن التشبيه قد يقع تارة بالصورة والصنعة وأخرى بالحال والطريقة » .

فإذا قال الشاعر وهو يريد إطالة وقوفه : « إني أقف وقوف شحيح ضاع خاتمه » لم يرد التسوية بين الوقوفين في القدر والزمان والصورة وإنما يريد لاقفن وقوفاً زائداً على القدر المعتاد خارجاً عن حد الاعتدال كما ان وقوف الشحيح يزيد على ما يعرف في أمثاله وعلى ما جرت به العادة في اضرابه وإنما هو كقول الشاعر :

رُبَّ ليلٍ أمَدّ مـن نَفَس العـــا ... شِق طـولاً قطعْتُـه بـانتحـابِ

ونحن نعلم أن العاشق بالغاً ما بلغ لا يمتد امتداد أقصر أجزاء الليل وان الساعة الواحدة من ساعاته لا تنقضي إلا عن أنفاس لا تحصى كائنة ما كانت في امتدادها

(١) الوساطة ص ٤٣٣ .
(٢) الوساطة ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ .

وطولها ، وإنما مراد الشاعر ان الليل زائد في الطول على مقادير الليالي كزيادة نفس العاشق على الأنفاس . فهذا وجه لا أرى به بأسا في تصحيح المعنى وان كنت لا أرى أن يؤخذ الشاعر بهذه الدقائق الفلسفية ما لم يأخذ نفسه بها ويتكلف التعمل لها فيؤخذ حينئذ بحكمه ويطالب بما جنى على نفسه » . (١)

وتحدث عن أغراض الشعراء في التشبيه وعن المشبه به يكون شيئاً واحداً ويختلف وجه الشبه باختلاف الغرض ، قال : «وللشعراء في التشبيه أغراض فإذا شبهوا بالشمس في موضع الوصف بالحسن أرادوا به البهاء والرونق والضياء ونصوع اللون والتمام واذا ذكروه في الوصف بالنباهة والشهرة أرادوا به عموم مطلعها وانتشار شعاعها واشتراك الخاص والعام في معرفتها وتعظيمها ، وإذا قرنوه بالجلال والرفعة أرادوا به أنوارها وارتفاع محلها ، وإذا ذكروه في باب النفع والارفاق قصدوا تأثيرها في النشوء والنماء والتحليل والتصفية . ولكل واحد من هذه الوجوه باب مفرد وطريق متميز ، فقد يكون المشبه بالشمس في العلو والنباهة والنفع والجلالة أسود ، وقد يكون منير الفعال كمد اللون واضح الأخلاق كاسف المنظر » . (٢)

٣ ـ الجناس :

لم يتحدث عنه كما تحدث الآمدي لأنه ليس من مذهب المتنبي ، ولكنه ذكر في مقدمة كتابه بعض ألوانه كالمطلق وهو جناس الاشتقاق عند البلاغيين ، ومنه قول أبي تمام :

تطل الطلول الدمع في كل موقف ... وتمثل بالصبر الديار المواثل

وقول البحتري :

صَدقَ الغرابُ لقد رأيْتُ حمولَهم ... بالامسِ تغرب عن جوانب غُرَّبِ

---

(١) الوساطة ص ٤٧١ .

(٢) الوساطة ص ٤٧٤ .

والجناس المستوفي وهو التام كقول أبي تمام :

مـا مـات من كَـرمِ الزمانِ فإنّه   يَحيا لدى يحيى بنِ عبدِاللهِ

ومما أُضيف إلى هذا اللون وخالفه فيه بعض أهل الأدب قول الأعشى :

إن تَسْد الحـوصُ فلم تعدهـم   وعـامرٌ سـاد بني عـامـرِ

فإنه قد جانس بعامر وعامر لان الاول اسم رجل والآخر اسم قبيلة ، وهو يخالف قول الآخر :

قتلنـا بـه خيرَ الضبيعات كُلّهـا   ضبيعة قيس لا ضبيعة أضجما

لأن كلتيهما قبيلتان فكأنما جمع بين رجلين متفقي الاسم .

والناقص كقول الأخنس بن شهاب :

وحامـي لـواءٍ قـد قتلنا وحامـلٍ   لـواءً منعنـا والسيـوفُ شوارعْ

وقول أبي تمام :

يمدّون مـن أيدٍ عواصٍ عواصمٍ   تصول بأسياف قواضٍ قواضب

والمضاف كقول البحتري :

أيـا قمـر التمـام أعنـت ظلمـاً   عليّ تطـاولَ الليـلِ التمـامِ

ومعنى التمام واحد في الأمرين ولو انفرد لم يعد تجنيساً ولكن أحدهما صار موصولاً بالقمر والآخر بالليل فكانا كالمختلفين . [1]

والتصحيف ، وقد عده من أصناف البديع كقول الشاعر :

ولـم يكـن المُغتَـرّ بـالله إذ سَرى   ليعجـز والمعتـزّ بـالله طالِبُـه

---

(١) الوساطة ص ٤١ .

وقال : « وهذا يدخل في بعض الأقسام التي ذكرناها في التجنيس لكن ما أمكن فيه التصحيف فله باب على حياله وجانب يتميز به دون غيره » . [1]

٤ ـ **المطابقة :**

ولم يهتم ببحثها كثيراً لأنها ليست من مذهب المتنبي ، واكتفى بأن قال أن لها شعباً خفية ومكامن تغمض ، وربما التبست بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف . ومن أشهر أقسامها ما جرى مجرى قول دعبل :

لا تعجبي يا سَلْمُ من رَجُلٍ ضحك المشيبُ برأسه فَبكى

وهو ما يسميه البلاغيون طباق الإيجاب . وقد يجيء منه جنس آخر تكون المطابقة فيه بالنفي كقول البحتري :

يُقيّضُ لي من حيثُ لا أعلم الهوى ويسري إليَّ الشوقُ من حيث أعلمُ

وهو طباق السلب .

ومن أغرب ألفاظه وألطف ما وجد منه قول أبي تمام :

مَها الوحش إلاَّ أنَّ هاتا أوانسٌ قنا الخط إلاَّ أنَّ تلك ذوابلُ

فطابق بـ « هاتا » و « تلك » واحدهما للحاضر والآخر للغائب فكانا نقيضين في المعنى وبمنزلة الضدين .

وقد يخلط بالمطابق ما ليس منه كقول كعب بن سعد :

لقد كان أمّا حلْمُه فروّحٌ علينا وأمّا جَهْله فعزيبُ

قال القاضي : « لما رأى الحلم والجهل ومروحاً وعزيباً جعلهما في هذه الجملة ولو ألحقنا ذلك بها لوجب أن نلحق أكثر أصناف التقسيم ولا تسع الخرق فيه حتى يستغرق أكثر الشعر » . [2]

---

(١) الوساطة ص ٤٦ .

(٢) الوساطة ص ٤٦ .

٥ ـ **التقسيم** :

وقد يكون موصولاً كقول زهير :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنـوا ضاربَ حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

فقسم البيت على أحوال الحرب ومراتب اللقاء ثم ألحق بكل قسم ما يليه في المعنى الذي قصده من تفضيل الممدوح فصار موصولاً به مقروناً إليه .

وقد تكون القسمة مطلقة غير مشفوعة كقول النابغة :

فللّـهِ عينـا مـن رأى أهـل قبـة أضَرّ لمـن عـادى وأكثر نافعـا
وأعظـم أحلامـاً وأكـرم سيداً وأفـضل مشفوعـاً إليه وشافعـا

فهذا ضرب من التقطيع على معان مختلفة ولكن القاضي لا يسميه تقسيماً وإن رأى من يطلق له هذه السمة .[1]

٦ ـ **جمع الأوصاف** :

ومما يقارب هذا جمع الأوصاف كقول النابغة :

حديدُ الطَّرْفِ والمنكب والعرقوبِ والقَلْبِ

٧ ـ **الترصيع** :

قال : « وقد يعد فيه التقفية والترصيع كقول امرىء القيس :

والمـاءُ منهمـرٌ والشدُّ منحـدرٌ والقُصْبُ مُضْطَمِرٌ والمَتْنُ مَلْحوب

ثم قال بعد أن ذكر هذه الفنون : « وقد يمتنع بعض الأدباء من تسمية بعض ما ذكرناه بديعاً ولكنه أحد أبواب الصنعة ومعدود في حلى الشعر . وله أشباه تجري مجراه وتذكر معه كالالتفات والتوصل وغيرهما » .[2]

---

(١) الوساطة ص ٤٧

(٢) الوساطة ص ٤٨ .

٨ ـ الاستهلال والتخلص والخاتمة :

من صفات الشاعر الحاذق أنْ يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة ، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء . ولم تكن الأوائل تخصها بفضل مراعاة ، وقد احتذى البحتري على مثالهم إلا في الاستهلال فإنه عني به فاتفقت له فيه المحاسن . فأما أبو تمام والمتنبي فقد ذهبا في التخلص كل مذهب واهتمّا به كل اهتمام واتفق للمتنبي فيه ما بلغ المراد وأحسن وزاد (١) ومن حسن التخلص وحسن الخروج قوله :

حـدق يذمُّ من القواتل غيرهـا ... بدر بـن عمـار بـن اسماعيلا

وقوله :

مَرَّت بنـا بين تربيها فقلتُ لها ... من أين جانس هذا الشادن العربا

فاستضحكتْ ثم قالَتْ كالمغيرِ يَرى ... ليثَ الشرى وهومن عِجلٍ إذا انتسبا

ومن مستكره تخلصه :

أحبـك أو يقولـوا جَرَّ نَمْـلٌ ... ثبيراً وابـن إبـراهيـمَ رِيعـا

ومن حسن ابتداءاته :

أتـراهـا لـكـثرةِ الـعُشَّاقِ ... تَحْسَب الدَّمْعَ خلقةً في المآقي (٢)

ولم يتحدث القاضي عن أهمية هذا الموضوع المتصل بوحدة القصيدة وإنما وقف عند البيت والبيتين مما لا يكشف عن الترابط بين أبيات القصيدة ، وهذه طبيعة بحث النقاد في ذلك العهد .

٩ ـ الغلو والإفراط :

أشار إلى ما في بيت أبي نواس من إحالة :

(١) الوساطة ص ٤٨ .

(٢) الوساطة ص ١٥٢ .

وأخَفْتَ أهْلَ الشِرك حتـى أنَّــه   لتخافُك النُّطَفُ التي لم تُخْلَقِ (١)

وتحدث عن الإفراط وقال : « فإما الإفراط فمذهب عام في المُحْدثين وموجود كثير في الأوائل . والناس مختلفون فمستحسن قابل ومستقبح راد . وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية وأدته الحال إلى الإحالة وإنما الإحالة نتيجة الإفراط وشعبة من الاغراق . والباب واحد ولكن له درج ومراتب . فإذا سمع المحدث قول الأول :

ألا إنّمـا غـادرت يـا أمَ مالــكٍ   صدى أينما تذهبْ به الريحُ يذهبِ

وقول آخر من المتقدمين :

ولوأنَّ مـا أبقيـت مـني معلــقٌ   بعـود ثمـامٍ ما تأوَّدَ عودُهـا

جسر على أن يقول :

أُسَرُّ إذا نَحِلْـتُ وذاب جسمـي   لعلَّ الريـحَ تسفي بـي إليـه

واستحسن غيره أن يقول :

ذابَ فلو زُجَّ بـجُسمـانِــه   في نـاظرِ الوسنـان لم يَنْتَبِـه

وسهل لأبي الطيب الطريق فقال :

ولو قَلَـمٌ أُلقيـتُ فـي شَقّ رأسِه   من السُّقْمِ ما غيرَّت من خط كاتبِ

وقال :

كفى بجسمـي نحـولاً إنني رَجُـل   لولا مخاطبتي إيّاك لم تَـرَنـي (٢)

---

(١) الوساطة ص ٦٢ .

(٢) الوساطة ص ٤٢٠ .

وتحدث عن الإفراط في الاستعارة وانتهى إلى أن الغلو والإفراط صنعة مشتركة بين الشعراء ، وآثر التوسط والاجتزاء بما قرب وعرف والاقتصار على ما ظهر ووضح ، [1] وهو مذهب العرب .

السرقة :

بحث النقاد والبلاغيون السرقات قبل القاضي ووضعوا لها القواعد والأصول . وكان الآمدي معاصره ممن عني بها عناية كبيرة وقرر أنها لا يخلو منها أحد ولذلك فهي ليست من العيوب الكبيرة .

والسرقات عند القاضي موضوع خطر لا يقدر عليه ولا ينهض به إلا الناقد البصير والعالم المبرز ، وليس كل من تعرض له أدركه ولا كل من أدركه استوفاه وأكمله [2] ، وهي داء قديم ، قال : « والسرق ـ أيدك الله ـ داء قديم وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه » . [3] ثم قال بعد ذلك معتذراً لمن يعتمد على غيره من أهل زمانه أو الذين يأتون بعده : « ومتى انصفت علمت أن أهل عصرنا ثم العصر الذي بعدنا أقرب فيه إلى المعذرة وأبعد من المذمة لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها وإنما يحصل على بقايا إما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها أو لبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذر الوصول إليها . ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً ونظم بيت يحسبه فرداً مخترعاً ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه أو يجد له مثالاً يغض من حسنه . ولهذا السبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيري بت الحكم على شاعر بالسرقة . وقد أحسن أحمد بن أبي طاهر في محاجة البحتري لما ادعى عليه السرق قوله :

(١) الوساطة ص ٤٣٣ .

(٢) الوساطة ص ١٨٣ .

(٣) الوساطة ص ٢١٤ .

والشعر ظَهْرُ طريقٍ أنت راكبه | فمنه منشعبٌ أو غيرُ منشعبِ
وربما ضَمَّ بين الركب منهجه | وألصق الطُّنُبَ العالي على الطُّنُبِ

إلا أني إذا وجدت في شعره معاني كثيرة أجدها لغيره حكمت بأن فيها مأخوذاً لا أثبته بعينه ومسروقاً لا يتميز لي من غيره ، وإنما أقول : قال فلان كذا وقد سبقه إليه فلان فقال كذا فأغتنم به فضيلة الصدق وأسلم من اقتحام التهور » .

وذكر مثل هذا في سرقات البحتري وأبي تمام ، قال : « ومتى طالعت ما أخرجه أحمد بن أبي طاهر وأحمد بن عمار من سرقات أبي تمام وتتبعه بشر بن يحيى على البحتري ومهلهل بن يموت على أبي نواس عرفت آثار الهوى وازداد الإنصاف في عينيك حسناً » . (1)

والقاضي في هذه الأسس العامة يريد أن يدفع عن المتنبي تهمة السرقة التي لم ينج شاعر منها . وإن كان في كتابه يحاول أن يقف عند المعاني المبتكرة له ولغيره من الشعراء وبذلك هدم قاعدته التي قال فيها : « من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها » ، وكان لا بد أن يخرج على هذه القاعدة بعد أن وجد الكثير من المعاني المبتكرة .

وإذا ما تركنا هذه الأسس العامة وجدناه يفصِّل القول في السرقات ويحدد أنواعها بقوله : « ولست تعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتحيط علماً برتبه ومنازله فتفصل بين السرق والغصب ، وبين الإغارة والاختلاس ، وتعرف الإلمام من الملاحظة وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرق فيه ، والمبتذل الذي ليس أحد أولى به ، وبين المختص الذي حازه المبتدىء فملكه وأحياه السابق فاقتطعه فصار المعتدي مختلساً سارقاً والمشارك له محتذياً تابعاً وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه : أخذ ونقل ، والكلمة التي

---

(1) الوساطة ص ٢٠٩ .

يصح أن يقال فيها : هي لفلان دون فلان » . (١)

وأكمل هذه الألوان من السرقات بأخرى هي : القلب ويعتبره من لطيف السرق كقول المتنبي :

أأحبه وأحب فيه ملامةً ... إنَّ الملامةَ فيه من أَعْدائِهِ

إنما نقض قول أبي الشيص :

أجد الملامةَ في هواكَ لذيذةً ... حباً لذكرك فليلُمْني اللُّوَّمُ (٢)

والقل . وهو نقل المعنى من غرض إلى آخر ، قال : « وحتى لا يغرك من البيتين المتشابهين أن يكون أحدهما نسيباً والآخر مديحاً وأن يكون هذا هجاءاً وذاك افتخاراً . فإن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به نوعه وصنفه عن وزنه ونظمه وعن رويه وقافيته فإذا مر بالغبي الغفل وجدهما أجنبيين متباعدين وإذا تأملهما الفطن الذكي عرف قرابة ما بينهما والصلة التي تجمعهما . قال كثير :

أريدُ لأنْسَى ذِكرها فكأنَّما ... تَمَثَّلُ لي ليلى بكل سَبيلِ

وقال أبو نواس :

ملك تَصَوَّر في القلوب مثالُه ... فكأنَّه لم يَخْلُ منه مكانُ

فلم يشك عالم في أن أحدهما من الآخر وإن كان الأول نسيباً والثاني مديحاً » . (٣)

والمواضع التي تمتنع السرقة فيها هي :

١ ــ المعاني المشتركة التي لا ينفرد بها شاعر دون شاعر فإن حسن الشمس

---

(١) الوساطة ص ١٨٣ .

(٢) الوساطة ص ٢٠٦

(٣) الوساطة ص ٢٠٤ ، وتنظر ص ٢١٤ .

والقمر ومضاء السيف وبلادة الحمار وجود الغيث وحيرة المخبول ونحو ذلك مقرر في البداية ، وهو مركب في النفس تركيب الخلقة .

٢ ــ والمعاني المخترعة التي استفاضت على ألسن الشعراء حتى صارت كالمعاني المشتركة كما في تمثيل الطلل بالكتاب والبرد والفتاة بالغزال في جيدها وعينيها والمهاة في حسنها وصفائها ، وأسماء المواضع والألفاظ المشهورة وما يأتي عفواً من قبيل توارد الخواطر . (١)

وإذا كانت المعاني المشتركة والمعاني المتداولة لا تقع السرقة فيهما فإن الشعراء يتفاضلون في عرضها قال : « وقد يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصنعة الشعر فتشترك الجماعة في الشيء المتداول وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أو ترتيب يستحسن أو تأكيد يوضع موضعه أو زيادة اهتدى لها دون غيره فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع » (٢) كما قال لبيد :

وجلا السيولُ عن الطلول كأنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها

فأدى إليك المعنى الذي تداولته الشعراء .

وهذه هي السرقة الممدوحة عنده « ومتى جاءت السرقة هذا المجيء لم تعد من المعايب ولم تحص في جملة المثالب وكان صاحبها بالتفضيل أحق وبالمدح والتزكية أولى » ، (٣) ومواطنها كما تحدث عنها في كتابه :

١ ــ الزيادة : مثال ذلك أن العباس بن الاحنف قال :

بكت غيرَ آنسةٍ بالبكا ترى الدمعَ في مقلتيها غَريبا

وقال المتنبي :

أتتهن المصائبُ غافلاتٍ فدمعُ الحزنِ في دمع الدلالِ

(١) الوساطة ص ١٨٥ ، ٢١٠ .
(٢) الوساطة ص ١٨٦ .
(٣) الوساطة ص ١٨٨

« فزاد وأحسن وملح بذكر الدلال » . (١)

٢ ـ والاختصار : كبيت أبي دهبل الجمحي :

وكيف أنساكَ لا أيديـك واحـدةٌ   عندي ولا بالذي أوْليتَ من قِدَم

وهو من قول النابغة :

أبـى غفلتي أني إذا مـا ذكرتُـه   تقطّع حزنٌ في حشا الجوفِ داخِلُ
وأنَّ تِـلادي إنْ نظـرت وشِكَّتي   ومُهْـري وما ضمت اليَّ الأنامِلُ
حبـاؤك والعيسُ العِتـاقُ كأنَّـا   هِجانُ المها تُرْدَى عليها الرحائِلُ

« فإذا أنصفت أبا دهبل عرفت فضله وشهدت له بالإحسان ، لأنه جمع هذا الكلام الطويل في « لا أيديك واحدة عندي » ثم أضاف إليه : « ولا بالذي أوليت من قدم » فتم المعنى وأكده أحسن تأكيد ، لأن الأمور العظيمة قد تنسى إذا طال أمدها وتقادم عهدها فنفى وجوه النسيان كلها ، وقد اختصر النابغة أبياته هذه في بيت من كلمة أخرى فقال :

ومـا أغفلـتُ شكرك فانتصحني   فكيف ومـن عطائك جُلُّ مالي

فأحسن وزاد على أبي دهبل بأن جعل جل ماله من عطائه واقتصر أبو دهبل على تتابع الأيادي وقد تصغر وقد تكبر لكنه انفرد بالمصراع الثاني فحصل له زيادة لا تقصر عن معنى منفرد » . (٢)

٣ ـ القلب . ٤ ـ النقل . وهما ما أشرنا إليهما .

أما السرقة المذمومة فهي نوعان :

١ ـ سرقة ظاهرة تكون في اللفظ والمعنى ، وهي أسوأ الأنواع ، قال :

---

(١) الوساطة ص ٢٢٨ .
(٢) الوساطة ص ١٨٩ .

« ومتى أحكمت هذا الباب حق الاحكام وأوليته حسن التمييز فقد القيت عن نفسك ثقلاً وكفيتها مؤونة ولم يبق عليك إلا أن تحترس من التفريط كما احترست من الافراط . فلا تكن كمن يرى السرق لا يتم إلا باجتماع اللفظ والمعنى ونقل البيت جملة والمصراع تاماً ، بل لا يعرف السارق إلا من يفعل فعل عبد الله بن الزبير بأبيات معن بن أوس. حكى أبو عبيدة وغيره أن عبد الله بن الزبير دخل على معاوية فأنشده لنفسه :

إذا أنت لم تُنصف أخاكَ وجدتـه ... على طرف الهجرانِ إنْ كان يَعْقِلُ
ويركب حدَّ السيف من أنْ تضيمه ... إذا لم يكن عن شفرةِ السيف مَزْحَلْ

فقال له معاوية : لقد شعرت بعدي يا أبا بكر . ولم يفارق عبد الله المجلس حتى دخل معن بن أوس المزني فأنشده كلمته التي أولها :

لعمرك مـا أدري وإني لأوجـل ... عـلى أيّنـا تعـدو المنيّـةُ أوّلُ

حتى أتى عليها وهذه الأبيات فيها . فأقبل معاوية على عبد الله بن الزبير فقال : ألم تخبرني أنها لك ؟ فقال : المعنى لي واللفظ له . وبعد فهو أخي من الرضاع وأنا أحق الناس بشعره » . (١)

٢ ـ وسرقة خفية تحتاج إلى فطنة ، قال : « وأول ما يلزمك في هذا الباب أن لا تقصر السرقة على ما ظهر ودعا إلى نفسه دون ما كمن ونضح عن صاحبه وأن لا يكون همك في تتبع الأبيات المتشابهة والمعاني المتناسخة طلب الألفاظ والظواهر دون الأغراض والمقاصد ولن تكمل ذلك حتى تعرف تناسب قول لبيد :

وما المالُ والأهلونَ إلاّ ودائِـعٌ ... ولا بُـدَّ يـوماً أنْ تُرَدَّ الودائِعُ

---

(١) الوساطة ص ١٩٢ .

وقول الأفوه الأودي :

إنمـا نعمـةُ قـومٍ متعـةٌ   وحيـاةُ المـرء ثـوْبٌ مستعارُ

وإن كان هذا ذكر الحياة وذلك ذكر المال والولد ، وكان أحدهما جعل وديعة والآخر عارياً » . [1]

وأشار إلى الأخذ من القرآن الكريم والحديث الشريف والأقوال المأثورة [2] ، وهو ما يسمى الاقتباس .

وعقد باباً طويلاً عن سرقات المتنبي جمع فيه ما ادعي على الشاعر فيه السرقة وما أضيف إليه مما عثر به . وهذا الباب من أطول ما كتب عن سرقات المتنبي ، لأنه جمع ما قيل فيها وما أضافه إليها .

هذه أسسه في بحث السرقات وتتجلى فيها قدرته على تنويعها ومتابعتها وتعليقه عليها وتتضح موهبته في الحديث عن سرقات المتنبي وتوجيهها ويكاد معظم كتابه يتصل بهذه القضية التي شغلت البلاغيين والنقاد وهم يتحدثون عن الإبداع والإتباع . وقد استطاع في هذه الدراسة أن يضع النظرية ذات الأسس الواضحة ، وأن ينجح في التطبيق إلى حد كبير . وكان خروجه أحياناً على هذه الأسس وتتبعه السرقات الموهومة سبباً في أن يقول الدكتور محمود السمرة : « والعيب الأساسي ليس في النظرية فهي ذات أسس سليمة إلى حد كبير ولكن في التطبيق فالجرجاني في تطبيقه نسي ما دعا إليه من الحذر في إصدار الأحكام وادعاء السرقة وأخذ يتتبع سرقات موهومة » . [3]

قضايا أخرى :

كانت تلك أهم أسس القاضي النقدية ، وله بعض الآراء والقواعد الأخرى

---

(١) الوساطة ص ٢٠١ .

(٢) الوساطة ص ٣٤٧ ، ٣٧٦ .

(٣) القاضي الجرجاني الاديب الناقد ص ٢٠٥ ، وتنظر ص ٢١٣ .

منها رايه في « الأدب والدين » وهو يفصل بينهما ولا يرى أن عقيدة الأديب تؤثر في النقد بحيث ترفعه أو تنزله ، قال : « فلو كانت الديانة عاراً على الشعر وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين ويحذف ذكره إدا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه بالكفر . ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعري وأضرابهما ممن تناول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعاب من أصحابه بكماً خرساً وبكاء مفحمين . ولكن الأمرين متباينان . والدين بمعزل عن الشعر » . (١)

وكان هذا الرأي في معرض دفع الهجنة عن شعر المتنبي الذي فيه ما يدل على ضعف العقيدة ، قال : « والعجب ممن ينقص أبا الطيب ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة ، كقوله :

يترشَّفْـنَ مـن فـي رَشفـاتٍ ... هُـنَّ فيه أحلَى من التَّوحيـد (٢)

وليس القاضي الجرجاني ممن عرفوا بفساد الدين والعقيدة . ولكنه يرى أن العقيدة ينبغي أن لا تتخذ مقياساً في النقد لئلا تؤدي إلى رفض كثير من الشعر وطمس كثير من الشعراء ، فيضيق مجال الأدب ويقضى على فنون كثيرة .

ووقف من الفلسفة موقف الآمدي ورأى أنَّ الشعر غير الفلسفة . وعاب على أبي تمام قوله :

قسمت لي وقـاسمتـني بسلطـا ... ن من السِّحـرِ مقلتـا عبدوسِ
فالقسيـمُ القَسَّامُ عـن لحظاتٍ ... منهمـا يختلسن حـب النفـوسِ
فـالذي قاسمـت بلحظٍ إذ الليـ ... ـل تَمَطَّـى من الكرى المنفوسِ

قال : « ولست أدري ـ يشهد الله ـ كيف تصور أن يتغزل وينسب وأي

(١) الوساطة ص ٦٤
(٢) الوساطة ص ٦٣ .

حبيب يستعطف بالفلسفة وكيف يتسع قلب عبدوس هذا وهو غلام غر وحدث مترف لاستخراج العويص وإظهار المعمى » . (١)

ويفهم أنه يرى الخروج إلى طريق الفلسفة عيباً في الشعر ، ولذلك قال عن المتنبي : « وإنما تجد له المعنى الذي لم يسبقه الشعراء إليه إذا دقق فخرج عن رسم الشعر إلى طريق الفلسفة فقال :

وجدتَ حتى كدْتَ تبخلُ حائلاً ... للمنتهى ومن السرورِ بكاءُ

وقال :

إلفُ هذا الهواءِ أوقع في الأنفس ... أَنَّ الحِمامَ مُرُّ المَذاقِ
والاسى قبل فرقةِ الروح عَجْزٌ ... والأسى لا يكون بَعْدَ الفراقِ

وقوله :

تخالفَ الناسُ حتى لا اتفاقَ لهم ... إلاَّ على شَجَبٍ والخُلْفُ في الشَّجَبِ
فقيل تخلُصُ نفسُ المرءِ سالمةً ... وقيل تشرك جسمَ المرءِ في العَطَبِ

وقال :

خَلَقَتْ صفاتُك في العيون كلامَه ... كالخط يملأُ مَسْمَعي مَنْ أبْصَرا (٢)

ومنها نقده الجملي ، فقد خرج على ما عرف في زمانه وما قبله من الانصراف إلى الكلمة الواحدة أو البيت الواحد ومؤاخذة الشاعر على الأخطاء الجزئية وإهمال النظرة العامة في شعره أو في قصيدة كاملة من قصائده . فإهمال شعر الشاعر في جملته تقصير من الناقد والتشنيع ببعض السقطات تقصير في جانب الحق . قال موضحاً هذا الرأي وهو يتحدث عن الذين عابوا أبا الطيب ببيت شذ أو كلمة ندرت : « فإن الأديب الفاضل لا يستحسن أن يعقد بالعثرة على الذنب اليسير

(١) الوساطة ص ٦٨ .
(٢) الوساطة ص ١٨٢ .

من لا يحمد منه الإحسان الكثير وليس من شرائط النصفة أن تنعى على أبي الطيب بيتاً شذ وكلمة ندرت وقصيدة لم يسعده فيها طبعه ولفظة قصرت عنها عنايته وتنسى محاسنه وقد ملأت الاسماع ، وروائعه وقد بهرت ، ولا من العدل أن تؤخره الهفوة المنفردة ولا تقدمه الفضائل المجتمعة وأن تحطه الزلة العابرة ولا تنفعه المناقب الباهرة . وكيف اسقطته عن طبقات الفحول وأخرجته من ديوان المحسنين لهذه الأبيات التي أنكرتها لم تسلم له قصب السبق ونصال النضال وتعنون باسمه صحيفة الاختيار لقوله » [(١)] وذكر له بعد ذلك قصائد رائعة ليثبت أن النقد ليس النظرات الجزئية والكلام على الكلمات أو الأبيات المفردة ، وإنما هو النظرة المتكاملة .

وفي كتاب الوساطة كثير من الآراء اللغوية والنحوية والعروضية ، وكثير من الأحكام في الشعراء المبرزين كأبي نواس وأبي تمام والبحتري وابن الرومي . وكان موقفه من هؤلاء الشعراء وغيرهم من المحدثين موقف المنصف العادل ، فلم يتعصب عليهم وإنما أظهر قيمتهم وأبرز جوانب إبداعهم وتقدمهم ، وكان صادقاً في تطبيق قاعدته التي وضعها في أول كتابه حينما قال : « أنا أقول ـ أيدك الله ـ إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والاعرابي والمولد » . [(٢)]

دفاعه عن المتنبي :

عرض القاضي الجرجاني آراءه السابقة لينطلق منها إلى الدفاع عن المتنبي والحكم عليه ، وهو في أول كلمة يذكرها في كتاب الوساطة يتحدث عن التفاضل الذي يدعو إلى التنافس والتنافس الذي يكون سبب التحاسد ، ويذكر أن أهل

---

(١) الوساطة ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٢) الوساطة ص ١٥ .

النقص رجلان : « رجل أتاه التقصير من قبله وقعد به عن الكمال اختياره . فهو يساهم الفضلاء بطبعه ويحنو على الفضل بقدر سهمه . وآخر رأى النقص ممتزجا بخلقته ومؤثلاً في تركيب فطرته فاستشعر اليأس من زواله وقصرت به الهمة عن انتقاله فلجأ إلى حسد الأفاضل واستغاث بانتقاص الأماثل يرى أن أبلغ الأمور في جبر نقيصته وستر ما كشفه العجز عن عورته اجتذابهم إلى مشاركته ووسمهم بمثل سمته » . (١)

ووجد أهل الأدب في المتنبي فئتين : من مطنب في تقريظه منقطع إليه بجملته منحط في هواه بلسانه وقلبه يلتقي مناقبه إذا ذكرت بالتعظيم ويشيع محاسنه إذا حكيت بالتفخيم ، ويعجب ويعيد ويكرر ويميل على من عابه بالزراية والتقصير ويتناول من ينتقصه بالاستحقار والتجهيل فإن عثر على بيت مختل النظام أو نبه على لفظ ناقص عن التمام التزم من نصرة خطئه وتحسين زلله ما يزيله عن موقف المعتذر ويتجاوز به مقام المنتصر . وعائب يروم إزالته عن رتبته فلم يسلم له فضله ويحاول حطه عن منزلة بوأه إياها أدبه فهو يجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معايبه وتتبع سقطاته وإذاعة غفلاته . وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه . (٢)

وخصوم المتنبي فريقان :

أحدهما : يعم بالنقص كل محدث ولا يرى الشعر إلا القديم الجاهلي وما سلك به ذلك المنهج وأجري على تلك الطريقة ويزعم ان ساقة الشعراء رؤبة وابن هرمة وابن ميادة والحكم الخضري ، فاذا انتهى إلى من بعدهم كبشار وابي نواس وطبقتهم سمى شعرهم ملحاً وطرفاً واستحسن منه البيت استحسان النادرة وأجراه مجرى الفكاهة فإذا نزلت به إلى أبي تمام واضرابه نفض يده وأقسم واجتهد ان القوم لم يقرضوا بيتاً قط ولم يقعوا من الشعر إلا بالبعد .

ومن كان هذا رأيه ومذهبه وهذه دعواه ونحلته فقد أعطاك ما أردت من

(١) الوساطة ص ١

(٢) الوساطة ص ٣ .

وجه وان مانعك سواه وسمح لك بما التمست وان التوى عليك في غيره لان الذي انتصبت له وشغلت عنايتك به إلحاق أبي الطيب بهذه الطبقة وإضافته إلى هذه الجملة وقد بذل ذلك وقرب مطلبه عليك . فإن تكن الجماعة منسلخة من الشعر موسومة بالنقص مستحقة للنفي فصاحبك أولهم وإن تكن قد علقت منه بسبب وحظيت منه بطائل وكان له فيه قدم ومنه حظ وموقع فهوكأحدهم .

وثانيهما : يسلم بفضل أبي تمام وحزبه ، ولكنه لا يرى للمتنبي فضلاً ، وهذا الفريق هو المقصود بالمجاملة لأنه خصم ألد ومخالف معاند ، قال القاضي : « وإنما خصمك الألد ومخالفك المعاند الذي صمدت لمحاكمته وابتدأت بمنازعته ومحاجته من استحسن رأيك في انضاف شاعر ثم ألزمك الحيف على غيره وساعدك على تقديم رجل ثم كلفك تأخير مثله فهو يسابقك إلى مدح أبي تمام والبحتري ويسوغ لك تقريظ ابن المعتز وابن الرومي حتى إذا ذكرت أبا الطيب ببعض فضائله وأسميته في عداد من يقصر عن رتبته امتعض امتعاض الموتور ونفر نفار المضيم فغض طرفه وثنى عطفه وصعر خده وأخذته العزة بالإثم وكأنما زوى بين عينيه عليك المحاجم » (١) . مع اننا لا نستطيع أن نحكم على المتنبي إلا بأحد أمرين : « اما أن تدعي له الصنعة المحضة فتلحقه بأبي تمام وتجعله من حزبه أو أن تدعي له فيه شركاً وفي الطبع حظا ، فإن ملت به نحو الصنعة فضل ميل صيرته في جنبة مسلم وإن وفرت قسطه من الطبع عدلت به قليلاً نحو البحتري وأنا أرى لك ان كنت متوخياً للعدل مؤثراً للإنصاف أن تقسم شعره فتجعله في الصدر الأول تابعاً لأبي تمام وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم » (٢) .

وشرح منهجه في المقاصة أو المقايسة بين المتنبي والشعراء المحدثين وقال : « وأقبل عليك أيها الراوي المتعتب فأقول لك : خبرني عمن تعظمه من أوائل الشعراء ومن تفتتح به طبقات المحدثين هل خلص لك شعر أحدهم من شائبة وصفا من كدر ومعابة ؟ فإن ادعيت ذلك وجدت العيان حجيجك والمشاهدة

(١) الوساطة ٤٩ ـ ٥٣ .

(٢) الوساطة ٥٠ .

خصمك وعدنا بك إلى أضعاف ما صدرنا به مخاطبتك واستعرضنا الدواوين فأريناك فيها ما يحول بينك وبين دعواك ويحجزك إن كان بك أدنى مسكة عن قولك : فإن قلت : قد أعثر بالبيت بعد البيت أنكره وأجد اللفظ بعد اللفظ لا أستحسنه وليس كل معانيهم عندي مرضية ولا جميع مقاصدهم صحيحة مستقيمة . قلنا لك : فأبو الطيب واحد من الجملة فكيف خص بالظلم من بينها ورجل من الجماعة فلم أفرد بالحيف دونها ؟ فإن قلت كثر زلله وقل إحسانه واتسعت معايبه وضاقت محاسنه قلنا : هذا ديوانه حاضراً وشعره موجوداً ممكناً هلم نستقرئه ونتصفحه ونقلبه ونمتحنه ثم لك بكل سيئة عشر حسنات وبكل نقيصة عشر فضائل فإذا أكملنا لك ذلك واستوفيته وقادك الاضطرار إلى القبول أو البهت ووقفت بين التسليم والعناد عدنا بك إلى بقية شعره فحاججناك به وإلى ما فضل بعد المقاصة فحاكمناك اليه .

وقد نجد كثيراً من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومي ويغلو في تقديمه ونحن نستقرىء القصيدة من شعره وهي تناهز المائة أو تربى أو تضعف فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين ثم قد تنسلخ منه قصائد منه وهي واقفة تحت ظلها جارية على رسلها لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي وانتظار الفراغ وأنت لا تجد لأبي الطيب قصيدة تخلو من أبيات تختار ومعان تستفاد وألفاظ تروق وتعذب وإبداع يدل على الفطنة والذكاء وتصرف لا يصدر إلا عن غزارة واقتدار .

ولو تأملت شعر أبي نواس حق التأمل ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه وعددت منفيه ومختاره لعظمت من قدر صاحبنا ما صغرت ولأكبرت من شأنه ما استحقرت ، ولعلمت أنك لا ترى لقديم ولا محدث شعراً أعم اختلالاً وأقبح تفاوتاً وأبين اضطراباً وأكثر سفسفة وأشد سقوطاً من شعره هذا ، وهو الشيخ المقدم والإمام المفضل الذي شهد له خلف وأبو عبيدة والأصمعي وفسر ديوانه ابن السكيت ، فهل طمست معايبه محاسنه وهل نقص رديه من قدر جيده ؟ » (١) .

---

(١) الوساطة ص ٥٣ ـ ٥٥ .

وشرع بعد ذلك في توضيح هذه المقايسة والمقاصة وذكر ما في شعر أبي نواس من تفاوت ولحن وفساد العقيدة وخطأ الوزن ، ثم ما في شعر أبي تمام من تفاوت أيضاً . وعاد إلى شعر المتنبي وقال : « ثم اعود إلى نسق الكتاب وأكتفي بما قدمته من هفوات أبي تمام وان كان ما أغفلته أضعاف ما أثبته اذ البغية فيه الاعتذار لأبي الطيب لا النعي على أبي تمام . وإنما خصصت أبا تمام لاجمع لك بين سيدي المطبوعين وأمامي أهل الصنعة وأريك ان فضلهما لم يحمهما من زلل ، واحسانهما لم يصف من كدر فان أنصفت فلك فيها عبرة ومقنع وان لججت فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون .

وقد رأيتك ــ وفقك الله ــ لما احتفلت وتعملت وجمعت أعوانك واحتشدت وتصفحت هذا الديوان حرفاً حرفاً واستعرضته بيتاً بيتاً وقلبته ظهراً وبطناً لم تزد على أحرف تلقطتها وألفاظ تحملتها ادعيت في بعضها الغلط واللحن وفي أخرى الاختلال والاحالة ووصفت بعضاً بالتعسف والغثاثة وبعضاً بالضعف والركاكة وبعضاً بالتعدي في الاستعارة ثم تعديت بهذه السمة إلى جملة شعره فاسقطت القصيدة من أجل البيت ونفيت الديوان لأجل القصيدة وعجلت بالحكم قبل استيفاء الحجة وأبرمت القضاء قبل امتحان الشهادة » . (١)

وعرض ما في شعره من عيوب من غير ان يعلق عليها ثم ذكر الرائع من أشعاره ووازن بينه وبين شعر غيره موازنة سريعة ليس فيها تحليل وتفصيل كقوله في قصيدة المتنبي التي تحدث فيها عن الحمى : « وهذه القصيدة كلها مختارة لا يعلم لأحد في معناها مثلها والأبيات التي وصف فيها الحمى أفراد وقد اخترع أكثر معانيها وسهل في الفاظها فجاءت مطبوعة مصنوعة ، وهذا القسم من الشعر هو المطمع المؤيس . وقد أحسن عبد الصمد بن المعذل في قصيدته الرائية التي وصف فيها الحمى وقصر في الضادية وفي مقاطيع له في وصفها ، وكأن أبا الطيب قد تنكب معانيه فلم يلم بشيء منها » (٢) ، ثم قال بعد ان ذكر أبيات عبد الصمد : « فأحسن

---

(١) الوساطة ص ٨٢ .

(٢) الوساطة ص ١٢١ .

وأجاد وملح واتسع ، وأنت إذا قست أبيات أبي الطيب بها على قصرها وقابلت اللفظ باللفظ والمعنى بالمعنى وكنت من أهل البصر وكان لك حظ في النقد تبينت الفاضل من المفضول . فأما أنا فأكره ان أبت حكماً أو أفضل قضاء أو أدخل بين هذين الفاضلين وكلاهما محسن مصيب » .

وتحدَّث بعد ذلك عن حسن التخلص وحسن الخروج وذكر له التخلص المستكره وما عيب من ابتداءاته ، وعاد إلى حسن ابتداءاته وقال : « فليغفر ذلك له لقوله :

أتـراهـا لكـثـرةِ العُـشاقِ ... تَحْسَبُ الدَّمْـعَ خِلْقَةً في المآقي

فانه ابتداء ما سمع مثله ومعنى انفرد باختراعه وقوله :

على قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تأتي العزائِمُ

وقوله :

الـرأيُ قبـل شجـاعـةِ الشجعان ... هـو أوَّل وهي المَحَـلُّ الثاني
فـاذا همـا اجتمعـا لنفسٍ مَـرَّةً ... بلغت من العلياء كُلَّ مكانِ (١)

وبعد أن ذكر أفراداً من شعره تحدث عن السرقات وقسمها وذكر مواضعها والممدوح والمذموم منها . والغرض من البحث المستفيض في هذا الموضوع دفع ما اتهم به المتنبي من سرقة وادعاء خصومه انه « ما يسلم له بيت ولا يخلص من معانيه معنى وما هو إلا ليث مغير أو سارق مختلس » (٢) . وقد كشف في هذا البحث عن مقدرة كبيرة في تتبع الشعر ، والوقوف على الفاظه ومعانيه وما فيه من اشتراك أو تفاوت . وتحدث عن سرقات الشعراء ولا سيما المحدثون كأبي نواس والبحتري وأبي تمام لينصف المتنبي الذي كان أحد المحدثين ، وعرض

(١) الوساطة ص ١٥٧ وما بعدها .
(٢) الوساطة ص ١٧٨ .

سرقاته التي تحدث عنها خصومه واضاف اليها ما عثر به ، وقال : « وقد آتينا على ما حضرنا من هذا الكتاب ونبنا عنك في جمعه واستحضاره ولقطه وتصفح الدواوين ولقاء العلماء فيه ، وبيضنا أوراقاً لما لعله شذ عنا من غريبه وما عسانا نظفر على مرور الأوقات به وما نأبى أن يكون عندك أوعند أحد من أصحابك فيه زيادات لم نعثر بها أولطائف لم نفطن اليها إن كنت على ثقة من علمك وبصيرة بما عندك وعرفت من طرق السرق ووجوه النقل ما يسوغ فيه حكمك وتعدل فيه شهادتك فلا بأس ان تلحق به ما أصبته وان تضيف اليه ما وجدته بعد أن تتجنب الحيف وتتنكب الجور وتعلم ان وراءك من النقاد من يعتبر عليك نقدك ومن لا يستسلم للعصبية استسلامك » (١) .

ووصل بعد ذلك إلى دفاعه عن المتنبي ، وهذا القسم من خير ما كتب لما فيه من مناقشات تفصيلية ونقد دقيق ولذلك قال الدكتور مندور عنه : « وهو جدير بأن يسمى الوساطة بين المتنبي وخصومه » (٢) .

بدأ دفاعه بقوله : « وقد تفقدت ما أنكره أصحابك من هذا الديوان بعد الأبيات التي حالها من امتناع المحاجة فيها وتعذر المخاصمة عليها ما وصفت فوجدته أصنافاً ، منها ألفاظ نسبت إلى اللحن في الاعراب وادعي فيها الخروج عن اللغة ، ومعان وصفت بالفساد والإحالة وبالاختلال والتناقض واستهلاك المعنى ، وأخرى أنكر منها التقصير عن الغرض والوقوع دون القصد . وأعيب ما فيها عيبه من باب التعقيد والعويص واستهلاك المعنى وغموض المراد ، ومن جهة بعد الاستعارة والإفراط في الصنعة . وقد حكيت في كل باب منها ما علقته من كلام أصحابك وما قابلهم به خصومك ورأيت السلامة في أن أقتصر من هذه الوساطة على حسن التبليغ وحسن التأدية وتقريب العبارة وجمع المتفرق ثم أقف منكما حجزة وأخرج عنكما صفرا قد أديت عن كل فريق ما تحملته وسلمت من الميل فيما تعلقته . وكما لا أحكم على خصمك بالخطأ في كل ما يذكره فكذلك

(١) الوساطة ص ٤١٠ .

(٢) النقد المنهجي عند العرب ص ٢٩٠ .

لا أبعدك من الصواب في أكثر ما تصفه . وجملة القول في هذه الأبيات وأشباهها انه لو وفي فيها التهذيب حقه ولم يبخس التثقيف شرطه لانقطعت عنها ألسن العيب وانسدت دونها طرق الطعن ولدخلت في جملة أخواتها ولجرت مجرى أغيارها ولاستغنت عن تكلف البحث والتنقير واستغنى خصمك عن تمحل الحجج والمعاذير . لكنا لم نجد شاعراً أشمل للإحسان والإصابة والتنقيح والإجادة شعره أجمع بل قلما تجد ذلك في القصيدة الواحدة والخطبة الفردة ولا بد لكل صانع من فترة والخاطر لا تستمر به الأوقات على حال ولا يدوم في الأحوال على نهج . وقد قدمنا لك في صدر هذه الرسالة من شعر أبي نواس وأبي تمام وغيرهما ما مهدنا به الطريق إلى هذا القول ، وأقمنا علماً يرجع اليه في هذا الحكم وأعلمناك انه ليس بغيتنا الشهادة لأبي الطيب بالعصمة ولا مرادنا أن نبرئه من مقارفة زلة ، وان غايتنا فيما قصدناه أن نلحقه بأهل طبقته ولا نقصر به عن رتبته وان نجعله رجلاً من فحول الشعراء ونمنعك عن إحباط حسناته بسيئاته ولا نسوغ لك التحامل على تقدمه في الأكثر بتقصيره في الأقل ، والغض من عام تبريزه بخاص تعذيره » (١) .

والقضايا التي تحدث عنها في هذا القسم :

١ ـ التعقيد والغموض :

تحدث في أول الأمر عن تعقيد الفرزدق في قوله :

وما مِثْلُــه في النــاسِ إلاَّ مُملَّكــاً　　　أبــو أمــه حي أبــوه يقــارِبُــه

وقال انك إذا احتملت هذا البيت وأشباهه ولم تحتمل ما في شعر المتنبي من تعقيد فإنك متعصب ومتحامل جائر . وان أحد أبيات الفرزدق يسقط شعر بني تميم جملة ، ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعراً لوجب أن لا يرى لأبي تمام بيت واحد « فإنا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت أو بيتين قد وفر

(١) الوساطة ص ٤١٥ .

من التعقيد حظهما وافسد بهما لفظهما ، ولذلك كثر الاختلاف في معانيه وصار استخراجها باباً منفرداً ينتسب اليه طائفة من أهل الأدب وصارت تتطارح في المجالس مطارحة أبيات المعاني والغاز المعمى وليس في الأرض بيت من أبيات المعاني لقديم أو محدث إلا ومعناه غامض مستتر ولولا ذلك لم تكن إلا كغيرها من الشعر ولم تفرد فيها الكتب المصنفة وتشغل باستخراجها الأفكار الفارغة » (١) .

ولا يريد القاضي في هذا القسم الذي خفاء معانيه واستتارها من جهة غرابة اللفظ وتوحش الكلام ومن قبل بعد العهد بالعادة وتغير الرسم كاختلاف الناس في قول تميم بن مقبل :

يا دارَ سلمى خلاءً لا أكلفها ... إلاَّ المرانةَ حتى تعرفَ الدِّينا

فإن الذي خالف بين أقاويلهم فيها هو انهم لم يعرفوا المرانة فقال قائل : هي ناقته وقال آخر : هي موضع دار صاحبته ، وقال آخر : إنما أراد الدوام والمرونة . وإنما يريد مثل قول الأعشى :

إذا كان هادي الفتى في البـلا ... د صدرُ القناة أطاع الأمير

فإن هذا البيت سليم النظم من التعقيد بعيد اللفظ من الاستكراه لا تشكل كل كلمة بانفرادها ، فإذا أريد الوقوف على مراد الشاعر فمن المحال والممتنع أن يوصل اليه إلا من شاهد الأعشى بقوله . قال القاضي : « فأما أهل زماننا فلا أجيز أن يعرفوه إلا سماعاً إذا اقتصر بهم من الإنشاد على هذا البيت المفرد فإن تقدموه أو تأخروا عنه بأبيات لم أبعد ان يستدل ببعض الكلام على بعض وإلا فمن يسمع بهذا البيت فيعلم انه يريد : ان الفتى إذا كبر فاحتاج إلى لزوم العصا أطاع لمن يأمره وينهاه واستلم لقائده وذهبت شرته » (٢) .

وانتهى إلى أن شعر المتنبي لا يصل إلى الغموض المفرط والتعقيد المستكره

(١) الوساطة ص ٤١٦ وما بعدها .

(٢) الوساطة ص ٤١٨ .

الذي نجده في شعر الفرزدق وأبي تمام .

٢ ـ الافراط :

وهو مذهب عام في المحدثين وموجود كثير في الأوائل والناس فيه مختلفون ، فمستحسن قابل ومستقبح راد . وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية وأدته الحال إلى الاحالة ، وإنما الإحالة نتيجة الافراط وشعبة من الاغراق .

قال القاضي : « وقد كان بعض أصحابنا يجاريني أبياتاً أبعد أبو الطيب فيها الاستعارة وخرج عن حد الاستعمال والعادة فكان مما عدد منها قوله :

مَسَرَّةٌ في قلـــوبِ الطيب مفرقها وحسرةٌ في قلوبِ البيض واليَلَبِ

وقوله :

تجمَّعَــتْ فـي فـؤادِهِ هِمَـــمٌ مـلء فـؤادِ الزمـــان إحداهـــا

فقال : جعل للطيب والبيض واليلب قلوباً وللزمان فؤاداً ، وهذه استعارة لم تجر على شبه قريب ولا بعيد وإنما تصح الاستعارة وتحسن على وجه من المناسبة وطرف من الشبه والمقاربة . فقلت له : هذا ابن أحمر يقول :

وَلِهَـــتْ عليـــه كُـــلُّ معصفـــةٍ هوجـــاءُ ليس للبِّهـــا زبـــر

فما الفصل بين من جعل للريح لباً ومن جعل للطيب والبيض قلباً . وهذا أبو رميلة يقول :

هُـــمُ ساعدُ الدهرِ الذي يُتقى بـــه ومـــا خيرُ كـــفٍ لا تنوءُ بساعِـــدِ

وهذا الكميت يقول :

ولما رأيتُ الدهْرَ يقلب ظهرَه   على بطنه فِعْلَ الممعك بالرَّمْلِ

. . . فهؤلاء قد جعلوا الدهر شخصاً متكامل الأعضاء تام الجوارح فكيف أنكرت على أبي الطيب أن جعل له فؤاداً ؟ » . (1)

وإذا ما قال القدماء المحدثون شعراً فيه أفراط فلا ضير على المتنبي أن يقول مثلهم ، وإذا ما أفرطوا في الاستعارة فلا بأس أن يفرط أيضاً ، وإن كان إفراطه لم يصل إلى إفراط أبي تمام وتعقيده في استعاراته .

٣ ـ اللغة :

وبعد أن عرض هذه القضايا وصل إلى « ما وقع الطعن عليه من جهة الاعراب واللكنة في ناحية الزلل في اللغة وما ألحق بذلك من النقص الظاهر والإحالة البينة والتقصير الفاحش فلا بد من تعديده والحكم على كل واحد بعينه لاختلاف مأخذ حججه وتشعب مذاهب القول في قبوله ورده » . (2) وذكر أنه لن يناقش إلا « ما يقع الاعتراض عليه من أهل العلم وما يجري التنازع فيه بين أهل التحصيل والفهم ، فلو أني شرعت في تبيين كل ما يشكل منه على الشادي والمتوسط وعلى الطبقة الأولى من أهل الأدب لاحتجت إلى تفسير الديوان بأسره » .

والمعترضون على المتنبي في هذه المسألة أحد رجلين :

١ ـ أما نحوي لغوي لا بصر له بصناعة الشعر فهو يتعرض من انتقاد المعاني لما يدل على نقصه ويكشف عن استحكام جهله كما بلغني عن بعضهم أنه أنكر قوله :

تخطّ فيها العوالي ليس تنفذها   كأنَّ كلَّ سنانٍ فَوْقَها قَلَمُ

فزعم أنه أخطأ في وصف درع عدوه بالحصانة واسنة أصحابه بالكلال . ومن

(1) الوساطة ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠

(2) الوساطة ص ٤٣٤ .

كان هذا قدر معرفته ونهاية علمه فمناظرته في تصحيح المعاني وإقامة الأغراض عناء لا يجدي وتعب لا ينفع ، كأنه لم يسمع ما شحنت به العرب اشعارها من وصف ركض المنهزم واسراع الهارب وتقصير الطالب وقولهم : أن الذي نجى فلاناً كرم فرسه والذي ثبطني عنه سرعة طرفه . ولم يعلم أن مذاهب العرب المحمودة عندهم الممدوح بها شجعانهم التفضل عند اللقاء وترك التحصن في الحرب وانهم يرون الاستظهار بالجنن ضرباً من الجبن وكثرة الاحتفال والتأهب دليلاً على الوهن ، ولم يسمع قول الأعشى :

وإذا تكـون كتيبـةٌ ملمومـةٌ   خرساءُ يخشى الدارعـونَ نِزالَها
كنـت المقـدمَ غـيرَ لابسِ جُنَّـةٍ   بالسيـف تضرِبُ مُعْلِماً أبطالَها

٢ ـ أو معنوي مدقق لا علم له بالاعراب ولا اتساع له في اللغة فهو ينكر الشيء الظاهر وينقم الامر البين كفعل بعضهم في قوله :

لأنت أسْوَدُ في عيني من الظلمِ

فإنه أنكر أسود من الظلم ولم يعلم أنه قد يحتمل هذا الكلام وجوهاً يصح عليها وأن الرجل لم يرد « أفعل » التي للمبالغة وكإنكار آخر لقوله :

فالغيث أبخـل مَنْ سَعـى

فزعم أن « من » لا تكون إلا لما يعقل و« أفعل » لا يجري إلا على البعض من تلك الجملة . وهذا الاعتراض يدل على تقصير شديد في العلم بكلام العرب ، لأن العرب إذا وصفت الشيء بصفة غيره استعارت له ألفاظه واجرته في العبارة مجراه .

وتحدث عما عيب فيه المتنبي من أخطاء لغوية ونحوية وأوضح ما وقع فيه الخصوم من أخطاء أو ما غاب عنهم من علم .

وأهم ما عابوه على المتنبي : حذف النون من « تكن » في قوله :

جلـلاً كمـا بـي فَلْيَكُ التَّبريـحُ   أغذاءُ ذا الرشأ الأغَنِّ الشِّيحُ ؟

لأن حذف النون من تكن إذا استقبلتها اللام خطأ لأنها تتحرك إلى الكسر ، وإنما تحذف استخفافاً إذا سكنت .

وتشبيهه بالحرف « ما » في قوله :

أمط عنـك تشبيهـي بمـا وكأنّـه   فلا أحد فوقي ولا أحـد مِثْلـي

وليس للتشبيه في أبواب « ما » مدخل ، وإن قال المتنبي أنها تأتي لتحقيق التشبيه .

وجمع بوق على بوقات في قوله :

إذا كان بعضُ الناس سيفاً لدولـة   ففي الناس بوقاتٌ لها وطبـولُ

لأن جمع « فُعْل » على أفعال في القلة ، وأفْعُل ، وعلى فُعول وفِعال وفِعَلة ، وفُعْلان وفِعالة في الكثرة .

وانقطاع الكلام الأول قبل استيفاء الكلام وإتمام الخبر كما في قوله :

وإنـي لمـن قَـوم كأنَّ نفوسَنـا   بها أنف أنْ تَسكنَ اللَّحْمَ والعظما

وكان يجب أن يقول : « كأن نفوسهم » ليرجع الضمير إلى القوم فيتم به الكلام .

وتثنية الرماح في قوله :

مضى بعدما التَفَّ الرماحانِ ساعةً   كما يَتَلَقَّى الهُدْبُ في الرَّقْدِة الهُدْبَا

وتشديد النون من « لدن » في قوله :

فأرحـامُ شعـر يتصلْـنَ لدنـه   وأرحامُ مـالٍ مـا تنـي تتقطعُ

واتصال الضمير بـ « الا » في قوله :

لم تَرَ من نادمـت إلاكـا

وحق الضمير أن ينفصل عنها .

واستعمال « سداس » في قوله .

أُحاد أم سُداس فـي أُحاد

وهو غير محكي عن العرب .

وتصغير « الليلة » ثم استطالتها في قوله :

لُييلتنا المنوطـةُ بالتنادي

والدعاء بالويل والحرب في قوله :

ولـم تـردَّ حيـاةً بعـد توليـةٍ ولم تُغِثْ داعياً بالويلِ والحَرَبِ

والعرب لا تقول : دعا بالويل والحرب ، وإنما يقال : دعا ويله كما يقال : دعا فلاناً .

واستعمال ما ليس من كلام العرب كلفظة « مخشلب » في قوله :

بياضُ وجهٍ يريك الشمسَ حالكةً ودرُ لفـظٍ يريك الدرَّ مخشلبـا

واستعمال القنوع بمعنى القناعة في قوله :

ليس التعلـل بالآمـالِ من أربي ولا القنوع بضنك العيشِ من شِيَمي

وإلحاق الهاء في « قلباه » في قوله :

وأحَرَّ قلباه ممن قلبُه شَبِمُ

وإنما تلحق في الوقف لخفاء الالف فتبين بها فإذا وصلت حذفت .

والفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول في قوله :

حملتُ إليه مـن ثنائـي حديقــةً　　سقاها الحجى سقّي الرياض السحائب

وإنما يفصل بينهما الظروف والحروف وما أشبههما .

وحذف حرف النداء من « هذي » في قوله :

هذي برزتِ لنا فهجْتِ رَسيسا

وحذفها خطأ لأن « هذي » تصلح أن تكون نعتاً لأي وكل معرفة تصلح جاز أن تكون نعتاً لأي فحذف علامة النداء منه غير جائز .

ونصب الفعل مع حذف « أن » في قوله :

بيضاءُ يمنعهـا التكلـمُ دلهــا　　تيهـاً ويمنعهـا الحياءُ تميسا

فنصب « تميس » مع حذف « أن » وهو عند النحويين ضعيف لا يجيزون النصب على اضمار « أن » إلا أن يكون منها عوض ، وقد أجازه الكوفيون .

ووصفه الماء باليبس في قوله :

عوابس حلّ يابس الماء حزمهــا　　فهُنَّ على أوساطها كالمناطقِ

والماء لا يوصف باليبس وإنما يقال : جمد الماء وجمس السمن ويبس العود والنبت ونحو ذلك .

وخروجه عن الوزن في قوله :

تفكـره عِلْـمٌ ومنطقــه حُكْـمٌ　　وباطنـه ديـنٌ وظاهره ظَرْفُ

لأنه لم يجيء عن العرب « مفاعلين » في عروض الطويل غير مصرع .

وخروجه عن الوزن في قوله :

إنَّما بدرُ بن عمار سحابُ　　هَطِلٌ فيه ثوابٌ وعقابُ

فإنه أخرج الرمل على « فاعلاتن » في العروض فأجرى على ذلك جميع القصيدة في الأبيات غير المصرعة وإنما جاء الشعر منه على فاعلن .

وتمنيه أن يؤمل بعض ما يبلغ في قوله :

ولعلي مؤملٌ بعضَ ما أبلغ باللطف من عزيزٍ حميدِ

فقد تمنى أن يؤمل بعض ما يبلغ وهذا لا يليق بالكلام وإنما وجهه أن يقول : ولعلي بالغ بعض ما أؤمل .

واستعمال الترنج في قوله :

شديدُ البعد من شربِ الشمولِ　　ترنْجُ الهند أو طلع النخيلِ

والمعروف من العرب الاترج ، والترنج مما تغلط به العامة .

واستعماله « الجائد » في قوله :

فِدًى من على الغبراء أولهم أنا　　لهذا الأبي المائِدِ الجائِدِ القَرْمِ

والمحكي رجل جواد وفرس جواد ومطر جواد .

وسلامه على أخت سيف الدولة وهو يرثيها :

وهل سمعت سلاماً لي ألَمَّ بها　　فقد أطلت وما سَلَّمت من كَثَبِ

قالوا : وما باله يسلم على الحرم ويتشوق إلى الأمهات ومن سبقه إلى هذا ، إنما يفعل ذلك من يرثي بعض أهله وأما استعماله إياه في هذا الموضع فدال على ضعف البصر بمواقع الكلام » . (١)

---

(١) الوساطة ص ٤٧٦ .

هذه أهم ما اعترض بها على المتنبي ، والقاضي في هذه المسألة يستعين بالقواعد كثيراً ويرجع إليها ، لأن الذوق فيها لا ينفع ولا يمكن أن يوجه خطأ أو يغفر زلة لغوية ، كما أنه يرجع إلى كلام العرب ويستشهد بما جوزوه ، وإن كان خصوم المتنبي لا يجيزون للشاعر أن يتصرف كما يريد ، ومن الأمثلة التي توضح منهجه في هذا القسم قوله :

فِـدًى مَـنْ على الغبراء أَوّلُهـم أَنا لهذا الأبي المائـدِ الجائدِ القَرْمِ

قالوا : لم يحك عن العرب : « الجائد » وإنما المحكي عنهم رجل جواد وفرس جواد ومطر جواد .

قال المحتج : هذا الباب يستغني فيه القياس عن السماع لاطراده واتساق أمره على الاعتدال ، فكل فعل في الكلام يقتضي التصريف إلى فاعل ومفعول ، وكل فعل فله « مُفْعِل ومُفْعَل » . ولسنا نحتاج إلى مثل هذا التوقف واتباع المسموع وهذا اشبه بمذاهب القياس والأصل الذي عليه أهل اللغة » . [1]

هذه صورة لدفاع القاضي عن المتنبي ويتضح منها إنه لم يتعصب للشاعر وإنما نظر بعين الانصاف والعدل فاستحسن ما كان حسناً من شعره واستهجن ما لم تكن فيه طلاوة وروعة . وإذا كان قد وضع بعض الأسس التي قاس بها الشاعر فليس معنى ذلك إنه يتعصب له أو يندفع للذود عنه من غير علم ورويّة ، لأن المتنبي لم ينفرد عن غيره كل الانفراد ، فما يصيب غيره يصل اليه ، وما يطبق على غيره يسري عليه . ولكن هل وفق القاضي في دفاعه ؟ وهل وضع المتنبي حيث ينبغي أن يوضع ؟ ولعل ما سبق يوضح ذلك وإن كانت المقايسة شغلته عن تحديد مكانة الشاعر لأنه سعى قبل كل شيء إلى أن يدفع عنه التهم ويبرىء ساحته من العيوب التي وسم بها . وقد وفق في ذلك كل التوفيق ووضع الحسنات إلى جانب السيئات وحاول أن تذهب الأولى ما لحق بالشاعر من نقد منحرف وخصومة فيها لدد

(١) الوساطة ص ٤٧٠ .

عظيم . ويرى المرحوم طه ابراهيم إن القاضي لم يستطع أن يحدد مكانة المتنبي كما حدد الآمدي مكانة أبي تمام والبحتري ، ولم يحدد موقفه ونهجه بين الشعراء . (١) وهذا صحيح لو إن القاضي سعى إلى هذه الغاية ، ولكنه كما ذكر كثيراً في كتابه يريد أن ينصف الشاعر ويدفع عنه التهم ويحول بينه وبين خصومه الذين حادوا عن الطريق وتنكروا للحق والصواب . ونرى إنه استطاع أن يصل إلى هدفه ويحقق الكثير وإن كان لم يحدد مذهب المتنبي كما ينبغي حينما قسم شعره إلى قسمين : قسم مصنوع يجري مجرى شعر أبي تمام ، وقسم جمع الصنعة والطبع ، وهو وسط بين أبي تمام ومسلم .

لقد كان كتاب الوساطة من كتب النقد المهمة ، وقد استطاع مؤلفه أن يستوعب الآراء النقدية كلها ويصوغها ويستفيد منها في الدفاع عن المتنبي ويستغلها في مناقشة الآراء ، ولذلك يقف هو والآمدي في قمة النقد العربي . ويمكن القول أن صاحب الوساطة خاتمة النقد المعتمد على الذوق إلى جانب اعتماده على القواعد والأصول ، فقد تحول النقد بعده إلى بلاغة وطغت القواعد والتقسيمات عليه كما نرى في كتاب الصناعتين وكتابي عبد القاهر وكتاب العمدة وكتب ابن الأثير . ومن هنا كان وقوف المحدثين عند آراء القاضي النقدية واعجابهم به وان اعتبره بعضهم ممن تمسك بالقديم وآثره وحرص عليه لاعتقاده أنه المثل الكامل والصورة الصحيحة للأدب (٢) ، ووضعه الدكتور محمد مندور في المرتبة الثانية بعد الآمدي لأن معظم آرائه العامة عن الحقائق الأدبية قد سبقه إليها صاحب الموازنة (٣) وقال عنه الدكتور احسان عباس أنه لم يأت بجديد وإنما التقت عنده أكثر الآراء والنظرات السابقة فأحسن استغلالها في التطبيق والعرض (٤) . وقال الاستاذ محمد خلف الله أنه تنبه إلى مبادىء في الذوق لها خطرها الآن كوحدة العمل

---

(١) تاريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٨٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٣ .

(٣) النقد المنهجي عند العرب ص ٣٠١ .

(٤) تاريخ النقد الادبي عند العرب ص ٣١٧ .

الفني وكالفصل بين الناحيتين الأخلاقية والفنية في الأدب (١) . وقال الدكتور السمرة أنه ناقد فذ ومنارة لا يخبو نورها في تاريخ النقد الأدبي عندنا لأن المهم في الناقد روحه ومنهجه وذوقه قبل آرائه . (٢) وقال الدكتور أحمد بدوي أنه ناقد موضعي يحدد موضوع النزاع ليناقشه ويخرج منه بنتيجة مقبولة (٣) . وقال الدكتور محمد زغلول سلام أن كتاب الوساطة وكتاب الموازنة توأمان يقيمان منهجاً واضحاً لدراسة الشعر ونقده (٤) .

ويكفي القاضي الجرجاني أنه اطلع على الآراء النقدية السابقة كآراء ابن سلام في أثر البيئة وصناعة الشعر ، وموقف ابن قتيبة من القديم والحديث ، وآراء الآمدي في عمود الشعر والسرقات ثم صاغها من جديد واستغلها في الدفاع عن المتنبي فكان خاتمة النقاد التأثريين عند العرب الذين كان لهم فضل كبير على عبد القاهر الجرجاني وعلى الذين درسوا المتنبي فيما بعد كالثعالبي صاحب « يتيمة الدهر » والعميدي صاحب « الإبانة عن سرقات المتنبي » والبديعي صاحب « الصبح المنبي عن حيثية المتنبي » وغيرهم من النقاد والمؤلفين .

---

(١) الادب الاسلامي ص ١٥٠ .
(٢) القاضي الجرجاني ص ١٨٣ .
(٣) القاضي الحرجاني ص ٩٢ .
(٤) تاريخ النقد العربي ج ١ ص ٢٣٥ .

الخاتمة

كانت تلك حياة النقد في القرن الرابع للهجرة ، وقد اتضح أنها ثمرة التطور الذي مر به هذا الفن الأصيل ، بدأ بملاحظات بيانية وأحكام عامة تعتمد على الذوق ثم خطا خطوات واسعة حتى أصبح الذوق أحد ركنيه ، وصارت القواعد التي بدأت تظهر في كتب الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وثعلب وابن المعتز ركنه الثاني . وكان القرن الثالث عصر وضع القواعد والخوض في فنون البيان المختلفة بعد أن كان الحديث قبل ذلك محصوراً في الشعر . وكان الجاحظ من أوائل الذين عنوا بالخطابة والنثر إلى جانب عنايته بالشعر ، وسار البلاغيون والنقاد على هداه فكان للنثر نصيب من الدراسة والاستشهاد به ، ويتضح ذلك في كتاب « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة و« البديع » لابن المعتز . ولم يكن التخصص في هذه الفترة واضحاً إذ كان النقد والبلاغة يبحثان معاً ، وكانت الأحكام اللغوية والنحوية تأخذ نصيباً وافراً منها ، وكانت العناية بالقديم والتعصب له أوضح ما يكون . ولكن هذه الاتجاهات المختلفة أحياناً والمتداخلة في كثير من الأحيان شهدت نوعاً من التخصص في القرن الرابع وما بعده ، فقد استقرت القواعد والأصول وأصبح النقاد والبلاغيون يمثلون اتجاهات واضحة ، وظهرت الدراسات القرآنية المعتمدة على الذوق وفنون البيان ، ووضعت كتب الموازنة والوساطة بين الشعراء ، وكاد النقد اللغوي يفقد مكانته ، وأخذ النقد المعلل يظهر وبدأت حركة جديدة من التأليف تقوم على التخصص ولا سيما نقد الشعر ، وبدأ الأدباء يأخذون المبادرة بعد أن كان الرواة واللغويون والنحاة أصحاب الميدان . ونال النقد في هذا القرن تطوراً عظيماً وظهرت ألوان كثيرة تتسم بالوضوح والأسس القويمة . ومن ألوان هذا التطور ظهور دراسات إعجاز كتاب الله وهي صورة جلية لما

أثاره هذا الكتاب المنزل من جدل بين العلماء ظهر مبكراً ثم نما حتى اكتملت صورته في القرن الرابع وما بعده . وكان المعتزلة من أوائل الذين خاضوا هذا الميدان وكانت لهم آراء في إعجاز القرآن تجلّت في آثار الجاحظ وغيره من المتكلمين ، كما كان للاشاعرة نصيب عظيم من هذه الجهود ، تمثلت فيما كتبه الباقلاني الذي فاق السابقين بدراسته العميقة وآرائه السديدة التي تعد من خير ما تركته الدراسات القرآنية في هذا القرن بل كانت السبيل إلى تطوير نظرية النظم على يد عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس . وكان هذا التيار الديني قوياً في الدراسات النقدية ، بل من أجل كتاب الله العزيز درسوا البلاغة والنقد ووقفوا على فنونهما وأصولهما منذ عهد مبكر . وقد دفع هذا الإيمان عمرو بن عبيد إلى ربط البلاغة بالجنة وقال إنّها « ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصرك بمواقع رشدك وعواقب غيك » وقالوا أنها « أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه » لأن « الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وما شحنه به من الايجاز البديع » . وقد أثمرت هذه الدراسات القرآنية خيراً عظيماً وكانت أساساً للدراسات الأدبية والنقدية ، واستطاع مؤلفوها أن يضعوا كثيراً من القواعد والأصول ويصدروا الأحكام النقدية بعيدين عن كل هوى وتعصب كما فعل الباقلاني الذي يعد من أبرز نقاد العرب الذين نظروا إلى العمل الأدبي نظرة شاملة واتخذوا من السورة الكريمة والقصيدة الفريدة أساساً في نقدهم وبذلك نقل النقد الأدبي من جزئيات لا تنفع كثيراً إلى نقد متكامل حينما حلل معلقة أمريء القيس المعروفة وقصيدة البحتري التي مطلعها :

أهـلا بذلِكُـمُ الخيـالِ المقبـلِ   فَعَـل الـذي نهـواه أوْ لم يَفْعَلِ

ووقف على ما فيهما من محاسن ومعايب . ولو اتخذ النقاد من ذلك منهجاً لتغيرت كثير من المقاييس النقدية ولحفل النقد العربي بما حفل به النقد الحديث .

ومن ألوان هذا التطور نقد الشعر والاهتمام به والموازنة بين الشعراء والوقوف

على حقيقة التيارات التي تفاعلت في القرن الرابع ، ولو وجد النقد المتأثر بالثقافة الاجنبية مجالاً للتطبيق لكان عند العرب فنون جديدة من الأدب ولكنهم ترجموا كتابي « الخطابة » و« الشعر » ودرسوهما واهتموا بهما شرحاً وتلخيصاً من غير أن ينظروا إلى ما أثار مؤلفهما من آراء وما تحدث فيهما عن فنون .

إن القرن الرابع كان عصر ازدهار الأدب ولذلك ازدهر النقد فيه ، وقد أثيرت كثير من القضايا منها ما يتصل باسلوب القرآن وإعجازه ، ومنها ما يرتبط بكلام العرب شعره ونثره ، ومن أهمها :

١ ـ اللفظ والمعنى :

شغلت قضية اللفظ والمعنى النقاد والبلاغيين العرب منذ عهد مبكر وأخذت جهداً كبيراً منهم ، وكان الجاحظ من أقدم الذين عنوا بها واهتم بالفصاحة اهتماماً عظيماً لأنه يرى أن العناية بالألفاظ جديرة بالاهتمام . وتعتبر دراسته لها من أوسع ما وصل من تلك الفترة ، فقد تكلم على تنافر الحروف وملائمة الألفاظ وتماثلها ورأى أن اللفظ كما لا ينبغي أن يكون عامياً وساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي . ودفعته هذه العناية باللفظ إلى أن يقول : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير » . وظن بعض الباحثين أنه يميل إلى اللفظ كل الميل وأنه يهمل المعنى كل الاهمال ، والحق أنه عني بالمعنى كما عني باللفظ ، وقوله « فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير » يوضح رأيه ويظهر نزعته فهو من أصحاب الصياغة القائمة على اللفظ والمعنى وامتزاجهما وتداخلهما .

وقسم ابن قتيبة الشعر إلى أربعة أضرب : ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ، وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في

المعنى ، وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه ، وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه .

ولم يخرج نقاد القرن الرابع على اللفظ والمعنى لأنهما أساس الكلام ، واشترطوا أن يجمع الكلام الحسن بينهما ، قال ابن طباطبا : « فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة المعنى وعذوبة اللفظ فصفا مسموعه ومعقوله من الكدر تم قبوله له واشتماله عليه ، وإن نقص جزء من أجزائه التي يعمل بها وهي اعتدال الوزن وصواب المعنى وحسن الألفاظ كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان اجزائه » . ولم يتحدث قدامة عن هذه القضية ولكن فصول كتابه توحي بأنه جمع بينهما وإن قال أن بعض الأشعار تستجاد بما فيها من حسن اللفظ ورونق الفصاحة وإن خلت من سائر النعوت ، وهو ما أشار إليه ابن قتيبة حينما قال : « وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى كقول القائل :

ولمّـا قَضينا من مِنًى كُلَّ حاجَـةٍ وَمَسَّحَ بـالأركانِ مَنْ هو ماسِحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المهارى رِحالُنا ولم ينظرِ الغادي الذي هو رائِحُ
أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننـا وسالَتْ بأعناقِ المَطيِّ الأباطحُ

واشترط ابن وهب في الشعر الجيد صحة المقابلة وحسن النظم وجزالة اللفظ واعتدال الوزن وإصابة التشبيه وجودة التفصيل وقلة التكلف والمشاكلة في المطابقة وهذه من صفات اللفظ والمعنى .

وتحدث النقاد الآخرون عن هذه القضية ، ولكن دراساتهم لم تكن مفصلة ولم ينظروا إليها نظرة مستقلة وإنما ذكروها في تضاعيف كتبهم واتخذوها وسائل توصل إلى الغرض وتحقق الهدف . وكان أبو هلال العسكري من أكثرهم اهتماماً بها ووقوفاً عندها ، ويبدو مما ذكر في كتاب « الصناعتين » أنه يميل إلى اللفظ أكثر من ميله إلى المعنى وهو متأثر في ذلك بظاهر عبارة الجاحظ ولكنه لا يهمل المعنى وإنما اعتنى به كعنايته باللفظ وقسم المعاني إلى نوعين : نوع يبتدعه صاحب

الصناعة من غير أن يكون له أمام يقتدي به ، ونوع يحتذيه على مثال تقدم .

٢ ــ الشعر :

كان كتاب « قواعد الشعر » لثعلب إيذاناً بالتخصص في دراسة الشعر ، ووضع ابن طباطبا العلوي كتاباً فيه وقال عنه أنه « كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم الذي ان عدل عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق . ونظمه معلوم محدود ، فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه » . وقال قدامة عنه أنه « قول موزون مقفى يدل على معنى » ، وليس في هذا التعريف خصائص الشعر كلها ويكاد هذا القول لا يخرج عن المنطق الذي يحصر القضايا لتتبين حدودها وتتضح معالمها . وكان حديث ابن وهب عن الشعر أكثر دقة وعمقاً فالشاعر عنده من « شعر يشعر شعراً فهو شاعر ولا يستحق الشاعر هذا الاسم حتى يأتي بما لا يشعر به غيره . وإذا كان إنما استحق اسم الشاعر لما ذكرنا فكل من كان خارجاً عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون مقفى » . وأضاف الباقلاني إلى ذلك أن « حد الشعر الصحيح أن يكون كلاماً مقفى موزوناً لا يقع مثله إلا من عالم به قاصد إلى وزنه وتقفيته » . وهو في هذا التعريف وضع الحدود الفاصلة بين الشعر وغيره ، والشعر عنده لا بد أن يكون موزوناً مقفى يزيد على بيتين في وزن واحد وروي واحد وإن يقصد إليه ولذلك لا يسمى شعراً كل ما يقال عفو الخاطر .

ولا يخرج الشعر عند النقاد عن هذا المعنى الذي وقف عنده رجال القرن الرابع ، وقد اشترطوا قبل مراسه وتكلف نظمه التوسع في علم اللغة والبراعة في فهم الاعراب والرواية لفنون الأدب والمعرفة بأيام العرب وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم . أما فنونه فقد كان قدامة أول من فصل الكلام فيها وهي كثيرة اقتصر

على بعضها لتكون مثالاً لغيرها وهي : المديح والهجاء والمراثي والتشبيه والوصف والنسيب ، وربط بعضها بالفضائل النفسية وهي : العقل والعفة والعدل والشجاعة . وأرجع ابن وهب فنون الشعر إلى أربعة أصناف : المديح والهجاء والحكمة واللهو ، ولم يخرج أبو هلال عما استقر عند هذين الناقدين ، والفنون عنده هي : المديح والهجاء والوصف والتشبيب ، وتدخل الأغراض والمقاصد الأخرى في هذه الالوان .

٣ ـ **القصيدة :**

تحدث نقاد هذا القرن عن نظم القصيدة والمراحل التي تمر بها ، وقد أوضحها ابن طباطبا ولخصها في أربع : مرحلة التفكير في نظم القصيدة ، ومرحلة الانتاج ، ومرحلة الترتيب والتنسيق ، ومرحلة التثقيف والتهذيب . ولا يخرج كلام النقاد الآخرين عن هذه المراحل ، وقد ذكر أبو هلال أن نظم الشعر يحتاج إلى إحضار المعاني واختيار الوزن والقافية وتهذيب القصيدة وإعادة النظر فيها لتستقيم .

وكان الحديث عن بناء القصيدة من أهم ما شغلهم ، ويتجلى ذلك عند ابن طباطبا الذي قال أن صانع الشعر ينبغي أن يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة حسنة مجتلبة لمحبة السامع له والناظر بعقله إليه مستدعية لعشق المتأمل في محاسنه والمتفرس في بدائعه فيحسه جسماً ويحققه روحاً أي يتقنه لفظاً ويبدعه معنى ويتجنب اخراجه على ضد هذه الصفة فيكسوه قبحاً ويبرزه مسخاً ، بل يسوي أعضاءه وزناً ويعدل أجزاءه تأليفاً ويحسن صورته اصابة ويكثر رونقه اختصاراً ويكرم عنصره صدقاً ويفيده القبول رقة . وينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره ومفتتح أقواله وأن يتجنب ما ليس له صلة بالموضوع وأن يحسن التخلص من غرض إلى آخر وأن يربط الأبيات ربطاً محكماً ، وأن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة ، وأن يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ويتصل كلامه فيها ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه أو بين تمامه فصلاً من حشو ليس من جنس ما هو فيه فينسى السامع المعنى

الذي يسوق القول إليه كما أنه يحترز من ذلك في كل بيت فلا يباعد كلمة عن أختها ولا يحجز بينها وبين تمامها بحشو يشينها ، ويتفقد كل مصراع ومشاكلة ما قبله . وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاماً يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله ، فإن قدم بيتاً على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل القائمة بأنفسها وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها والأمثال السائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً لا تناقض في معانيها ولا وهي في مبانيها ولا تكلف في نسجها تقتضي كل كلمة ما بعدها ويكون ما بعدها متعلقاً بها مفتقراً إليها .

وأوضح الحاتمي هذه القضية وقال أن من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم متصلاً به غير منفصل منه فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض اعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتعفي معالم جماله . ورأى أن أرباب الصناعة في العصر العباسي يحترسون من مثل هذه الحال احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ويقف بهم وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل منها جزء عن جزء . وهذا مذهب اختصوا به لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم واعتمادهم البديع وأفانينه في اشعارهم وكأنه مذهب سهلوا حزنه ونهجوا رسمه .

وأكد النقاد الآخرون على وحدة القصيدة وبنائها ولكنهم لم يفصلوا القول فيها كابن طباطبا الذي لو حاول أن يطبق كلامه على بعض القصائد لسبق المعاصرين ولكنه وقف عند الأبيات القليلة مشيراً إلى ما بينها من تفاوت وعدم ترابط وانسجام . ولعل في كتب الحاتمي المفقودة أو المخطوطة ما يوضح هذه القضية التي لم تنل عناية من النقاد قبل القرن الرابع . ولا تكاد الأقوال التي ذكرها الجاحظ

وابن قتيبة ترسم صورة واضحة لفهم العرب لها ، ولكن نقاد هذا القرن أولوها عناية كبيرة ووقفوا عندها وضربوا لها الأمثلة وإن كانت قليلة مبتسرة .

٤ ـ البديع :

ظل البديع في هذا القرن واسع المعنى كما كان في السابق ، وبقي يطلق على فنون البلاغة كلها ، ولكن النقاد والبلاغيين اختلفوا في أهميته وصلته بإعجاز كتاب الله ، فذهب فريق إلى أن الإعجاز لا يؤخذ من فنونه وإنما هي من اسبابه ويمثل هذا الفريق الباقلاني الذي ذهب إلى أن القرآن معجز بنظمه . وذهب فريق آخر إلى أنه من وسائل النقد وأن الناقد لا بد أن يستعين بفنونه في نقده . ولم يكن بدّ من العناية به بعد حركة التجديد التي بدأها الشعراء في العصر الأول من حياة الدولة العباسية ، وكان أبو تمام من أكثرهم خروجاً على عمود الشعر العربي ، وكانت الاستعارة والتجنيس والمطابقة من الفنون التي طال الحديث عنها والوقوف عليها بعد أن أسرف أبو تمام فيها . ودفع التعصب للبديع إلى أن يؤلف إبن المعتز كتابه « البديع » ليقول للمحدثين أن هذا الفن ليس طارئاً وإنما هو عربي أصيل عرف في القرآن وكلام العرب . وأحصى في كتابه خمسة فنون سماها البديع هي : الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها والمذهب الكلامي . وذكر ثلاثة عشر محسناً هي : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل الذي يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والافراط في الصفة ، وحسن التشبيه ، ولزوم ما لا يلزم ، وحسن الابتداء . وأضاف قدامة بن جعفر فنوناً جديدة لم تسلم له كلها بل كان مسبوقاً في بعضها ، وذكر أبو أحمد العسكري فنوناً أخرى ثم أضاف أبو هلال سبعة فنون لم تسلم له كلها ، وأشار الباقلاني في « إعجاز القرآن » إلى معظم فنون البديع التي عرفت قبله ، وبذلك كان كتابه خلاصة لها أفاد منها المتأخرون وأضافوا ما أضافوا حتى أوصلوها إلى أكثر من مائة في عصر البديعيات .

إن حياة البديع في القرن الرابع كانت مزهرة يانعة لأن البلاغة ما تزال في

حيويتها وما تزال العناية بالأساليب عظيمة ، ولذلك لم تسيطر على النقد فابن طباطبا لم يفرد لها فصولاً وإنما أشار إليها في أثناء كلامه على الشعر ، ولم يتخذها الباقلاني أساساً في دراسة إعجاز القرآن بل قرر أن الإعجاز لا يكون بالبديع ، ووقف منها هذا الموقف الآمدي والقاضي الجرجاني واتخذاهـا وسائل يستعين بها الناقد في الحكم على الشعر وتمييز رديئه من جيده ، ولذلك لا يجد الباحث فصولاً مفردة وإنما تناثر الحديث عنها في المواضع التي كان الناقد في حاجة إليها ، وكأن دعوة قدامة إلى الاهتمام بالبلاغة وتنويعها واستحداث فنون جديدة لم تجد أذناً صاغية عند هذين الناقدين . ويكاد القرن الرابع ينفرد بالاتجاه النقدي لولا اتجاه أبي هلال إلى فنون البلاغة وتحويل النقد إليها فأصبحت الكتب بعده بمنأى عما رسمه الآمدي والقاضي وظلت كذلك إلى هذا العصر .

٥ ـ عمود الشعر :

وكان ثمرة الحديث عن الشعر واللفظ والمعنى ووحدة القصيدة والبديع تبلور قضية عمود الشعر وهو السير على تقاليد العرب ومذاهبهم في الشعر . وكان الآمدي ممن التزم في نقده بهذا العمود وانطلق منه في موازنته والحديث عن أبي تمام والبحتري ، وكان يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع ويعيب على الشعراء الاغراق والابداع والميل إلى وحشي الألفاظ والمعاني . ويتضح ذلك في مقدمة كتابه حينما ذكر إن الذين يفضلون البحتري هم الكتاب والاعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة ، وإن الذين يفضلون أبا تمام هم أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل إلى التدقيق وفلسفي الكلام . ولم يضع الآمدي قواعد هذا العمود ويحددها تحديداً دقيقاً وإنما أشار اليها في أثناء نقده وتعليقاته ، ولكن القاضي الجرجاني حدده ووضعه الوضع الأخـير وقال عنه : « وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالابداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض » . ونقله عنه من

جاء بعده كالمرزوقي الذي قال في مقدمة شرح حماسة أبي تمام : « إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والاصابة في الوصف ـ ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات ـ والمقاربة في التشبيه والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ومناسبة المستعار منه للمستعار له ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما . فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر » .

والتزم فريق من الشعراء والنقاد بعمود الشعر وبنوا عليه قصائدهم وأحكامهم النقدية ، وكان يقف في الجانب الآخر فريق يمثلهم أبو تمام حاولوا كسر عمود الشعر والخروج عليه ، ومن أجل ذلك ثارت الخصومات بين أنصاره وخصومه وألفت كتب كثيرة تتحدث عن ذلك الصراع ، وبذلك كسب الأدب العربي شعراً بديعاً وقيما نقدية جديدة .

٦ ـ السرقات :

والبحث في السرقات الأدبية قديم ولا يكاد يخلو منها كتاب نقدي أو بلاغي ، وذكر ابن طباطبا انه ينبغي أن لا يغير الشاعر على معاني الشعر فيودعها شعره ويخرجها في أوزان مخالفة لأوزان الشعراء التي يتناول منها ما يتناول ويتوهم أن تغييره للألفاظ والأوزان مما يستر سرقته أو يوجب له فضيلة . وإذا تناول المعاني التي سُبِــق اليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب بل وجب له فضل لطفه وإحسانه . واهتم أبو هلال بهذه المسألة ولم يسمها سرقة بل سماها أخذا وقسمه إلى حسن وقبيح ، وعقد له الباب السادس من الصناعتين وتحدث عن تداول المعاني ، وإنه ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ولكن أن يكسوها ألفاظاً من عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم ويوردوها في غير حليتها الأولى ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها . ولا عيب في أخذ المعنى ، لأن المعاني متداولة بين الناس وإنما العيب إذا أخذه بلفظه كله أو أخذه فأفسده وقصر فيه عمن تقدمه .

وتحدث عن حل المنظوم واعتنى بأخذ الشعراء من النثر ، وهذه محاولة جديدة لم يعن بها النقاد من قبل عناية ظاهرة لأن جهودهم كانت متجهة إلى السرقات الشعرية .

وكانت الخصومة بين أنصار القديم والجديد سبباً من أسباب العناية بهذه القضية فقد اتهموا أبا تمام والبحتري والمتنبي بالأخذ عن السابقين والاغارة على معانيهم وألفاظهم ، وحينما ألف الآمدي « الموازنة » وألّف الجرجاني « الوساطة » كانت السرقات من أهم القضايا النقدية . وقد ذهب الآمدي إلى أن السرقة تكون في البديع الذي ليس للناس فيه إشتراك وهي ليست من كبير المساوىء ولا بأس أن يتفق شاعران ينشآن في بيئة واحدة . والسرقات عند الجرجاني موضوع خطير لا ينهض به إلا الناقد البصير والعالم المبرز ، وهي داء قديم لم يعر أحد منها . ولذلك حدد المواضع التي تمتنع السرقة فيها بالمعاني المشتركة التي لا ينفرد بها شاعر دون شاعر ، والمعاني المخترعة التي استفاضت على السن الشعراء حتى صارت كالمعاني المشتركة ، وأسماء المواضع والألفاظ المشهورة وما يأتي عفواً من قبيل توارد الخواطر . ومواطن السرقة الممدوحة : الزيادة والاختصار والقلب والنقل ، أما المذمومة فهي نوعان : سرقة ظاهرة تكون في اللفظ والمعنى وهي أسوأ الأنواع وسرقة خفية تحتاج إلى فطنة . ودراسة الجرجاني من أوسع الدراسات في تلك الفترة وتتجلى فيها قدرته على تنويعها ومتابعتها والتعليق عليها ، وتتضح موهبته في الحديث عن سرقات المتنبي وتوجيهها ، ويكاد معظم كتابه يتصل بهذه القضية التي شغلت النقاد والبلاغيين وهم يتحدثون عن الابداع والاتباع . وزادت العناية بهذه القضية فيما بعد وأطال المؤلفون الحديث عنها وقسموها إلى أقسام كثيرة كما فعل ابن رشيق وابن الأثير . ولو أخذ المتأخرون برأي عبد القاهر الجرجاني لوقف البحث في السرقات ولاختصرت أقسامها ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى ذلك ومضوا في سبيلهم ينوعون ويقسمون .

تلك أهم قضايا النقد في القرن الرابع وهي مرتبطة بالشعر وفنونه ، ولكن النثر في هذا القرن نال عناية كبيرة أيضاً وإن كان الجاحظ في القرن الثالث قد

أولاه اهتماماً عظيماً . لقد تطور النثر وأصبح ينافس الشعر وظهر كتاب كبار كأبي حيان التوحيدي والصاحب بن عباد وابن العميد ، وأصبحت لهم أساليب تنسب اليهم . وكان لا بد أن يقف النقد يوجه هذا الفن الذي ازدهر ، ولعل كتاب « البرهان في وجوه البيان » أو « نقد النثر » لابن وهب من أهم الكتب التي عنيت بهذا الفن فقد قسمه إلى أربعة أقسام : الخطابة والترسل والاحتجاج والحديث . ووضع لكل لون مقاييسه ووصفه بما ينبغي أن يكون عليه . وحينما جاء أبو هلال العسكري وضع كتاب « الصناعتين » في الشعر والنثر وأولاهما عناية بالغة . وصارت هذه الطريقة التي سار عليها نقاد هذا القرن سنة أخذ بها النقاد والبلاغيون فكانت كتب الترسل وصناعته في العهود المتأخرة .

تلك خلاصة ما مر في الاتجاهات الأربعة ، وقد اتضح فيها أنَّ النقد الأدبي في القرن الرابع كان مزدهراً ، وقد اتخذ النقاد والبلاغيون مؤلفات أعلامه أساساً لهم في كل ما ألفوا أو أضافوا وظلت مناراً يهديهم وإن خرجوا على ما فيها من روح أدبية وأحالوها قواعد جامدة لا تنفع ناقداً ولا تخدم أدباً . وإذا كان عبد القاهر في القرن الخامس قد أقام نظرية النظم التي نظر من خلالها إلى إعجاز كتاب الله العزيز ، واللفظ والمعنى ، والسرقات ، والبيان والبديع ، فإنَّ مَنْ جاء بعده لم يقف عندها ليضيف اليها ويكمل أبعادها ويطورها وإنمّا عاد إلى ما دوَّنه النقاد البديعيون كقدامة وأبي هلال ، وبذلك فقد النقد الأدبي نظرية لو قُدِّر لها أنْ تتطور لأفادت الأدب ونقلته إلى حياة جديدة . ولعل في العودة إلى نقاد القرن الرابع وإلى بلاغة عبد القاهر ونقده إحياءً للتراث النافع والافادة منه في تطوير الأدب العربي ونقده بعد أن أصبح في مهب الريح ، فلا هو بالأجنبي الذي عُرفت أصوله ولا بالعربي الذي اتضحت فنونه ، وذلك ما لا ترتضيه أمة تريد لنفسها الحياة الكريمة .

الدكتور أحمد مطلوب

المصادر والمراجع

آدم متز :

١ ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة . القاهرة ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م.

الآمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى)

٢ ـ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري . تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف ـ القاهرة .

ابن الأثير (ضياء الدين الجزري)

٣ ـ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور . تحقيق الدكتورين مصطفى جواد وجميل سعيد . بغداد ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م .

٤ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م .

ابن أبي عون الكاتب

٥ ـ كتاب التشبيهات . نشره عبد المعيد خان في لندن سنة ١٩٥٠ م .

احسان عباس (الدكتور)

٦ ـ تأريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر) من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري . بيروت ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م .

أحمد أمين :

٧ ـ النقد الأدبي . ط ٢ ـ القاهرة ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م .

الأسد آبادي (القاضي أبو الحسن عبد الجبار)

٨ ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل ـ الجزء السادس عشر . تحقيق أمين الخولي . القاهرة . ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م .

الأشعري (ابو الحسن)

٩ ـ مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين . تحقيق ريتر . استانبول ١٩٢٩ م .

الأصفهاني (أبو الفرج) :

١٠ ـ الأغاني . الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة .

الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب) :

١١ ـ اعجاز القرآن . تحقيق السيد أحمد الصقر . دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٣ م .

١٢ ـ كتاب البيان . تحقيق الأب رتشرد يوسف مكارثي اليسوعي . بيروت ١٩٥٨ م .

١٣ ـ كتاب التمهيد . تحقيق الأب رتشرد مكارثي اليسوعي . بيروت ١٩٥٧ م .

١٤ ـ نكت الانتصار لنقل القرآن . تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام . الاسكندرية ١٩٧١ م .

بدوي (الدكتور أحمد أحمد)

١٥ ـ أسس النقد الأدبي عند العرب . ط ٣ ـ القاهرة ١٩٦٤ م .

١٦ ـ القاضي الجرجاني . (نوابغ الفكر العربي ٣٣) ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٤ م .

البديعي (يوسف)

١٧ ـ الصبح المنبي عن حيثية المتنبي . تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا وعبده زيادة عبدة . دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٣ م .

١٨ ـ هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام . نشره محمود مصطفى . القاهرة ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٤ م .

بلاشير :

١٩ ـ ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ترجمة الدكتور أحمد أحمد بدوي . القاهرة .

التوحيدي (أبو حيان) .

٢٠ ـ الامتاع والمؤانسة . تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين . القاهرة .

التبريزي (الخطيب) :

٢١ ـ شرح ديوان أبي تمام . تحقيق محمد عبده عزام . دار المعارف القاهرة .

الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد) :

٢٢ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . ط ٢ ـ القاهرة ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م .

ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى) :

٢٣ ـ قواعد الشعر . تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي . القاهرة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م .

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) :

٢٤ ـ البيان والتبيين . تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م .

٢٥ ـ الحيوان . تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٨ م .

الجرجاني (القاضي علي بن عبد العزيز) :

٢٦ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي . ط ٣ ـ القاهرة .

الجمحي (محمد بن سلام) :

٢٧ ـ طبقات فحول الشعراء . تحقيق محمود شاكر . دار المعارف ـ القاهرة .

جميل سعيد (الدكتور) :

٢٨ ـ دروس في البلاغة وتطورها . بغداد ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م .

ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني) :

٢٩ ـ الفسر (شرح ديوان أبي الطيب المتنبي) . تحقيق الدكتور صفاء

خلوصي . بغداد ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .
الحاتمي (أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الكاتب) :
٣٠ ـ الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام أرسطو في الحكمة . تحقيق فؤاد أفرام البستاني بيروت ١٩٣١ م .
٣١ ـ الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره . تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم . بيروت ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م .
أبو حمدة (محمد علي) :
٣٢ ـ أبو القاسم الآمدي وكتابه الموازنة . بيروت ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م .
٣٣ ـ النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري في القرن الرابع الهجري . بيروت ١٩٦٩ م .
الحموي (ياقوت) :
٣٤ ـ معجم الأدباء . تحقيق الرفاعي ـ القاهرة .
الخالديان (أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم) :
٣٥ ـ الاشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين . تحقيق الدكتور السيد محمد يوسف . القاهرة ١٩٥٨ م .
الخطابي (أبو سليمان حمد بن محمد) :
٣٦ ـ بيان إعجاز القرآن (مطبوع في كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق الأستاذ محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلام . دار المعارف ـ القاهرة .
الخولي (أمين) :
٣٧ ـ مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب القاهرة ١٩٦١ م .
الربداوي (الدكتور محمود) :
٣٨ ـ الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام . بيروت ١٩٦٩ م .

الرماني (ابو الحسن علي بن عيسى) :

٣٩ ـ النكت في إعجاز القرآن . (مطبوع في ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) .

زكي مبارك (الدكتور) :

٤٠ ـ النثر الفني في القرن الرابع . القاهرة ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م .

سلام (الدكتور محمد زغلول) :

٤١ ـ أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى أواخر القرن الرابع الهجري . ط ٣ ـ دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ م .

٤٢ ـ تأريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري . دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٤ م .

سلامة (الدكتور ابراهيم) :

٤٣ ـ بلاغة أرسطو بين العرب واليونان . ط ٢ ـ القاهرة ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م .

السمرة (الدكتور محمود) :

٤٤ ـ القاضي الجرجاني الأديب الناقد . بيروت ١٩٦٦ م .

شعيب (الدكتور محمد عبد الرحمن) :

٤٥ ـ المتنبي بين ناقديه . دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٤ م .

شوقي ضيف (الدكتور) :

٤٦ ـ البلاغة تطور وتأريخ . دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٥ م .

٤٧ ـ تأريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ط ٤ دار المعارف ـ القاهرة .

٤٨ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي . ط ٤ ـ دار المعارف القاهرة ١٩٦٠ م .

الصاحب بن عباد :

٤٩ ـ الكشف عن مساوىء المتنبي (مطبوع في كتاب الابانة عن سرقات

المتنبي للعميدي) تحقيق ابراهيم الدسوقي . دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦١ م .

صقر خفاجة (الدكتور) :

٥٠ ـ النقد الأدبي عند اليونان . القاهرة ١٩٦٢ م .

الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى) :

٥١ ـ أخبار أبي تمام . تحقيق خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الاسلام الهندي . القاهرة .

٥٢ ـ أخبار البحتري . تحقيق الدكتور صالح الاشتر ـ ط ٢ ـ دمشق ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤ م .

طه أحمد ابراهيم :

٥٣ ـ تأريخ النقد الأدبي عند العرب . ط ٢ ـ بيروت .

طه حسين (الدكتور) :

٥٤ ـ في الأدب الجاهلي . ط ٤ ـ القاهرة ١٩٤٧ م .

ابن طباطبا (محمد بن أحمد العلوي) :

٥٥ ـ عيار الشعر . تحقيق الدكتورين طه الحاجري ومحمد زغلول سلام . القاهرة ١٩٥٦ م .

طبانة (الدكتور بدوي) :

٥٦ ـ أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية . ط ٢ ـ القاهرة ١٣٧٩ هـ . ١٩٦٠ م .

٥٧ ـ البيان العربي . ط ٤ ـ القاهرة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .

٥٨ ـ قدامة بن جعفر والنقد الأدبي . ط ٢ ـ القاهرة ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م .

ابن عبد ربه :

٥٩ ـ العقد الفريد . القاهرة ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٥ م .

أبو عبيدة (معمر بن المثنى) :

٦٠ ـ مجاز القرآن . تحقيق الدكتور فؤاد سزكين . القاهرة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م .

العسكري (أبو أحمد الحسن بن عبد الله) :

٦١ ـ المصون في الأدب . تحقيق عبد السلام محمد هارون . الكويت ١٩٦٠ م .

العسكري (أبوهلال الحسن بن عبد الله) :

٦٢ ـ كتاب الصناعتين . تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م .

العشماوي (الدكتور محمد زكي) :

٦٣ ـ قضايا النقد الأدبي والبلاغة . الاسكندرية ١٩٦٧ م .

العميدي (أبو سعد محمد بن أحمد) :

٦٤ ـ الابانة عن سرقات المتنبي . تحقيق ابراهيم الدسوقي . دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦١ م .

غرنباوم (غوستاف فون) :

٦٥ ـ دراسات في الأدب العربي . ترجمة الدكاترة احسان عباس وأنيس فريحة ومحمد يوسف نجم وكمال يازجي . بيروت ١٩٥٩ م .

الفراء (أبو زكرياء يحيى بن زياد) :

٦٦ ـ معاني القرآن . تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي . دار الكتب ـ القاهرة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م .

ابن قتيبة :

٦٧ ـ تأويل مشكل القرآن . تحقيق السيد أحمد صقر . القاهرة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م .

٦٨ ـ الشعر والشعراء . تحقيق أحمد محمد شاكر . ط ٢ ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م .

قدامة بن جعفر .

٦٩ ـ جواهر الألفاظ . القاهرة ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣٢ م .

٧٠ ـ الخراج وصناعة الكتابة . مخطوطة مصورة في المكتبة المركزية بجامعة بغداد .

٧١ ـ نقد الشعر . تحقيق كمال مصطفى . ط ٢ ـ القاهرة ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٣ م .

القرشي (أبو زيد) :

٧٢ ـ جمهرة أشعار العرب . دار صادر ـ بيروت ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م .

القيرواني (ابن رشيق) :

٧٣ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . ط ٣ ـ القاهرة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٦٣ م .

المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) :

٧٤ ـ الكامل . تحقيق الدكتور زكي مبارك . القاهرة . ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م .

٧٥ ـ المقتضب . تحقيق . محمد عبد الخالق عضيمة . القاهرة ١٣٨٥ هـ ـ وما بعدها .

محمد الخضر حسين :

٧٦ ـ الخيال في الشعر العربي . ط ٢ ـ ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م .

محمد خلف الله أحمد :

٧٧ ـ دراسات في الأدب الاسلامي . القاهرة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م .

٧٨ ـ من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده . ط ٢ ـ القاهرة ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .

محمد مندور (الدكتور) :

٧٩ ـ النقد المنهجي عند العرب . ط ٢ ـ القاهرة .

المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران) :

٨٠ ـ الموشح . تحقيق علي محمد البجاوي . القاهرة ١٩٦٥ م .

المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن) :

٨١ ـ شرح ديوان الحماسة . تحقيق أحمد أمين وعبد السلام محمد هارون . القاهرة ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥١ م .

ابن المعتز (الخليفة عبد الله) :

٨٢ ـ البديع . تحقيق كراتشكوفسكي . لندن ١٩٣٥ م .

٨٣ ـ طبقات الشعراء . تحقيق عبد الستار أحمد فراج . دار المعارف ـ القاهرة .

ابن منظور :

٨٤ ـ أخبار أبي نواس . تحقيق عمر أبو النصر . بيروت ١٩٦٩ م .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) .

٨٥ ـ السيرة النبوية . تحقيق مصطفى السقا وجماعته . ط ٢ ـ القاهرة ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م .

ابن وهب (أبو الحسن اسحاق بن ابراهيم بن سليمان الكاتب) .

٨٦ ـ البرهان في وجوه البيان . تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي . بغداد ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م .

الفهرس

طبع بالأوفست
على
مطابع دار العلم للملايين
بيروت

توزيع

دار العلم للملايين

بيروت